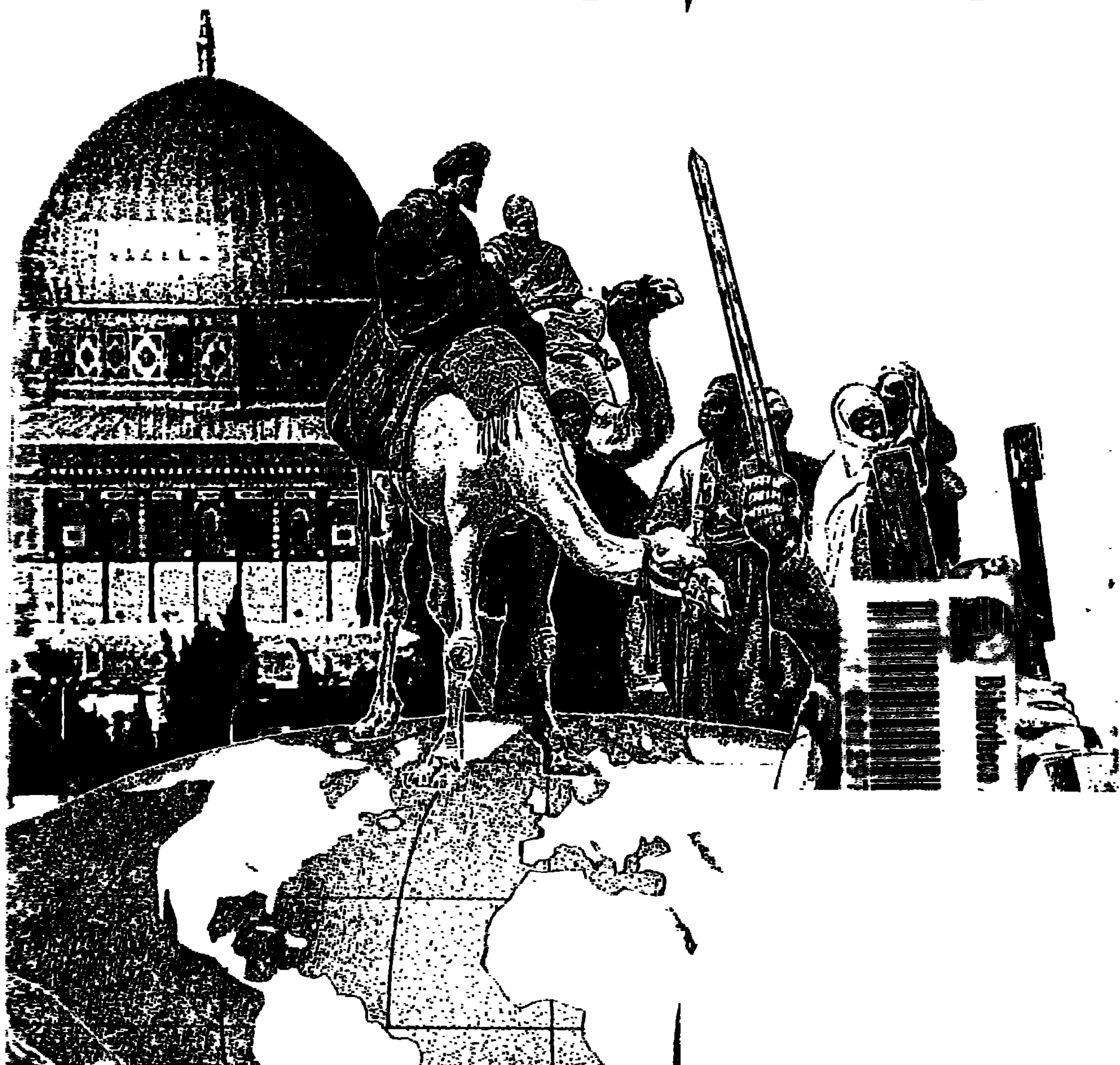




دكتور محمد مؤنس عوض

الجعلانيون وحالة المسلمين

في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



الجغرافيون والرحالة المسلمون

فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية

إعداد

د. محمد مؤنس أحمد عوض

كلية الآداب - جامعة عين شمس

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - أبها

الطبعة الأولى

١٩٩٥



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر :

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - تليفون : ٢٨٥١٢٧٦

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الإهداء

إلى مؤرخين فاضلين،
من مؤرخي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى،
بكلية الآداب - جامعة عين شمس، وهما :
أ.د. أحمد رمضان أحمد، أ.د. إسحق عبيد.
وفاءً لهما، وتقديرًا لعلمهما،
إذ أن إسهاماتهما العلمية تتحدث عن نفسها.

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾
صدق الله العظيم

سافر تجد عرضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لزيد العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يظب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
لحلها الناس من عجم ومن عرب

الإمام الشافعي
رضي الله تعالى عنه

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدراسة الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م)، وما قدموه في مؤلفاتهم من جوانب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وغيرها، ولا ريب في أن ذلك للموضوع يحتل مكانة متميزة من بين موضوعات دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وعلى نحو خاص، خلال مرحلة الحروب الصليبية التي شهدت فيها بلاد الشام جانباً وافراً من أحداثها الزاخرة بالصراع بين عالمي الإسلام والمسيحية.

ومكمن الأهمية التي يمكن أن تعلق على موضوع الدراسة، أن المصادر التاريخية التي وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء لدى الجانب الإسلامي أو الصليبي اتسمت بالاهتمام بالزوايا السياسية والحربية في المقام الأول. أما النواحي الحضارية الأخرى - مع عدم إغفال أهمية الجوانب الأولى بالطبع - فإنها لم تحظ عند مؤرخي ذلك العصر، إلا بالقليل من العناية، وإن وردت لدى مؤلفات المؤرخين حينذاك، فهي بصورة ضمنية، وعرضية، ولا تتناسب مع ضخامة ما ورد بشأن الزوايا السياسية والحربية الأخرى.

وهكذا، يمكن أن نقرر أن هناك فجوة ما في النصوص المصدرة من ذلك العصر، على اعتبار أن تلك الجوانب الحضارية تعد محدودة وسط الكم المتراكم من الأحداث السياسية والحربية الطابع.

وهنا تبدو أهمية مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين عاصروا تلك الرحالة المنظمة من تاريخ منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، إذ أن كتاباتهم تسد جانباً له

شأنه من تلك الفجوة المصدرية لاحتوائها على إشارات قيمة على الأصعدة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، وغيرها.

زد على ذلك، فإن أولئك الجغرافيين والرحالة قدموا لنا، خاصة أولئك الذين قدموا من خارج بلاد الشام، رؤية مهمة من خلال عيون غربية وافدة على المنطقة، ولذلك نجد في نصوص مؤلفاتهم زوايا ندر أن تتردد في كتب الحوليات، وتعليل ذلك أن الجغرافي والرحالة الذي تكون عقله في مجتمع ما بأبعاده المحلية، عندما تطأ أقدامه أرض مجتمع آخر، وبخاصة خلال عصر الصراع العنيف بين عالمي الإسلام، والمسيحية، يحرص الحرس أجمعه على إبراد كل ما تقع عليه عيناه من مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ولا مراء في أن ذلك كله أدى إلى إثراء مؤلفاتهم، وتميزها بتصورات شخصية ثرية.

فلا عجب، والأمر كذلك، أن قدم أولئك الجغرافيون والرحالة نصوصاً تمتاز بالحيوية المتدفقة بين ثناياها. وكأنا نعيش فعلاً في ذلك المجتمع الذي وفدوا عليه، على الرغم من انقضاء ثمانية قرون كاملة من الزمان على تلك الوقائع والمظاهر الحضارية التي أوردوا أمرها.

وما عمق تلك الزاوية السابقة، أن أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر، كانوا في الغالب موسوعي الثقافة، وضرب عدد منهم يسهم وافر في العديد من مجالات التأليف العلمي، والأدبي، وتمتعوا - بصفة عامة - بقوة الملاحظة والقدرة على الوصف الحي المتدفق، بالإضافة إلى سلاسة العبارة ذاتها، ولا ريب في أن كل ذلك قد ضمن لأولئك الجغرافيين، والرحالة وما تركوه من مؤلفات مكانة متميزة من بين المصادر التاريخية لتلك المرحلة.

ومن جهة أخرى، من الضرورة بمكان ملاحظة أن مؤلفات أولئك الجغرافيين

والرحالة المسلمين تقدم لنا نوعاً هاماً من المصادر التي تلتقى فيها الرؤيتان الجغرافية والتاريخية، وهكذا، فليس من الممكن قبول الاعتماد كلية على المصادر التاريخية الصرفة التي تتناول تاريخ القيادات والدول. ونغفل تلك المؤلفات الجغرافية وما كتبه الرحالة المسلمون الذين قدموا إلى بلاد الشام. فإذا ما لاحظنا أن الجغرافية ذاتها توجه التاريخ. وأن التاريخ ذاته - في أحد جوانبه - ما هو إلا صراع على الجغرافيا، أدركنا أهمية تلك المؤلفات، مع عدم إغفال القيمة المتنامية للمصادر التاريخية التقليدية من كتب الحوليات، والتراجم، والوفيات، والطبقات، وغيرها من صنوف الكتابة التاريخية التي وصلت إلينا من ذلك العصر، سواء كانت لدى الجانب الإسلامي أو الصليبي.

وإضافة إلى ذلك، تقدم مؤلفات أولئك الجغرافيين، والرحالة المسلمين رؤية تعكس تصور أحد أطراف المواجهة للطرف الآخر، فمن الأهمية بمكان ملاحظة كيف نظر المسلمون للصليبيين، بسليبتهم وإيجابياتهم، ومظاهر تلك النظرة، وأثر المواجهة الشرسة بين الجانبين المتصارعين على تكوين رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة وانعكاسها بالتالي على مؤلفاتهم.

وفي هذا المجال، لدينا أوصاف قيمة تفيض حيوية للكيان الصليبي في بلاد الشام، من خلال الرحالة المسلمين الذين دخلوا في ذلك الكيان، ومنهم من عايشه بعمق على مدى مرحلة زمنية طويلة، ومنهم من احتك به على مدى عدة أيام قليلة مركزة، ولا ريب في أن تناول ذلك الكيان من جانب أولئك الرحالة، ومهما تباينت نظرتهم إليه يكشف لنا بالضرورة عن طبيعة ذلك العصر بتصوراته المختلفة.

كما أن نصوص مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين، الذين جابوا ربوع بلاد الشام في ذلك العصر، قدمت لنا تصوراتهم الإنسانية دونما تصنع أو مواربة، بعيداً عن الزهابة وراء الأحداث السياسية والحربية، كما قدمت لنا الأبعاد النفسية العميقة مثل القلق والتوتر إلى غيرها من الجوانب الانفعالية، على نحو يقدم للمؤرخ الذي يبحث

عن النصوص الفريدة مادة هامة من انفعالات عصر بأكمله من خلال أولئك الجغرافيين والرحالة، لا سيما عندما وصفوا المدن الإسلامية، وهي خاضعة للسيادة الصليبية، وكذلك القلاع الصليبية التي زرعت في المنطقة بعناية تأكيداً لبطش المحتل وقوته العسكرية، واستعمارها - أي استخراجه - للأرض التي قلم من أوروبا خصيصاً للقيام بعمليات نهب منظم لثرواتها تحت شعار الصليب.

ومن جهة أخرى، قلمت مؤلفاتهم نصوصاً هامة عن المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في ذلك العصر، مع ملاحظة أن دراسة ذلك المجتمع تحتل أهمية خاصة، على اعتبار أنه المجتمع الذي صد الغزو الصليبي، وواجه تلك الحملات الصليبية الشرسة، وأن تماسكه البنيوي على مدى قرنين من الزمان وانصهاره في بوتقة الجهاد مع وجود بعض الظروف الدولية الخاصة بالصليبيين أنفسهم أو ارتفاع الغارة الأوروبية ذاتها، قد أدى إلى نجاحه في دحر الحركة الصليبية على أرضه، مصححاً بذلك خطأ الانقسام والتشرد السياسي الذي كان عليه عشية مقدم الصليبيين إلى المنطقة في آخريات القرن الخامس هـ / الحادي عشر م.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أماننا - ولحسن الحظ - امتداد مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى القرنين السادس والسابع هـ / الثاني عشر والثالث عشر م. على نحو أفاد تماماً في تتبع التواصل التاريخي للظواهر الحضارية التي وردت في كتاباتهم، مع الاستعانة بالمصادر التاريخية الأخرى بطبيعة الحال.

وتجدر الإشارة إلى أنني في هذا الكتاب أقوم بدراسة عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومنهم من ألف معاجم جغرافية تناولت أوضاع بلاد الشام في ذلك العصر موضوع الدراسة، ومنهم من كتب مؤلفاً خاصاً ومستقلاً تناول فيه أمر رحلته إلى أقاليم متعددة من دول الإسلام، ومنها بلاد الشام بينما نجد بعضهم الآخر لا يؤلف رحلة مستقلة. بل إن ترحاله إلى تلك البلاد تنثر في صفحات مؤلفات أخرى مثل الأنساب،

أو المذكرات الشخصية إلى نحو ذلك. وحيث أن أولئك المؤلفين ما ألفوا تلك المؤلفات إلا من خلال ترحالهم إلى بلاد الشام في ذلك العصر، وهذا ما يتضح من خلال تناولهم لها في ثانيا مؤلفاتهم، فلنا تم اعتبارهم رحالة مسلمين وفدوا إلى تلك البلاد.

ومعنى هذا، إننى لا أعتبر «الرحالة» هو كل من ألف كتاباً احتوى عنوانه على تعبير «الرحلة»، بل الذى احتوت مؤلفاته على جوانب حضارية متعددة يعكس ارتحاله إلى تلك المنطقة مكان الدراسة، ثم تناوله بالملاحظة والعرض لجوانب هامة من تاريخ بلاد الشام على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م، ويدعم التصور السابق موسوعية فكر علماء ذلك العصر وشموليته، وأن بعد الرحلة، والارتحال كان وضاحاً في مؤلفاتهم التى كانت بطبيعتها إفراز عصر عايشوه وشاركوا فيه كل فى مجاله.

ومع ذلك، فهناك نقد يمكن أن يوجه لمؤلفات الجغرافيين والرحالة للمسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ويتمثل ذلك النقد فى أن هناك من أولئك الجغرافيين والرحالة من أمضوا فترات قصيرة فى المدن الإسلامية وكذلك الصليبية التى مروا بها، لا تتجاوز أياماً معدودات، وكتبوا انطباعاتهم عما شاهدوه من خلال تلك المدة الزمنية القصيرة، وبالتالي فليس بالإمكان الأخذ تماماً بكل ما ذكره فى مؤلفاتهم وبخاصة أولئك الذين لم يوردوا إشاراتهم عن المدن المختلفة، من خلال معايشة طويلة.

وعلى الرغم من الوضع السابق، إلا أن من الإنصاف أن نذكر، أن الجغرافيين والرحالة المسلمين عندما أمضوا فترات زمنية قصيرة، فى المواضع التى زاروها كانوا يستشيرون أهلها والمقيمين بها من أجل أن يشتتوا من انطباعاتهم التى كونوها.

ومن ناحية آخرين من الممكن معالجة الوضع المذكور من خلال المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى سواء الإسلامية، أو الصليبية، ومقارنة ما ورد فى مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين بتلك المؤلفات التاريخية، بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر

الإمكان. ثم هناك أيضاً منطلق الأحداث التاريخية ذاتها، وطبيعة ما نعرفه عن الصراع الإسلامي - الصليبي. ولا ريب في أنها تقيّلنا في التعامل مع ما أورده الجغرافيون، والرحالة المسلمون في مؤلفاتهم عن تلك الرحلة.

ولما كنت قد قدمت من قبل - وفق جهدي للتواضع - دراسة مستقلة خاصة بالرحالة الأوروبيين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩/١١٨٧م)، فقد عقدت العزم على تناول الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (القرنان ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م) وذلك بالاعتماد على نصوص مؤلفاتهم، وكذلك دراسات الباحثين المسلمين المحدثين، والغربيين في هذا المجال.

وجدير بالذكر أن هناك عدة مظاهر للافتراق بين الرحالة المسلمين والأوروبيين - سواء من اليهود أو المسيحيين - الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

فمن ناحية؛ نجد أن الرحالة المسلمين، اتسعت المساحة المكثية لرحلاتهم، فشملت مناطق متعددة سواء تحت السيادة السياسية الإسلامية أو المناطق الصليبية، في حين نجد الرحالة الأوروبيين، لاسيما المسيحيين منهم قد اقتصرُوا في رحلاتهم على الأماكن التي ارتبطت بذكرها المسيحية في عهدها المبكر، أما الرحالة اليهود، فلا ينطبق عليهم هذا التصور، على اعتبار أنهم تجاوزوا أماكن المزارات المقدسة لليهود في فلسطين، إلى مناطق أبعد مدى وأوسع مجالاً بالمقارنة بالرحالة المسيحيين خلال الرحلة المذكورة.

ومن جهة أخرى. نجد أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام خلال ذلك العصر، اتسموا بشكل عام بصفة موسوعية المعرفة، ولذا كان منهم الفقهاء، والأدباء والشعراء، وعلماء الأنساب، الأمر الذي لا نجده لدى الرحالة الأوروبيين في ذات المرحلة الزمنية، ومن نتاج ذلك أن الرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام ألفوا مؤلفات

متعددة في مجالات عدة من المعرفة على نحو لا تحصى لدى الرحالة الأوروبيين الذين لم يعرفوا - في الغالب الأعم - إلا من خلال نصوص رحلاتهم التي ألفوها.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أننا نعرف بدقة - غالباً - تراجم الرحالة للمسلمين الذين قصدوا بلاد الشام في ذلك العصر، وذلك بفضل نمو مناهج الكتابة التاريخية الإسلامية، وتوافر مؤلفات في مجالات التراجم، والوفيات، والطبقات بالإضافة إلى مؤلفات الحوليات بطبيعة الحال، أما بالنسبة للرحالة الأوروبيين، فنجد أن معلوماتنا عنهم قليلة، ونادرة، ونعرفها على الأرجح من خلال نصوص رحلاتهم نفسها، وهكذا، فإن عمق تجربة الكتابة التاريخية الإسلامية في ذلك العصر أفاد في تناول تراجم الرحالة للمسلمين حينذاك على نحو كان مفتقداً في الغرب الأوروبي في نفس المرحلة الزمنية. ونفس الأمر بالطبع ينطبق على الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن هذا الكتاب يتناول بالبحث أحد عشر جغرافياً ورحالة مسلماً قد قدموا إلى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ونجد أن بعضهم من المشرق الإسلامي، والبعض الآخر قلم من المغرب والأندلس، بل إن منهم من كان من بلاد الشام نفسها. وقد اتجه الرحالة المشارقة وكذلك المغاربة إلى بلاد الشام ذات العمق الحضارى والتاريخى والجاذبية الخاصة لأولئك الجغرافيين والرحالة في ذلك الحين.

وقد اشتمل الكتاب على بابين. الأول بعنوان «الجغرافيون المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية»، واشتمل على عدد من الجغرافيين مثل الإدريسي (ت. ٥٦هـ / ١١٦٢م)، وياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، والقزويني (ت. ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وعزارين بن شداد (ت. ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) وأبو الفداء (ت. ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).

أما الباب الثانى فبعنوان «الرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب

الصليبية، واشتمل على عدة فصول، حوت السمعاتى (ت. ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)،
وأسامة بن منقذ (ت. ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)، الهروى (ت. ٦١١هـ / ١٢١٥م)،
وابن جبير (ت. ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م).

والجدير بالذكر، أنني تابعت للمؤلفات الجيولوجرافية سواء الأجنبية أو العربية^(١). من
أجل البحث عن الدراسات التي تناولت الجغرافيين والرحالة للمسلمين في بلاد الشام في
عصر الحروب الصليبية، وهناك العديد من الدراسات عن عدد من أولئك الجغرافيين
والرحالة كجزء من دراسات عامة عن الجغرافيا والرحلات في الإسلام في العصور
الوسطى، دون التخصيص المكاني، وأعني به بلاد الشام، والزمانى وأعني به القرنين
٦ و٧هـ / ١٢ و١٣م، وقد أفلتت بقدر الإمكان والجهد المتواضع من تلك الدراسات
من أجل تدعيم البحث، ولا ريب في أنها أفادتني فائدة كبيرة.

ومن بعد ذلك، تم تزويد الكتاب بخاتمة تناولت أهم النتائج التي خلصت إليها،
وكذلك عدداً من الملاحق والخرائط ثم أخيراً قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن مجال الكتابة عن الجغرافيين والرحالة المسلمين
في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مجال خصب، متسع، ويود المؤلف أن يقرر
أنه مازال يطلب العلم والمعرفة، ومازال يدرس عصر لا يدعى فيه أنه أحاط به إحاطة

(١) عن ذلك أنظر :

Tobler, Bibliographia Geographia Palestinae, Leibzeg 1827; Atiya, The
Crusades, Historiography and Bibliography, London, 1962; Mayer, Bibliographie
Zur Geschichte der Kreuzzuges, Hannover, 1965.

قسطنطين زريق «ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى
عن فترة الحروب الصليبية»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية ببيروت، السنة (١٢)، جـ (٢)،
يونيو ١٩٥٩م، محمد مؤنس أحمد عوض، جيولوجرافيا الحروب الصليبية، للراجع العربية والمعرفة،
ندوة التاريخ الإسلامى والوسطى، المجلد الثانى، ط ١، القاهرة ١٩٨٥.

كاملة، ولعل هذا الجهد المبذول؛ يكون مدعاة لباحثين آخرين أكثر جهداً وعطاءً من أجل المساهمة في مجال الجغرافيا والرحلة الإسلامية إلى تلك المنطقة الحيوية، والمهمة، في تاريخ المسلمين في العصور الوسطى بصفة عامة، وعصر الحروب الصليبية بصفة خاصة.

وأخيراً.. أود أن أعرب عن شكرى وتقديرى العميق للزملاء كافة الذين أسدوا إلى النصيحة، أو قدموا لى يد للمساعدة العلمية الصادقة، وتعلمت منهم الكثير سواء فى مصر أو فى المملكة العربية السعودية، كما أتوجه بالشكر للقائمين على مكتبات الجمعية الجغرافية المصرية، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ودير الآباء الدومنيكان، ومكتبة كلية الآداب، جامعة عين شمس، ومكتبة جامعة القاهرة، ومكتبة فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، ومكتبة نادى أبها الأدبى، ومكتبة أبها العامة؛ بحى العزيزة، والمكتبات الخاصة لعدد من الزملاء والأصدقاء.

وختاماً، أتوجه بالشكر إلى زوجتى الفاضلة، وإلى ولدى هانى وداليا، الذين عاصروا زوجاً، وأباً عاكفاً على الأوراق والملاد على مدى ثلاث سنوات؛ من أجل إنجاز هذا الكتاب.

ذلك مبلغى من العلم وأذكر قوله تعالى :

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾

محمد مؤنس أحمد عوض

أبها ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

القسم الأول

**الجغرافيون المسلمون في بلاد الشام
في عصر الحروب الصليبية**

١ - الإدريسي

(ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)

يتناول هنا الفصل بالدراسة؛ أحد أشهر جغرافيين المسلمين في العصور الوسطى، ونعني به الشريف الإدريسي^(١) (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) الذي قدم إلى بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، وتناول في مؤلفاته الجغرافية، عدة جوانب، من أوضاع تلك البلاد في ذلك العصر.

والإدريسي، هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، وقد ولد في سبتة بالمغرب الأقصى عام ٤٩٩هـ / ١١٠٠م، وهو أحد أبناء عائلة الحموديين النيلية، ونظراً لانتسابه للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد حمل لقب الشريف^(٢)، ونجد أنه درس عدداً من علوم عصره في قرطبة التي كانت حينذاك؛ إحدى حواضر الإسلام المزدهرة، وقد بدأ الإدريسي في الارتحال الذي ملك عليه فؤاده منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره، وفي هذا المجال طاف ذلك الجغرافي بالأندلس وفرنسا، وإنجلترا، وكذلك أنحاء الشمال الأفريقي واتجه نحو تادية فريضة الحج، فذهب إلى الحجاز. كما أنه ارتحل إلى مصر، وبلاد الشام، واليونان، التي يقال إنه وصل إليها في عام ٥١٣هـ / ١١١٦م^(٣). ومع ذلك فيبدو أن التاريخ الذي يقرره البعض للذهاب إلى هناك؛ يعد مبكراً بعض الشيء، ومن المرجح أن ذهابه إلى اليونان تم بعد ذلك التاريخ.

وقد عبر الإدريسي البحر في عام ٥٣٣هـ / ١٣٢٨م، إلى جزيرة صقلية Sicily حيث بلاط ملكها روجر الثاني Roger II (١١٣٠-١١٥٤م / ٥٢٤-٥٤٨هـ)^(٤)،

في بالرمو Palermo، وقد اشتهر عن ذلك الملك عشقه الكبير للحضارة الإسلامية، وقد احتضن الإدريسي، وصار وثيق الصلة به إلى وفاته في عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، وقد طلب روجر الثاني منه أن يقوم بتأليف كتاب يتناول فيه جغرافية العالم^(٥). ووصف بقاعه، وأقاليمه، وبلداته، وجعل تحت تصرفه إمكانيات دولة النورمان في صقلية كافة، وكذلك مؤلفات الجغرافيين السابقين، وشهادات التجار الذين تاجروا في أنحاء نائية. فعكف الإدريسي على تأليف كتابه هناك، بيد أن الأمور تبدلت في أعقاب وفاة روجر الثاني عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، فلم يحظ ذلك الجغرافي بنفس الرعاية، والاهتمام السابقين^(٦)، وعاد أدراجه في أيام شيخوخته إلى مسقط رأسه سبته، حيث توفي هناك.

أما تاريخ وفاة الإدريسي، فتعرف أن الحسن الوزان^(٧) (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) قد ذكر أن ذلك قد وقع عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م، بيد أن البارون دي سلام De Slane، قد لاحظ أن مثل ذلك التاريخ يعد مصحفاً، على اعتبار أننا نعرف أن ذلك الجغرافي قد ولد أصلاً في عام ٤٩٩هـ / ١١٠٠م، ومن غير المنطقي تماماً أن يكون قد قام بكافة تلك الأسفار خلال حياته الحافلة بالأحداث خلال تلك الرحلة الزمنية القصيرة، ويبدو أن صحة التاريخ في الغالب هي ٥٦٠هـ / ١١٦٤م^(٨)، مع ملاحظة أن الحسن الوزان قد ولد عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧-١٤٨٨م، وبنينه وبين الإدريسي مساحة زمنية طويلة، تقدر بأكثر من ثلاثة قرون^(٩).

وهي أحد المستشرقين، أن الإدريسي على الرغم من خلفيته الكوزمو بوليتية، وأهميته كجغرافي، كان محل تجاهل من جانب المؤرخين وكتاب التراجم المسلمين، وربما كان تفسير ذلك - في اعتقاد صاحب ذلك الرأي - قضاء الإدريسي معظم سنوات شبابه، في خدمة الملك النورماني، روجر الثاني ملك صقلية في بالرمو، وأن إخلاصه لذلك الملك المسيحي، وابتعاده عن عالم الإسلام، قد عاد عليه بعدم احترام، ولا مبالاة من جانب المعاصرين له^(١٠).

ومع ذلك، فيبدو أن ذلك الرأى، لا ينطبق على الحقيقة من شىء، على اعتبار أن ضياع سيرة الإدريسى؛ نجد نظيراً لها بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين من أولئك الذين لم يتصلوا بالعناصر المسيحية^(١١).

وتجدر الإشارة إلى أن الإدريسى؛ قد ألف عدداً من المؤلفات، مثل كتابه نزهة المشتاق فى ذكر الأقطار، والبلدان، والجزر والمدائن والآفاق أو الكتاب الروجارى وبعد أهم مؤلفاته الجغرافية، وأوسعها شهرة، ثم كتاب روض الأنس، ونزهة النفس وكتاب أنس المهج وروض الفرج، وكتاب جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار^(١٢)، وهناك كتاب آخر له فى مجال علم النبات، هو الجامع لصفات أشات النبات^(١٣)، ولا مرأى فى أن تلك المؤلفات التعددة تعكس عقلية الإدريسى وموهبته التأليفية بحيث ألف فى العديد من العلوم والمعارف على نحو عكس بالضرورة موسوعية تكوينه العقلى.

واهتمامنا الأول، فى هذا الفصل ينصب على كتابين من مؤلفات الإدريسى، وهما نزهة المشتاق^(١٤)، وأنس المهج^(١٥)، والبحث عما أورده فيهما عن بلاد الشام، من زوايا متعددة، وجوانب مختلفة.

ومن الممكن أن تثار ناحية جدية بالأهمية ألا وهى طبيعة ونوعية المصادر التى اعتمد عليها الإدريسى فى تأليف كتابه نزهة المشتاق، والواقع أنها تعد ثلاثة مصادر، تتمثل فى مشاهداته الشخصية من خلال ترحاله فى البلاد المختلفة، بالإضافة إلى التقارير التى وصلت من جانب أولئك الذين أوفدهم روجر الثانى إلى أنحاء مختلفة من العالم؛ لجمع المعلومات اللازمة لذلك العمل الجغرافى الكبير، بالإضافة إلى المصادر الجغرافية المتعددة التى يمكن أن يعتمد بها^(١٦)، مع ملاحظة أن ذلك كله من خلال إمكانيات دولة النورمان فى صقلية.

ولا نفعل فى هذا المجال حقيقة محورية، تتمثل فى أن قدرات الإدريسى، جعلته يحسن الاستفادة من كافة تلك المصادر التى أتاحت له. ومن الممكن أن نعلق على تلك

الزاوية أهمية واضحة أدت بدورها إلى أن يؤلف كتاباته الجغرافية بتلك الصورة التي وصلت إلينا. وهي تعكس في واقعها، إمكانيات عنصر، وإمكانيات جغرافي قدير، أحسن استغلالها.

وقد اتسم كتاب نزهة المشتاق للإدريسي بالشمول، والعمق، على نحو جعل من صاحبه يحتل مكانة كبيرة في تاريخ جهود المسلمين الجغرافية في العصور الوسطى. وقد اعتبره البعض نقطة احتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية^(١٧)، ونظر إليه البعض الآخر على أنه اسطرابون العرب، وأكبر جغرافيينهم^(١٨)، وأن كتابه يعد أفضل رسالة جغرافية في عالم العصور الوسطى^(١٩)، كما أن هناك من اعتبره، مؤسس المدرسة العربية النورمانية^(٢٠).

ومع ذلك، يرى أحد كبار المستشرقين المتخصصين في مجال الجغرافية العربية في تلك العصور، أن الإدريسي «أبعد ما أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافي العربي، بل لا نستطيع أن نضعه في مصاف العلماء المبرزين المتأخرين^(٢١)»، ويرى باحث آخر أن كتاب الإدريسي «ليس بأدق كتب الجغرافيا العربية، وإنما اشتهر بالدرجة الأولى لأنه من تأليف جغرافي عربي قضى معظم عمره في صقلية، أى في بيئة أوروبية تأثرت بالحضارة الإسلامية إلى حد بعيد»^(٢٢).

والواقع أن كلا من الرأيين السابقين يحويان تخاملاً واضحاً على الإدريسي، ومن الممكن تصور أن تلك الآراء المتحاملة عليه قيلت في وقت لم تكن فيه الجهود التحقيقية لنزهة المشتاق قد اكتملت، ولم يكن النص العربي لذلك الكتاب قد ظهر بعد، ومن الممكن القول بأن كتاب «نزهة المشتاق» جعل الإدريسي يحتل تلك المكانة الرقيقة، لأنه اعتمد فيه على الجغرافيين والرحالة للمسلمين السابقين مثل الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، وابن حوقل (ق ٤هـ / ١٠م)، والمقدسي (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٦م)، وغيرهم^(٢٣)، فكتابه «خلاصة الجغرافية العربية في العصور الوسطى»، حتى

القرن السادس هجرى/ الثانى عشر ميلادى، ثم أنه لا يعكس إمكانيات فردية - كشأن مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين - بل إنه يعكس إمكانيات وقدرات دولة هى دولة النورمان فى صقلية، فإذا أضفنا إلى ذلك سياحات مؤلفه المتعددة نعرف أن الإدريسى، توافرت له إمكانيات لم تتأت لغيره من الجغرافيين المسلمين السابقين. الأمر الذى جعل له تلك المكائنة الرفيعة، ولذا يمكن القول - دون اعتساف فى الأحكام - إنه أبرز الجغرافيين المسلمين فى عالم العصور الوسطى.

أما القول بأنه أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى، فهو رأى متحامل، ولا يقف على قدميه فى مواجهة النظرة العلمية الحديثة سواء لدى الباحثين المسلمين المحدثين أو الباحثين الأوروبيين. وفيما يتعلق بالرأى الآخر، وهوائه كتب مؤلفه فى بيئة أوروبية فحصل على تلك المكائنة الرفيعة، فهو قول مردود، إذ أن البيئة الأوروبية لا تضمن البتة للإدريسى تفوقه، ولا تضمن كذلك لكتابه الانتشار الواسع النطاق؛ فى حالة كونه متواضع المستوى من الناحية العلمية، غير أن إمكانيات ذلك الجغرافى العقلية وكذلك الإمكانيات العلمية التى وضعت أمامه ضمنت لذلك الكتاب تلك المكائنة الرفيعة.

وإضافة إلى ما سبق؛ نجد أن الإدريسى قد زود كتابه بسبعين خريطة، وعدت خرائطه من أدق ما وصل إلينا من جغرافية المسلمين فى العصور الوسطى، ووصفت بأنها خرائط حقيقية تعطى للناظر إليها تصوراً واضحاً من المواضع التى تصورها، وهى بالتأكيد كانت أدق من خرائط الجغرافيين اليونان القدامى لأنها من عمل «جغرافى خرائطى موهوب»، ومن هنا يكون التقدير للإدريسى، وعمله كله نصاً وخرائط، ويزداد التقدير لمدرسة المسالكين المسلمين الذين يعد الإدريسى النروة التى بلغت أعمالهم (٢٤).

أما الكتاب الثانى، من مؤلفات الإدريسى الجغرافية فهو أنس المهج، وروض الفرح، وهو لا يزال مخطوطاً، ويقيد فى تكملة صورة بلاد الشام عند ذلك الجغرافى فى عصر الحروب الصليبية؛ ولا سيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

ومن الممكن أن تثار زاوية خلافية هامة، وهي تتصل بزيارة الإدريسي لبلاد الشام أو اعتماده على روايات الجغرافيين الآخرين الذين زاروا تلك البلاد، ويعزز كراتشكوفسكى أن الإدريسي زار لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا^(٢٥)، كما أنه زار في عام ١٠٥١هـ/ ١١١٦م - كما ذكرت سلفاً - آسيا الصغرى، ويقرر «الظاهر أنه لم ير بقية أفريقيا، وآسيا»^(٢٦)، والواقع أن هذا الرأي يمكن تفنيده على أساس عدة اعتبارات :

أولاً : إن وصف الإدريسي لبلاد الشام من خلال كتابيه «نزهة المشتاق» ، و«أنس المهج» لا تدع مجالاً للشك في أنه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبي لعدد من المناطق في تلك البلاد خاصة خلال أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن ثم تميزت نصوصه حول تلك المناطق عن نصوص الجغرافيين المسلمين السابقين، وهو أمر لا يتأتى له إلا بالمشاهدة، والمعاينة، والمعايشة. وهو ما سيتضح لنا من خلال هذا الفصل.

ثانياً : في حالة كون الإدريسي لم ير بلاد الشام، لاعتمد على مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، ولأشار بالتالي إلى مؤلفاتهم، الأمر الذي لا نجده في مؤلفاته، على نحو يفند المقولة السابقة، إذ أن ما كتبه عن بلاد الشام يعكس تصورات الشخصية لا تصورات السابقين.

ثالثاً : إن ارتباط الإدريسي بملك صقلية؛ روجر الثاني، يدعونا إلى التصور بأن بلاد الشام كانت من المناطق الهامة التي من الضروري لذلك الجغرافي أن يذهب إليها، إذ أن ذلك الملك كان مسيحياً، ومن الطبيعي أنه أراد معرفة الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ومن المستبعد أن يعتمد الإدريسي في وصف تلك المناطق على مؤلفات السابقين ولا يراها رؤية عينية، ويؤكد ذلك التصور وصفه لكنيسة القيامة على نحو يعكس أنه كان يوماً ما هناك.

رابعاً : من المستبعد تماماً أن يذهب الإدريسي إلى لشبونة، وسواحل فرنسا، وإنجلترا، ويجد الدافعية لذلك، ولا يرحل إلى بلاد الشام، وهي أصلاً من ديار الإسلام وفي نطاق عالم البحر المتوسط، ولا توجد حواجز دينية أو لغوية تعوق اتصاله بتلك المنطقة الحيوية التي ذهب إليها كافة الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى واحتلت مكانة رفيعة في مؤلفاتهم.

ونخلص من ذلك، أن مقولة كراتشكوفسكى لا تقف على قدميها، إذ أنه رأى مناطق أخرى في آسيا ونعني بذلك بلاد الشام، وهو ما يعنينا في هذه الدراسة.

مهما يكن من أمر، فمن الضروري تناول الجوانب التي تعرض لها الإدريسي كافة، واختصت ببلاد الشام، ومن أمثلتها تناول المدن الرئيسية في الساحل الشامي، وكذلك الجوانب الاقتصادية في المدن الشامية، ثم المزارات الدينية والعلاجية في ذلك العصر، ولاسيما المسيحيين، والمسلمين، ثم تعرضه للخريطة المذهبية لبلاد الشام في ذلك الحين، وأخيراً تناوله للقلاع، والحصون هناك.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الجغرافي يمتاز أسلوبه فيما نعرض له من جوانب خاصة ببلاد الشام، بالإيجاز، والاختصار بصفة عامة، ولذا نجد أن عبارته عبارة مركزة مباشرة الدلالة.

وقد اهتم الإدريسي بالساحل الشامي، وحرص على أن يوضح أوضاع كل مدينة فيه من المدن التي خضعت للسيادة الصليبية، ومن المرجح أن كافة تلك المدن قد سيطر عليها الصليبيون، من قبل مقدم الإدريسي إلى بلاد الشام، ونجد أنه قد اهتم بإيراد الوضع السكاني لتلك المدن الشامية الساحلية، ودل ذلك جميعه على إدراكه للأهمية الكبيرة لتلك المنطقة الاستراتيجية والاقتصادية الهامة.

ونجد أنه عندما تناول مدينة عكا^(٢٧)، وهي من المدن الصليبية الرئيسية على الساحل، وصفها بأنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وضياعها كثيرة، ولها ميناء مأمون من ناحية رسو السفن فيه^(٢٨)، ونظراً لطبيعة تلك المدينة الساحلية التجارية، ووجود جنسيات متعددة فيها تعبيراً عن طبيعة الوجود الصليبي ذاته في بلاد الشام، حيث تكون من جنسيات مختلفة شملت الإيطاليين، والفرنجة، والإنجليز، والألمان، والدنماركيين، والروس، وغيرهم كثيرون، نجد أن ذلك الجغرافي قد أدرك طبيعة البنية السكانية غير المتجانسة لتلك المدينة الخاضعة للسيادة الصليبية. وفي ذلك قرر أن «أهلها أختلاط، وناس شتى»^(٢٩) وفي هذا تعبير صادق عن وصفها الديموغرافي، مع ملاحظة أن ذلك الوضع قد أدى إلى عدم تجانس المجتمع الصليبي، وتصارع عناصره على نحو ساعد على أن يسقط من الداخل؛ قبل أن يسقط من الخارج على أيدي القوى السياسية الإسلامية المجاهدة.

وعندما تناول الإدريسي مدينة حيفا^(٣٠)، نجد أنه قد أشار إلى أنها تحت طرف الكرمل، ولها مرسى جيد لإرساء الأساطيل^(٣١)، وقد أدرك الصلة بين المدن البرية الحبيسة في بلاد الشام وتلك الساحلية، إذ أن الأخيرة؛ عملت كمنافذ تصدير تجارة تلك المدن البرية الحبيسة، ومن ثم كان هناك الارتباط الوثيق الصلة بين تلك المدن، وقد أدرك الإدريسي، هذه العلاقة النفعية فنجد أنه يقرر أن السويدية (سان سيمون) ميناء انطاكية^(٣٢) وأن أنطربطوس مينا حمص^(٣٣)، وحيفا ميناء طبرية^(٣٤)، ويافا ميناء بيت المقدس^(٣٥).

ومن الجلي البين، أن ذلك الارتباط السابق قد تأكد مع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، من خلال إدراكنا للنشاط التجاري المزدهر الذي شهدته مرحلة الحروب الصليبية، ومن المعروف أن مرحلة العصور الوسطى لم تشهد ثورة صناعية، بل شهدت ثورة تجارية، وينطبق ذلك بجلاء على النشاط التجاري الواسع النطاق الذي شهدته

عالم البحر المتوسط فى ذلك الحين؛ ولاسيما القسم الشرقى منه، ومن ثم فإن وصف الإدريسى لتلك المنطقة يعكس تلك الحقيقة المؤكدة حينئذ ألا وهى ازدهار حركة التجارة هناك.

وهكذا، أوضح عرضه طبيعة الصلات التجارية بين المدن الآشمية، وكذلك مسألة الحج للمسيحي، إذ أن الحجاج الأوروبيين احتاجوا تلك اللواتى الساحلية من أجل الوصول عن طريقها إلى المدن الداخلية التى احتوت على المزارات الدينية المقدسة لدى المسيحيين على نحو خاص، وخير مثال دال على ذلك، ميناء يافا الذى كان الحجاج يصلون إليه، ومنه يسيرون فى الطريق البرى الصخرى الوعر^(٣٦)، من أجل الوصول إلى مدينة بيت المقدس.

ومن ناحية أخرى، نجد ذلك الجغرافى، يحرص على الإشارة إلى الكثافة السكانية المرتفعة إذا ما وجدها فى مدينة من مدن الساحل الشامى، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى مدينة عرقة، وذكره لها على اعتبار أنها «عامرة بالخلق»^(٣٧)، وهكذا نجد أنه أدرك تلك الكثافة المتزايدة لاسيما لدى عكا وعرقة ومن المرجح أن الدور التجارى لكل منهما أكسبهما تلك الصفة.

أما عسقلان^(٣٨)، فقد زارها الإدريسى بعد عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، إذ يقرر أن الصليبيين أخضعوها فى ذلك العام، ويفيد هذا القول فى توضيح تاريخ زيارة الإدريسى لبلاد الشام وهى بالتالى وقعت بين عامى ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وعام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م - والأخير عام وفاته - وقد أشار إلى أبرز ما فيها كما تصوره وهو أسواقها وأسوارها^(٣٩).

ومن ناحية أخرى، احتوى تناول الإدريسى لبلاد الشام من خلال كتابه نزهة المشتاق، جوانب اقتصادية هامة، وفى هذا المجال نجده يذكر أمر الثروة المعدنية، وكذلك

النشأطين الصناعى، والتجارى فى العديد من المدن الشامىة. على نحو يعكس أن ذلك الجغرافى كانت لىه رؤىته الاقتصاىة الهامة.

ومن الأمور الجلىرة بالملاحظة، أن الإبرىسى حرص على إبراء تميز بىروت بالثرة المعنفة لاسىما الحديد، إء أشار إلى أنه بالقرب منها ىوجد جىل فىه معدن الحديد الجىء وىقطع، وىتم استخراجه بكمىات كبىرة^(٤٠)، الأمر الذى انعكس بالضرورة على الصناعات التى ىدخل فىها ذلك المعدن.

أما الزاوىة الصناعىة فنجده قد أوضاها بالنسبة لمىنة دمشق، حاضرة الشام الكبرى، وكذلك بالنسبة لىسان.

وقد أشار إلى أن دمشق تحتوى على ضروب من الصناعات^(٤١)، وأنواع من الملابس مثل الخز، واللىاج النفىس الذى أعجب بصناعاته إىما إعجاب حتى وصفه بأنه «عجب الصنعة»، وأنه «علىم المئال»^(٤٢)، وقد عقد مقارنة بىن اللىاج الدمشقى، والعلىد من أنواع الثىاب فى مدن المشرق الإسلامى الكبرى فوجهه ففوقها جمىعاً، ومن أمثلة ذلك مقارنته بلىاج البىزنطىىن؛ وذكر أنه يقارب دىاج تىتر، وىنافس دىاج أصبهان، وىشف على أعمال طرز نىسابور، وكذلك بلىع ثىاب تىنس، وأنهى تعلیقه على الثىاب الدمشقى بأنها لا تنافسها ثىاب^(٤٣).

رواقع الأمر، أن مقولة الإبرىسى السابقة تعكس بجلاء مدى التفوق الذى حققته صناعة الثىاب الدمشقى فى عهد السلطان الملك العاىل نور اللىن محمود، الذى ازدهر الاتىاج الصناعى بصفة عامة فى عهده، وشهادة الإبرىسى، شهادة رجل قلم من سبته بالمغرب الأقصى، وطاف العلىد من بقاع العالم للمعمور فى ذلك العصر، وشمل ترحاله قارات أفرىقىا، وآسىا، وأوروبا، فهى فرىة من نوعها، وتعكس التفوق العالمى للثىاب الدمشقى فى ذلك العصر على غیرها من الثىاب.

وكامتداد للجانب الصناعى، نجد أن ذلك الجغرافى، قد ذكر أنه فى مدينة بيسان توجد صناعة الحصر السامانية، ولا يوجد البتة إلا بها، ولا يتوافر فى سائر أنحاء الشام^(٤٤)، ويبدو أن صناعة تلك الحصر لم تكن بالاتقان والروعة التى وجدها ذلك الجغرافى الذواق فى الثياب الدمشقية، ودليلنا على ذلك، أنه على حين كال عبارات المديح والإعجاب الشديد بالديباج الدمشقى، وجفناه لا يمتدح الحصر السامانية. ولم يعقد مقارنة بينها، وبين أنواع الحصر فى المدن الشرقية الأخرى، مما يدل على أنها كانت صناعة محلية، ولم تتطور بحيث تدخل مجال المنافسة العالمية، على عكس أمر الديباج الدمشقى.

وكامتداد لرؤيته الاقتصادية، نجد أن الإدريسى، قدم لنا رؤيته التجارية، وقد حرص على تقديم صورة للأسواق التجارية، وكذلك أنواع السلع المتعددة، من ذلك أنه قرر بشأن مدينة صيدا أنها زاخرة بالأسواق ولاحظ أن أسعار السلع فيها رخيصة^(٤٥). كما وصف مدينة دمشق بأن تجارتها رابحة^(٤٦)، وعكست عبارته مدى الثراء الكبير الذى حققته تلك المدينة، من عوائد النشاط التجارى، وقد ذكر أن ديباجها يحمل منها ليصدر إلى الأرجاء كافة القرية والبعيدة^(٤٧).

ومن المعروف أن الصناعة الدمشقية المتقدمة فى ذلك العصر، أملت التجارة الدمشقية بزيادة هام للتصدير، وقد دخل الديباج الدمشقى كسلعة هامة، فى التجارة الدولية، فى العصور الوسطى، ومن ثم أنت رواية الإدريسى فى هذا الشأن دالة على ذلك. أما عرقة فهي عند كثيرة التجارات، وطرابلس وصفها بأنها مقصود إليها بالأمته، وضروب الغلات، وصنوف التجارات^(٤٨) مما عكس اتعاشها الاقتصادى.

وتوجد ناحية لا تخلو من طراقة، وهى أن الإدريسى أشار فى معرض حديثه عن صيدا إلى أن بها تجارة نوع معين من الأسماك، يصفه بأنه «طول الأصبع» وله علامات خاصة يعرف بها، يتم صيده ويجفف، ويسحق، ويسف بالماء، وهذا النوع يفيد من

الناحية الجنسية بشكل كبير^(٤٩)، ومن الطريف أن الإدريسي أشار إلى أنه رأى ذلك النوع من الأسماك غير مرة، وإن لم يشر إلى تناوله أو تلوقه وربما منعه حيائه من أن يذكر ذلك الأمر.

من ناحية أخرى، احتوت جغرافية الإدريسي عن بلاد الشام على إشارات هامة لاسيما فيما يتصل بالزارات الدينية المسيحية والإسلامية.

وجدير بالذكر، أن الإدريسي يتميز من الجغرافيين المسلمين الآخرين؛ الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، على مدى القرنين ٦ و٧هـ / ١٢ و١٣م، بأنه أكثرهم تفصيلاً بشأن المزارات المسيحية المقدسة في فلسطين، فعلى حين تَجِدُهُم أوردوها بإيجاز بصفة عامة، إلا أن الإدريسي حرص الحرص أكبره على أن يفصل الحديث عنها. ولعل تعليل ذلك أن الكتاب الذي ألفه وتنعى به «تزهة المشتاق» قد ألف أصلاً بناء على طلب روجر الثاني ملك صقلية، وبحكم مسيحيتة، فقد كان حريصاً على معرفة رؤية ذلك الجغرافي المسلم لتلك المواقع، ومن ثم حرص الأخير على إبرادها مفصلة في الغالب.

ومثل ذلك التفصيل، تجده يخالف الطابع العام بشأن الرواية الإدريسية عن بلاد الشام في ذلك العصر، إذ أن الطابع العام الغالب عليها، هو طابع الإيجاز والاختصار، وهو أمر يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك الجغرافي فصل فيما رآه هاماً وجديراً بالتفصيل، وأوجز عندما رأى أن الإيجاز ضروري. ونخير مثال دال على ذلك التفصيل موضوع المزارات المسيحية المقدسة في فلسطين.

وقد تعرض الإدريسي لعدد من الكنائس، مثل كنيسة القيامة، وقد أشار إلى مكانتها، وأوضح أنها يتم الحج إليها من جميع بلاد الروم من مشارق الأرض ومغاربها^(٥٠).

ومن المعروف أن الحج للمسيحي لم يكن أصلاً من أصول المسيحية المبكرة، وإنما بعد أن قامت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine The Great بالتحاب إلى بيت المقدس في القرن الرابع الميلادي، صار ذلك تقليداً متبعاً للمسيحيين^(٥١)، ولقبت بالقديسة هيلانة St. Helena.

وتوافد الحجاج المسيحيون من بعد ذلك على بيت المقدس، ولدينا العديد من الأشخاص سواء من الرجال أو النساء قاموا برحلات الحج، وتركوا مدونات لرحلاتهم^(٥٢)، حتى يطالعها المعاصرون، واللاحقون، واستمرت رحلات الحج إلى هناك بصورة مكثفة، خلال عصر الحروب الصليبية ومن بعده.

مهما يكن الأمر، فإن الإدريسي يصف بدقة تلك الكنيسة، ويقرر أن لها باباً في جهة الشمال، وينزل من خلاله إلى أسفل الكنيسة، ويسمى الباب، «باب شنت مريه» أى القديسة مريم St. Mary، وعند النزول إلى الداخل توجد المقبرة المقدسة العظمى، وهي ذات بابين، وتوجد عليها قبة قد اتقن بنيانها، وهي حصينة التشييد^(٥٣).

كذلك تناول كنيسة المهد في بيت لحم، وقد وصفها وصف المعجب بما فيها من مظاهر الثراء، وبراعة البنيان حتى أنه ذكر أنه «ما أبصر في جميع الكنائس مثلاً بناءً»، وأشار إلى أنه في ركن الهيكل من جهة الشمال، توجد المغارة التي ولد فيها السيد المسيح^(٥٤).

ويلاحظ أن كنيسة القيامة، والمهد، تعدان أهم الكنائس المسيحية في المنطقة، وقد حظيتا باهتمام الرحالة الأوروبيين الذين ألفوا مؤلفات خاصة برحلات حجهم إلى هناك، كما اهتم بها الجغرافيون والرحالة المسلمون^(٥٥)، وإن لم يشيروا إليها - في الغالب - يمثل تلك التفاصيل التي تجدها لدى الإدريسي.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك كنائس أخرى مثل كنيسة قدس الأقداس، وكنيسة للسيدة مريم، تعرف باسم الجسمانية، وكنيسة باطرنة صخرة^(٥٦)، وقد أشار إلى وجود

رجال، ونساء مترهبين، أو بنص ذلك الجغرافى «رجال، ونساء مجوسون يتفنون بذلك، أجر الله سبحانه» (٥٧).

زد على ذلك، أن هناك تناولاً لأحد المزارات المسيحية الهامة فى ذلك العصر، ونعنى بها عين سلوان (٥٨)، وقد أشار عندها أن السيد المسيح، أبرأ فيها الضمير الأعمى (٥٩)، كما تعرض لعدد من المزارات الدينية مثل ذكره لبيت لحم، وإشارته إلى أنه يوجد فى الطريق الواقع بين بيت لحم، وبيت المقدس، قبر راحيل أم يوسف، وأم بنيامين، ولدى يعقوب عليهم السلام، وقد وصف ذلك القبر بأن عليه قبة معقودة بالصخر (٦٠)، كما تناول قبر اليعازر أو ما يعرف باسم St. Lazarus (٦١). ويعبر عنه الإدريسى بأنه «قبر اليعازر الذى أحياه السيد المسيح».

ثم إن الإدريسى فى موضع آخر، تجده يشير إلى وجود منازل كثيرة محفورة فى الصخر إلى الجنوب من عين سلوان وهى على ما يبدو أديرة «وفيهما رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة» (٦٢) على حد قوله.

ومعنى ذلك، أن أهم ملامح تناول الإدريسى لتلك الأماكن المقدسة المسيحية، أنه أشار إلى الكنائس الهامة، وكذلك إلى القبور، بالإضافة إلى أنه تعرض للأديرة، وهما من أماكن العبادة الدينية المسيحية.

ولدينا عدة ملاحظات على ذلك تناول :

أولاً : إن الإدريسى عندما تعرض لتلك الأماكن، عبر عنها كأنه رحالة مسيحي. ولم يشأ أن يشير إلى اختلاف عقيدته الإسلامية عن معتقدات المسيحيين، بل إنه عندما تعرض لأمر اليعازر، لم يشر إلى أن السيد المسيح أحياه بإذن الله تبارك وتعالى، كما أنه عندما تناول أمر الأديرة أشار إلى أن أولئك الرجال، والنساء، من الرهبان والراهبات حبسوا أنفسهم من أجل رضا الله تعالى. ويبدو أن التعليل للمنطقى لكل ذلك أنه ألف كتابه

لروجر ملك صقلية. ومن ثم تناول الأماكن المقدسة المسيحية، والرهبانية، بتلك العبارات المعتدلة، والليونة، والتي فيها قدر لا يمكن إغفاله من المداواة.

ثالثاً : من الممكن - بناء على ما سبق - أن نعتبر كتابة الإدريسي عن الزاوية السابقة نموذجاً «للكتاباة ذات التوجه الرسمي»، على أساس أنه عبر خلالها عن اتجاهات المسيحيين، دون أن يجعل لعقيده دخلاً في ذلك كله، ومن الأمور الملفتة للنظر هنا أن الإدريسي لم يشر أدنى إشارة عدائية حيال الصليبيين في بلاد الشام؛ على الرغم من أنه مر بمناطق خاضعة لاحتلالهم، ومن المتوقع والمنطقي أن الإدريسي في تجواله في مناطق الصليبيين قد شاهد المسلمين الخاضعين لسيادتهم السياسية واحتلالهم العسكري، بيد أن كتابته لم تتناول أولئك المسلمين البتة. ومرة أخرى من الممكن القول إن الارتباط الرسمي لتلك الجغرافيا يمكن أن نتلمس آثاره - أكثر من أية منطقة أخرى - في تعرضه لبلاد الشام خلال أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

رابعاً : إن أوصاف ذلك الجغرافي الدقيقة للأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين تدل بجلاء على أنه كان شاهد عيان لها، وقدم وصفاً من عنده، وهكذا فإنه زار بلاد الشام وقدم ذلك الوصف، ولم يكن كما تصور بعض الباحثين قد اعتمد في وصفه على أوصاف الآخرين، الذين سبقوه إلى تلك البقاع.

أما إذا نحينا ذلك كله جانباً، وتوجهنا إلى تناول الإدريسي للمزارات الإسلامية، فإننا نجد أنه يتعرض للمسجد الأقصى. وقد عمل على عقد مقارنة بينه وبين المسجد الجامع في قرطبة بالأندلس، وأشار إلى أن سقف جامع قرطبة أكبر من سقف الجامع الأقصى. كما أن صحن الأخير أكبر من صحن جامع قرطبة^(٦٣).

كما أنه تعرض إلى قبة الصخرة، فعمل على وصفها وامتدح عمارتها التي هما من بناء الخلفاء المسلمين. وذكر أن طول هذه الصخرة مقارب لعرضها، وهي عشرة أذرع في مثلها^(٦٤)، ومن الملفت للانتباه أن الإدريسي لا يشير إلى ارتباط تلك الأماكن

بالمعتقدات الإسلامية، وبخاصة ما اتصل بمعجزة الإسراء، والمعراج. كما أنه لا يعبر عن مشاعره الدينية عن تلك المواضع المباركة على الرغم من أن الاحتلال الصليبي للقدس، كان قد ترك صدمة نفسية كبيرة للمسلمين، وكثيراً ما كان خضوع للمسجد الأقصى، وقبة الصخرة للسيادة الصليبية في ذلك العصر يحرك مشاعر الجغرافيين، والرحالة للمسلمين خاصة أولئك الذين قدموا من أنحاء جد بعيدة سواء من المشرق أو المغرب الإسلاميين، غير أنه في موقف الإدريسي، وجلنا، يخفى مشاعره الدينية، ولا يقدم لنا انفعالاً إسلامياً بالمواقع التي يزورها، ومرة أخرى تجد الارتباط الرسمي - على ما يبدو - دافعاً له نحو ذلك التوجه.

ومن جهة أخرى، تعرض الإدريسي للمسجد الأموي بدمشق، وقد أعجب به أشد الإعجاب (٦٥)، ويتضح ذلك من العبارات التي أطلقها عليه، وقد شددت عمارته انتباهه، وبصفة عامة، من الممكن القول بأن كل ما هو دمشقى بهر ذلك الجغرافى، فجعل قلمه يقدم عبارات المديح والإطراء على ما رآه في تلك المدينة، وينطبق ذلك على المسجد الأموي هناك.

ومن المفيد أن نذكر، أن الإدريسي في أوصافه للمزارات الدينية كافة سواء المسيحية أو الإسلامية، يكتفى بتقديم الوصف الموجز، ولا يحرص على أن يمزج بين الوصف، والتاريخ، فلا يقدم لنا عرضاً لتاريخ الأثر الذى يصفه، مما أفقد عرضه جانباً مهماً ومؤثراً من الحيوية المطلوبة في مثل ذلك التناول، وإن لم يفقده قيمته الكبيرة بالطبع.

أضف إلى ذلك، أنه تناول نوعاً آخر من أنواع المزارات ونعنى به المزارات العلاجية، التي ينهب إليها المرضى من أجل العلاج، وفي هذا المقام نجده يتعرض للعيون الساخنة في طبرية، وقد أوضح أنها حارة في الشتاء والصيف، وذكر اسم حمام الدمامز، كذلك حمام اللؤلؤ، وحمام المبخرة (٦٦)، مع ملاحظة أنه لا يشير إلى دورهما العلاجي، وهو

أمر منجده يتردد فيما بعد عصر الإدريسي في كتابات الجغرافيين المسلمين؛ الذين قدموا إلى فلسطين، وعلى نحو خاص منطقة طبرية على امتداد عصر الحروب الصليبية، خلال القرنين ٦ و ٧هـ / ١٢ و ١٣م.

وهناك زاوية هامة، تناولها ذلك الجغرافى، ألا وهى العمران فى المدن الشامية الداخلية الخاضعة لسيطرة المسلمين وكذلك الكثافة السكانية بها، وفى هذا المقام من المفيد أن نذكر أن ذلك الجغرافى حرص على إبراز وفرة المصادر المائية فى مناطق بلاد الشام الداخلية، فعلى سبيل المثال، أشار إلى مياه غوطة دمشق، وذكر أنها تخرج من عين الفيحة، وهى عين فى أعلى جبل، ويرى نزول الماء على قرية أهل حتى ينتهى إلى المدينة فتتفرع منه الأنهار مثل نهر بردى، ونهر نوره، وقناة المزة، ونهر بلنيس، ونهر يشكور (٦٧) وغيرها.

وفى ما يتصل بوصفه للعمران البشرى فى تلك المدن الداخلية، نجد أنه تعرض لمدينة دمشق، وأشار إلى الغوطة، وذكر أن بها ضياعاً كالمدن، وقدم أمثلة على ذلك كالْمَزَّة، وداريا، وبردى، وهرشف، وكوكبا، وإيلاس، وكفر سوسنة، وبيت الأهرار (٦٨)، وكثير عن الكثافة السكانية أشار إلى أنه فى كل واحدة من تلك الضياع نجد ألفى رجل، إلى ألف، أو أقل، أو أكثر (٦٩).

وتفيد عبارته الأخيرة فى توضيح الكثافة السكانية لدمشق فى ذلك العصر، ومن الواضح أنه لا يقدم أرقاماً إحصائية دقيقة عن الأعداد البشرية الموجودة فى تلك الضياع، ومن المرجح أنها كانت أكثر من ذلك بكثير على اعتبار أن الغزو الصليبي لبلاد الشام ونجاح الصليبيين فى زرع كيانتهم الدخيل فى المنطقة، أدى إلى حدوث عمليات طرد سكانى من المناطق المحتلة من جانب الغزاة إلى المدن الشامية الداخلية المسلمة، وبالطبع كانت دمشق إحدى تلك المدن التى نزع إليها المسلمون المنكويون بالغزاة. ومع ذلك ليس من اليسير أن تدعم ذلك بأرقام إحصائية دقيقة نظراً لعدم دقة النصوص المصدرية فى ذلك العصر فيما يتصل بتلك الناحية.

على أية حال، أفادت إشارة الإدريسي في توضيح اتساع حجم العمران البشري لمدينة مثل دمشق، ولاسيما في منطقة القنطرة، التي كانت - على ما يبدو - قد شهدت ازدهاراً واضحاً عندما زارها ذلك الجغرافي.

من جهة أخرى. ألقت جغرافية الإدريسي الضوء على الخريطة العقيدية والمذهبية لبلاد الشام في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وقد أشار إلى اليهود والمسيحيين، وكذلك عناصر الإسماعيلية النزارية.

وعلى سبيل المثال، نجد في نابلس يقرر أنها مدينة السامرية، وأشار إلى أن أهل بيت المقدس يذكرون أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا في نابلس^(٧٠)، ويبدو أنه لم يكن مقتنعاً بذلك على اعتبار أنه ذكر ذلك القول من باب الزعم، مع ملاحظة أن نابلس في ذلك العصر - وكذلك في العصور التالية وحتى الآن - كانت بالفعل المركز الفعلي لعناصر السامرية، إذ لم يرد في المصادر الجغرافية العربية الأخرى أمر وجودهم في موضع آخر باستثنائها.

وبالنسبة لعناصر المسيحيين المحليين، نجد أن الإدريسي يقرر أن جونية أهلها مسيحيون يعاقبة^(٧١)، ولا يقدم إشارات أخرى خاصة بباقي العناصر المسيحية في بلاد الشام أو دعم بعضها للوجود الصليبي هناك ضد المسلمين^(٧٢).

وفيما يتعلق بالإسماعيلية النزارية، نجد أن الإدريسي قدم إشارة مقتضبة عنهم عندما ذكر قلعة الخواري، وقد ذكر أن قلعة الخواري أهلها حشيشية^(٧٣)، وسفه عقائدهم، وهاجمهم لأنهم في نظره «خوارج عن الإسلام، لا يعتقدون شيئاً من البعث، ولا القيامة من بعد الموت»، ومن ثم لعنهم بمنهجهم^(٧٤).

وبعد الإدريسي من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وأشاروا إلى عناصر الإسماعيلية النزارية، مع ملاحظة أن تناوله

الموجز والمقتضب لهم، لا يقدم من خلاله جديداً، وإنما يفيد في أنه يعكس الميول الإسلامية السنية لدى الإدريسي.

وتجدر الإشارة إلى أن الخواص كانت إحدى قلاع الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، وقد تناثرت تلك القلاع بين الخواص، ومصيف (٧٥) - وهي للمركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام في العصر الذي زارها خلالها الإدريسي - والقدموس (٧٦)، والعلقة (٧٧)، والمينقة (٧٨)، والكهف (٧٩)، وجميعها، قد وقع ضمن نطاق كوتية طرابلس الصليبية.

ولا نقف أن من دلائل قصور تناول الإدريسي للإسماعيلية النزارية أنه لم يشر إلى عمليات الاغتيال التي قاموا بها في ذلك العصر، بيد أنها تفيد في توضيح نظرة الجغرافيين المغاربة لتباين الخريطة العقيدية لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. وهو أمر منجده يتردد - وبإهتمام - على مدى صفحات مؤلفاتهم التي تركوها، مستوى في ذلك الذين قدموا من المغرب أو من الأندلس.

وتبقى ناحية مهمة، أوردتها الإدريسي في تناوله لأنحاء الشام، وهي تتعلق بالجانب الحربي، وما يتصل بالقلاع، والحصون الصليبية.

فمن الأمور الجديرة بالملاحظة، أن الإدريسي قدم إشارة لعلها الأقدم من بين الإشارات التي وصلت إلينا من ذلك العصر من جانب مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام عن إحدى الهيئات الحربية الصليبية التي قامت بدور بارز في عصر الحروب الصليبية، ونعني بها هيئة الداوية Templars, Templiers، أي فرسان المعبد، ويلاحظ أنه عندما تناول المسجد الأقصى تعرض للحديث عن الجزء المخصص لسكن فرسان الداوية هناك، ومن المعروف أن الصليبيين بعد احتلالهم لمدينة بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لائنية أسموها معبد السيد Templum Domini، كما

أنهم استخدموا للمسجد الأقصى لصالحهم، وأطلقوا عليه إسم معبد سليمان Templum Solomonis وتم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، فحولوا القسم الأول إلى كنيسة، والقسم الثاني جعلوه لفرسان الدلوية، والقسم الثالث تم تحويله لكي يكون مستودعاً للخواتم، وجعلوا تلك السرايب التي تحت المسجد لتكون اسطبلًا لحيواناتهم^(٨٠).

وبلاحظ أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري^(٨١)، تناولت الهيئات الحربية الصليبية مثل الاسبتارية والدلوية، وتدر أن نجد إشارات عنهم في مؤلفات الجغرافيين المسلمين في ذلك العصر. وقد أشار الإدريسي إليهم على أنهم خدام بيت الله^(٨٢)، وهنا الوصف بالطيع من خلال نظرة الصليبيين أنفسهم لتلك الهيئة الحربية.

ومن المعروف أن هيئة الدلوية تأسست عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ، عندما أسسها فارسان صليبيان هما هيو دي باين Hugh de paynes، وجودفري دي سانت أومير Godfrey de Saint Omer^(٨٣)، وقد وافق البابا على الهيئة وتم تكريسها في مجمع تروى Troy في عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ^(٨٤)، وانتهالت الهبات، والمنح، والعطايا على الدلوية، حتى حققت ثراء عظيمًا، وشاركت في العديد من المعارك الحربية، التي خاضها الصليبيون ضد المسلمين في بلاد الشام، كما امتلكت الهيئة المذكورة العديد من القلاع الحربية، التي تآثرت على طول امتداد الوجود الصليبي وعرضه هناك.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافي، قد تناول أمر القلاع الصليبية، ومن ذلك تعرضه لتلك القلعة التي أقامها الأمير الصليبي راييموند دي سانت جيل Raymond de Saint Gilles - ويسميه ابن سهيل - في مواجهة طرابلس^(٨٥) Tripolis بشمال لبنان.

وجدير بالذكر، أن راييموند دي سانت جيل بعد أن تمكن من إخضاع جيل

عام ١١٠٤م / ٥٠٠هـ، ازداد إصراره، وقويت عزيمته من أجل إخضاع طرابلس حيث كان يحكمها بنو عمار، من أجل أن يجعلها قاعدة لإمارة صليبية له ولأسرته من بعده.

وفي ظروف صراعه مع طرابلس، عمل على اختيار أكمة صخرية على الضفة اليسرى من نهر أبي على (فاديشا) عرفت باسم تلة الحجاج Mons Pergrimus (٨٦)، وقد سماها المسلمون باسم قلعة صنجيل نسبة إلى ذلك الأمير الصليبي.

وتجدر الإشارة، إلى أن اختيار الموقع الذي أقيمت فيه القلعة، كان موافقاً لعدة اعتبارات، إذ أن القلعة أقيمت في مكان يشرف على مدينة طرابلس والأراضي المحيطة بها، حيث يسهل على الجند المرابطين فيه رصد كل النجديات البرية التي تصل إلى طرابلس من خارجها، بالإضافة إلى تحركات قوات طرابلس ذاتها، ومن جهة أخرى، كان من الممكن للصليبيين من خلال قلعتهم أن يسيطروا على مجرى النهر الذي يقوم بتزويد المدينة، وأرباضها باحتياجاتها من المياه، وكان بالإمكان أن يحصل الصليبيون على المياه عن طريق أبواب القلعة الشرقية الواقعة أسفل سفح التلة، ولا ترتفع عن مجرى النهر إلا بضعة أمتار، فضلاً عن موقع تلك القلعة المرتفع من شأنه أن يكتسب مناعة وتوقفاً عسكرياً على المدينة الساحلية (٨٧).

وبلاحظ أن راييموند دي سانت جيل قد حصل على دعم من جانب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨٠-١١١٨م)، الذي أرسل له الميرة، والأخشاب، والمعدات التي كان في احتياج إليها، وذلك من جزيرة قبرص Cyprus (٨٨) المقابلة للساحل اللبناني.

ويبدو أن ذلك الأمير الصليبي قد عمل على تدعيم أبنية تلك القلعة، وشحنها بالأموال، والرجال، والسلاح (٨٩)، وفي عام ١١٠٤م / ٥٠٠هـ، صارت القلعة مكتملة البناء، وصارت حقيقة واقعة، ومثلت تهديداً قائماً، وحقيقياً لبني عمار، حكام طرابلس (٩٠).

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن تلك القلعة التي أقامها راييموند دى سانت جيل كانت بمثابة القلعة الأولى التي أقامها الصليبيون فى المنطقة، ومن بعدها تعددت قلاعهم بأعداد كبيرة فى العديد من أنحاء بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين ١٢، ١٣م / ٦، ٧هـ.

زد على ذلك، أنه عندما أشار إلى مدينة عرقة Arqa، ذكر أن لها حصناً كبيراً^(٩١)، ولم يصف إلى عبارته الموجزة مزيداً من التناول لتلك القلعة الهامة، التي عدت من قلاع إمارة طرابلس الصليبية.

وقد قامت قلعة عرقة على المنحدرات الشمالية من لبنان أسفل الوادى المؤدى إلى حمص وحماة، وبعدت عن بعلبك بمسافة ستة وتسعين ميلاً وعن جزيرة ارواء بمسافة خمسة وأربعين ميلاً^(٩٢)، أما اسمها فإنه يرد فى كتابات الصليبيين على أنه Arqa أو Archas^(٩٣)، وكانت قلعة عرقة على درجة كبيرة من الحصانة على نحو اعترف به المؤرخ المجهول صاحب الجستا Gesta^(٩٤)، فى وقت مبكر من مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وقد استولى عليها الصليبيون بقيادة الأمير الصليبي وليم جوردان William Jordan (١١٠٥-١١٠٨م / ٤٩٨-٥٠١هـ) وذلك فى عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ^(٩٥).

ومن أهم المراحل التي تجدها فى تاريخ قلعة عرقة، عندما عهد الملك الصليبي عمورى الأول Amaury I (١١٦٤-١١٧٦م / ٥٥٩-٥٧١هـ) بأمرها إلى هيئة الإبتارية Hospitallers، وكان ذلك خلال مدة وصايته على إمارة طرابلس، عندما كان راييموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧م / ٥٤٧-٥٨٣هـ) فى الأسر، وعندما عاد من أسره ثبت تلك المنحة للهيئة المذكورة، وأضاف إليها بعض الامتيازات الجديدة، ويحدد البعض ذلك بأنه تم فى عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ^(٩٦).

وقد أصاب قلعة عرقة الهزات الزلزالية المدمرة التي حلت ببلاد الشام في ذلك العصر، مثلما حدث عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ^(٩٧)، وكذلك عام ١٢٠١م / ٥٩٧هـ^(٩٨)، وقد اتجه فرسان الاستتارية إلى إصلاح ما قد تهلّم من أبنيتها من جراء ذلك، لتدعيم حصانتها في مواجهة الصراع مع المسلمين.

وقد ظلت القلعة المذكورة في قبضة القوى الصليبية، إلى أن خضعت لسيطرة المسلمين، وذلك في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وذلك في عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ^(٩٩).

كما أن الإدريسي أشار إلى قلعة بغراس^(١٠٠)، وهي من قلاع إمارة أنطاكية Antioch الصليبية، وإن لم يذكر شيئاً عن تاريخها ودورها في الصراع الإسلامي/الصليبي.

وجدير بالذكر، أن قلعة بغراس، قد وقعت في مكان فيما بين أنطاكية، وقيليقية الأرمينية Armenian Cilicia، خلف جبل اللكام الهائل، المعروف باسم أمانوس Ammanus، وبعُدت عن أنطاكية بمسافة إثني عشر ميلاً، وبالقرب منها وجد حصن دريساك، إلا أن قلعة بغراس كانت أقرب إلى أنطاكية من دريساك^(١٠١).

وقد حصلت هيئة الداوية على قلعة بغراس، وذلك في عهد الملك الصليبي عموري الأول، وهي سياسة اتبعها منذ عام ١١٦٧م / ٥٦٣هـ، وشاركه نفس التوجه أمراء الإمارات الصليبية الأخرى، وقد اتجه الأمير بوهيمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١م / ٥٥٨-٥٩٧هـ) إلى إعطاء الداوية العديد من المواقع حول بغراس^(١٠٢)، من أجل تدعيم دفاعات إمارة أنطاكية.

وفي عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، استولى المسلمون على قلعة بغراس وذلك في عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(١٠٣)، وأظهر الداوية مقاومة عنيفة في

مواجهة الجيش الأيوبي (١٠٤)، واتجه صلاح الدين الأيوبي من بعد ذلك إلى تخریب بخراس.

وفيما بعد عادت القلعة المذكورة لسيطرة الصليبيين، ولذا، حرص الأيوبيون على مهاجمتها، ونجد أن الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب شن هجوماً واسع النطاق عليها وذلك عام ٦٢١هـ / ١٢٢٦م (١٠٥) وعلى مدى سبعة أشهر كاملة، وإن لم يتوصل إلى نتائج حاسمة حيالها بسبب حصانتها ومناعتها، وقد ظلت قلعة بخراس في قبضة الصليبيين إلى أن سقطت في قبضة المسلمين، وذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس وذلك في عام ٦٦١هـ / ١٠٥٢م (١٠٦)، على نحو فقدت معه إمارة أنطاكية الصليبية جانباً حيوياً من قدراتها الدفاعية.

ومن المفيد أن نلاحظ أن كافة القلاع الصليبية السابقة التي أشار إليها الإدريسي. قد بناها الصليبيون من أجل تحقيق أهداف استراتيجية هامة، ولسد ثغرات وعلاج مشكلات ملحة واجهوها بعد مقدمهم إلى بلاد الشام، ولعل أوضح تلك المشكلات؛ مشكلة نقص العنصر البشري، ويلاحظ أن تلك المشكلة طالما أرقت الصليبيين، نظراً لوجودهم ككيان قليل السكان إذا ما قورن بالمحيط الإسلامي العام الذي اتسم بالكثافة السكانية المرتفعة.

وفي هذا المقام نذكر أن الجيش الصليبي الذي خرج من نيقية عام ١٠٩٧م / ٤٩٠هـ، كان ضمناً إذا ما قورن بالجيوش المعاصرة، لكن الخسائر التي منى بها الصليبيون عند ضورلوبوم كانت مرتفعة أيضاً، ويرجح أن الجيش الصليبي الذي فرض الحصار على مدينة أنطاكية Antioch تراوح بين الخمسين، والمائة ألف، وعندما اقترب الصليبيون من تحقيق هدفهم انسلخ القادة الصليبيون الواحد تلو الآخر بالقوة العسكرية المراقبة له من أجل أن يؤسسوا ممتلكات إقطاعية لهم، وهكذا، يرى البعض أن الجيش الذي وصل إلى بيت المقدس محاصراً لها لم يتجاوز ١٥٠٠ فارس وعشرة أمثالهم من

الجنود المشاة^(١٠٧)، وقد يرى البعض أن هناك الدعم البشرى القادم من الغرب الأوروبى، بيد أن ذلك المدد لم يكن مستمرا، وكان عرضة للتقلبات، وهكذا لم يكن أمام الصليبيين إلا أن يشيدوا القلاع والحصون من أجل تعويض النقص البشرى لديهم، وحتى يدعموا كياناتهم على حساب أراضي المسلمين فى المنطقة.

ولانغفل أن تلك القلاع التى أقامها الصليبيون على امتداد وجودهم فى بلاد الشام، مثلت أحد أشكال تغيير هوية المنطقة على المستوى الطبوغرافى، وكurst الاحتلال الصليبي لأراضى المسلمين، واستمر الوجود الصليبي قائما طالما استمرت تلك القلاع والحصون، وعندما سقطت، كان ذلك إشارة إلى سقوط الكيان الصليبي يرمته.

وهناك حقيقة مهمة، ألا وهى، أن حرص الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر على إبراد أمر تلك القلاع الصليبية يدل على إدراكهم لخطورة أمرها ودورها فى دعم الكيان الغازى لأراضى المسلمين. وبعد الإدريسي فى إشارته السالفة الذكر من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م وأدركوا أهمية دور تلك القلاع ومن ثم تناولها فى كتاباته الجغرافية.

وبعد؛ فذلك كانت إشارات الإدريسي عن بلاد الشام، ولا ريب فى أنها أفادت فى إلقاء المزيد من الضوء على أوضاع المسلمين والصليبيين هناك خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، على نحو ضمن لتلك الجغرافى مكانة بارزة من بين الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية.

وسنخصص الفصل الثانى، لجغرافى آخر، هو ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة الإدريسي أنظر :

ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت بـت، ص ٥٠١؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، في المكتبة العربية الصقلية، نشر أماري، ط. ليزج ١٨٥٧م، ص ٧٠٦؛ محمد مرسى الحريري، الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، ط. الاسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٣-٤؛ حسين مؤنس، الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافيا عند المسلمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، م (٩)، م (١٠)، مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ٢٥٧-٣٥٧؛ عبدالله كتون، الشريف الإدريسي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ط. تطوان بـت؛ حسين الأمين، الشريف الإدريسي وخريطته للشهورة وكتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، العربي، العدد ١٧٧، أغسطس، ١٩٧٣م، ص ١١١؛ محمد عبدالغني حسن، الشريف الإدريسي أشهر جغرافيين العرب والإسلام، ط. القاهرة، ١٩٧١م، ص ٧-٤٩؛ فلورنس أفرا لاغ، «أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله الإدريسي» بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية؛ ن. عبدالكريم محفوظ، ط. دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤١٩؛ علي عبدالله الدقاع، الشريف الإدريسي، أعظم عالم في الجغرافيا في القرون الوسطى، المجلة العربية، السنة (٢)، العدد (٦)، يونيو - يوليو ١٩٧٩م، ص ٨١؛ رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية، ص. جازان، ١٩٨٩م، ص ١٥١-١٥٢؛ راجي عنيت، الشريف الإدريسي، ط. بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ط. جدة، بـت، ص ١٦١؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ وللؤرخون العرب، ط. الاسكندرية ١٩٨١، ص ١٦٣؛ عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط. القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥٣؛ محمد محمود محمدين، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، ط. الرياض، ١٩٨٣م، ص ٢٣٩؛ قلري حافظ طوقان، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، ط. الرياض، بـت، ص ١٩٧، حاشية (١)؛ فؤاد سركين، تقديم كتاب أنس للهج وروض الفرج، تصور معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٤، ورقة (١)؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ومقتطفات من آثارهم، ط. دمشق، ١٩٨٠م، ص ٣١٦؛ زكي حسن، الرحالة للمسلمون في العصور الوسطى، ط. بيروت، ١٩٨١، ص ٦٤؛ محمود كامل، الرحالة العرب في القرون الوسطى، أول من أرسى قواعد الجغرافيا والإرشاد السياحي، العربي، العدد (٢٠١)، أغسطس، ١٩٧٥م، ص ١٤٨؛ جورجى زيدان، تاريخ

آداب اللغة العربية، م ٢، ج ٣، ط. بيروت، ١٩٨٣، ص ٨٨؛ أنور عبدالمليم، للملاحة وعلوم البحار عند العرب، ط. الكويت، ١٩٧٩، ص ٤٧؛ كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ٣٠٤؛ أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ط. القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٣٦٧؛ زهير هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية فى أوروبا، ت. فاروق يوضون، وكمال الدسوقي، ط. بيروت، ١٩٧٩، ص ٤١٧.

(٢) فلورنس أفراغ، للرجع السابق، ص ٤١٩؛ محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى، للمؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤م، ص ١٤٤.

(٣) كراتشكوفسكى، للرجع السابق، ص ٣٠٤؛ محمد رشيد الفيل، أثر التجارة والرحلات فى تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، للمؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤م، ص ٤٤٥.

(٤) كراتشكوفسكى، للرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٥) عن علاقة الإدريسى بروجر الثانى ملك صقلية أنظر :

الصفدى، الوافى بالوفيات، القسم للنشور فى المكتبة الصقلية، نشر أمارى، ص ٦٥٨؛ حسين فوزى، المعارف للملاحة العربية فى القرون الوسطى وأثرها فى عصر النهضة، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٤٩؛ على عبدالله الدقاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٥٢، أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ١٦٢، حسين الأمين، للرجع السابق، ص ١١١؛ زكى حسن، للرجع السابق، ص ٦٥؛ شوقى ضيف، للرجع السابق، ص ١١٩؛ عباس العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٥٠؛ أحمد الشريف، دراسات فى الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٨٦.

والجدير بالذكر أن لايت، قد رأى أن الإدريسى قد ألف كتابه نزهة للشقائق فى بلاط روجر عام ١١٧٣م / ٥٦٩هـ، بيد أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع التاريخى؛ إذ أن روجر نفسه؛ قد مات عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ، وللرجع أن الإدريسى قد أتم ذلك الكتاب خلال حياته، إذ أنه بعد ذلك اضطربت الأمور بالنسبة للملك الجغرافى للمسلم الكبير، ولم يعد يحظ بنفس الرعاية التى نالها خلال حياة روجر الثانى ملك صقلية. ويضاف إلى ما سبق، فإن الباحثين يتفقون على أن وفاة

الإدريسي كانت عام ١١٦٢م / ٥٦٠هـ، ولهذا فليس من الممكن قبول ما ذهب إليه الباحث السابق بشأن التحديد الزمني كتابه نزهة المشتاق.

عن رأى ذلك الباحث أنظر :

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York, 1967, p.60.

(٦) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٩٥.

ومن المفيد في هذا المجال أن نتعرض بالنقد لما أورده الباحث عبدالله عبدالغنى غانم، الذى يقرر فيما يخص بعلاقة الإدريسي بروجر الثانى ملك أسبانيا، بينما الواقع التاريخى عكس ذلك؛ إذ أن أسبانيا فى ذلك الوقت لم يكن لها ملك مسيحى واحد، بل تنازعها المسلمون والمسيحيون، بالإضافة إلى أن روجر الثانى كان لقبه ملك الصقليتين أى صقلية، ونابولى، ولم يكن قط ملك أسبانيا، أما فى حديثه عن العلاقة بين الإدريسي وذلك الملك، يقرر ما نصه «اشتغل - أى الإدريسي - بنقل علوم العرب إلى الأوروبيين، ودعاة حكام صقلية، ومدن إيطاليا، وأسبانيا للإسهام فى حركة نقل التراث العربى إلى لغات بلادهم». والواقع أن ذلك القول أبعد ما يكون عن الواقع التاريخى إذ لا يعرف عن ذلك الجغرافى المسلم أنه قام بدور ما فى عملية الترجمة المذكورة. ولم ترد أدنى إشارة عن ذلك الدور فى ما ورد عن الإدريسي فى كتابات المؤرخين للمسلمين فى مرحلة العصور الوسطى، ومن للتعلقى تصور أن الإدريسي شغل خلال مرحلة ارتباطه بروجر الثانى بتأليف مؤلفاته الجغرافية مثل نزهة المشتاق، وأنس للهج، ومن المستبعد تماماً أنه قام بدوره فى الترجمة التى أورد أمرها الباحث الفاضل، ناهيك عن عدم إيراد أدنى إشارة لذلك. الأمر فيما ألقه الإدريسي نفسه. خاصة فيما اتصل بعلاقته بروجر الثانى، وختاماً فإن عملية نقل التراث العربى إلى لغات أوروبا فى تلك العصور قام بها مترجمون أوروبيون، ولم نسمع البتة عن قيام أعلام مسلمين؛ بالمشاركة فى ذلك الدور. وأمام كافة الاعتبارات السابقة أجدنى اختلف مع الباحث السابق فيما ذهب إليه. عن رأيه أنظر : عبدالله عبدالغنى غانم، الرواد للمسلمون، ط. الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

وعن حركة الترجمة فى عهد روجر الثانى، نعرف أنه قد نشطت فى عهده حركة الترجمة من اللغتين اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة ما نعرفه من ازدهار صقلية بكثير من تراث اليونان القديم.

وقد فاد حركة الترجمة إثنان من رجال الإدارة فى بالرمو هما هنرى ارسطيبوس Henricus Aristippus، وهوجين البلرمى، فعندما كان الأول رئيساً لشمامسة قطانية فى عام ١١٥٦م/

٥٥١هـ قام بترجمة محاورتين من محاورات أفلاطون، كذلك عندما صار لرسطيوس موظفًا كبيرًا في المجلس الملكي خلال للرحلة من ١١٦٠ إلى ١١٦٢م / ٥٥٥-٥٥٧هـ، قام بترجمة السيرة الذاتية لجريجوري النازيانيزى Gregorius Nazianzus (٣٢٩-٣٨٩م). عن حركة الترجمة في عهد روجر الثاني في صقلية أنظر :

Haskins, Studies in the History of medieval science, Cambridge 1927, p. 156.

جمعة الجندى، حكم النورمان في صقلية (٤٨٤-٥٨٦هـ / ١٠٩١-١١٩٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٠، ص ١١٨، عبدالرحمن بدوى، دور العرب في تكون الفكر الأوروبي، ط. القاهرة، ١٩٦٧، ص ٩.

(٧) الحسن الوزان، هو ليو الأفريقى Leo Africanus، وقد ولد في تونس عام ١٤٨٨م / ٨٩١هـ، وعندما بلغ الثلاثين من عمره وقع في أسر القراصنة الأوربيين، وذهب به أسره إلى إيطاليا، حيث مكث هناك عدة أعوام، وصنف في عام ١٥٢٤م / ٩٢٧هـ، معجمًا عربيًا، عبريًا، لاتينيًا، وذلك من أجل أحد الأطباء اليهود الذين صادقهم، كما أنه ألف كتابه وصف أفريقيا، وفي عام ١٥٢٦م / ٩٢٩هـ، نعرف أنه أكمل الترجمة الإيطالية لتلك الكتاب، كما أنه قام عام ١٥٢٧م / ٩٣٠هـ بتأليف كتاب باللغة اللاتينية، احتوى على سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب، وعنوان الكتاب للذكر باللاتينية هو :

Libellus de Viris quibusdam illustribus opud Arabes.

وقد استطاع ليو الأفريقى الفرار من إيطاليا، على الرغم من إطلاق سراحه، وذلك في للرحلة من ١٥٢٨، ١٥٣٠م، فقصده تونس، وعاش بها إلى أن أحرته منيته عام ١٥٥٢م، عن عمر يناهز الستين عامًا. عن الحسن الوزان أو ليو الأفريقى أنظر :

الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ت. عبدالرحمن حميدة، ط. الرياض، ١٣٩٩هـ، مقدمة للترجم بالإضافة إلى ص ١٧-٢٦.

Massignon, "Moroc daus les premieres années du XVI siecle, Tableau géographique d'apres Leon African", memoires de la societe historique Algerienne, Alger 1906.

محمد عبدالله عنان، «الرحالة الأتلمسى الحسن الوزان : ليو الأفريقى»، مجلة العربى، عدد (٤٣)، يونيو ١٩٦٢م، ص ٧٣-٧٧، جمال زكريا قاسم، «الحسن بن محمد الوزان، رحالة عربى ومصنف فرنجى»، مجلة العربى، العدد ١٦٣، يونيو ١٩٧٢م، ص ٩٤-٩٩، محمد أحمد زولم، «الحسن الوزان، وأهمية كتابه وصف أفريقيا في جغرافية السودان العربى»، رسالة ماجستير

غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٩م؛ عبدالرحمن حميدة، «وصف أفريقيا»، الفصل، العدد (٢١)، ربيع الأول ١٣٩٩هـ / فبراير ١٩٧٩م، ص ٨٣-٩٠. ودالحسن بن محمد الوزان الزياني أو ليون الأفريقي ٨٩٤-٩٦٢هـ / ١٤٨٨-١٥٥٤م، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود، م (٣)، الرياض، ١٩٨٤م، ص ٥٠١-٥٩٩؛ كراتشكوفسكى، للرجع السابق، ص ٤٨٨-٤٩٤.

(٨) حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، ص ١٦٩، هامش (٢).

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد رمضان قد ذكر في كتابه أن الإدريسي قد مات في القاهرة في عام ٦٤٩هـ / ١٢٥١م، وذلك اعتماداً على ما أورده السيوطي في حسن المحاضرة. والإدريسي الذي أورده السيوطي ليس الرحالة المسلم الشهير محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس، بل المقصود به محمد بن عبد العزيز الإدريسي الشرف الفاي، والذي وصف بأنه كان من فضلاء المحدثين وأعيانهم، وألف كتاب المفيد في أخبار الصعيد، وقد ولد في عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م، وتوفي بالقاهرة في عام ٦٤٩هـ / ١٢٥٥م، وقد أورد ترجمته السيوطي؛ وكذلك الأديب. ويمكن الخلط بينهما أن كلا منهما سمي بالإدريسي كما أنهما كلاهما من الأشراف. عن ترجمة الإدريسي الشرف (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥٥م) أنظر :

السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ١، تحقيق محمد أبو الفضل، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٥٥٤؛ الأديب، الطالع السعيد الجامع لتجيه مصر والصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٩٣.

وأنظر إشارة أحمد رمضان السابقة في : الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٦٤.

ومن جهة أخرى، اعتقد زكي العتيبي أن الإدريسي قد توفي عام ٥٤٨هـ / ١١٤٤م، بيد أنه من خلال الاعتبارات السابقة يبدو أنه تصور مبكر، أنظر : تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨٧م، ص ٥٥ من المقدمة.

(٩) حسين مؤنس، للرجع السابق، ص ١٦٩، هامش (٢).

(١٠) فلورنس أفراغ، للرجع السابق، ص ٤١٩-٤٢٠.

(١١) زكي حسن، للرجع السابق، ص ٦٧.

(١٢) محمد مرسى الحريري، للرجع السابق، ص ٨.

(١٣) على عبدالله الدفاعة، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، ط. بيروت، ١٩٨٥، ص ١٩١. وعن يابوخرافيا مؤلفات الإدريسي أنظر :

Oman, Notizie Bibliografiche sul geografo arabo AlIidrisi (XII secolo) e sulle sue opere. Estratto degli, Annali dell' Istituto Universitario Orientale di Napoli, Roma 1961.

وهي دراسة بيبليوغرافية هامة - علم الرغم من إيجازها - وتجد عرضاً لذلك العمل من جانب حسين مؤنس في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م (١١)، (١٢)، مدريد، ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص ٣٩٢-٣٩٤.

(١٤) عنوان الكتاب هو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

وبلاحظ أن مخطوطات نزهة المشتاق هي المخطوطة في المكتبة الأهلية B.N. في باريس تحت رقمي ٢٢٢١، ٢٢٢٢ ويصفهما حسين مؤنس على أنهما ليستا كاملتين، وأن للمتحقق عليه بين الباحثين أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة، وأكثرهما جدارة بالثقة، كما أوضح إبراهيم شوكة الذي عمل على تحقيق القسم الخاص بسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، أن هناك نسخاً أخرى في صورة مخطوط بولوك من إكسفورد Oxford، ومخطوطة مغربية، بالإضافة إلى مخطوطة موصلية. عن ذلك أنظر :

حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. مدريد ١٩٦٧م، ص ٢٢٩-٢٣٠، إبراهيم شوكة، تقديم تحقيق نزهة المشتاق، الجزء الخاص بسوريا ولبنان وفلسطين والأردن، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٣٠) عام ١٩٧٩، ص ٤.

والجدير بالذكر أن الطبعة الوحيدة - كما يقرر كراتشكوفسكي - التي تشتمل على أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢م؛ أي أواخر القرن السادس عشر للميلاد، بمطبعة للبيديشي Medici وتجد فيها الترجمة اللاتينية للعنوان وهو :

Oblectatio desiderantis in descriptione civitatum principalium et Tractatum et provinciarum et insularum et plagarum, Roma 1592.

ثم ظهرت ترجمة لاتينية لتلك الطبعة، وقد صدرت في باريس عام ١٦١٩م، وقام بها كل من يوحنا الحصريوني Jaonnis Hesronica، وجبريل الصهبوني Gabriel Sionita، وهي تحمل عنوان : جغرافية النوبي : وعنوان الترجمة اللاتينية هو :

Geographia Nubiensis, id est acuratissima totius oybis in septem climata divin descriptio continans praesentim exactam universiae Asiae et Africae, rerum que in iis bactenus incog - ni Tarum explicatione - Recons ex Arabico in

Latium versa a gabriele sionita, siriacarum et arabicarum Literarum professore
at que in terprete regio, et joanne Hesyonita, earandum regio interprete,
Naronitis - parisiis 1619.

عن ذلك أنظر : Oman, Notice, Bibliografiche, p. 50-51.

وبلاحظ أن تسمية جغرافية النوبى أو Geographia Nubiensis، هي تسمية خاطئة،
كما يلاحظ كراتشكوفسكى، إذ أن المترجمين، قررا أن المؤلف نوبى الأصل، وذلك لأنهما قرآ
عبارة «أرضها» على أنها «أرضنا» فصوروا - على عكس الواقع - أن المؤلف من بلاد النوبة فى
أقصى صعيد مصر. عن تلك الفكرة أنظر : كراتشكوفسكى، للرجع السابق، ص ٢١١.

ومن جهة أخرى، قام كونلى بنشر القسم الخاص بوصف الإدريسي من خلال الكتاب
للذكور، وذلك فى مدريد عام ١٧٩٩م، وعنوان عمله :

Conde, Description de Espana de X erif Aledrisi, conocida per el
nubiense, con Traducccion y notas, Madrid 1799.

كما أن ميلر Miller، قام بنشر وصف بلاد الشام من نزعة المشتاق، وصدر عمله فى
لپزج Lipzeg عام ١٨٢٨م.

أما الترجمة الكاملة لمتن الإدريسي فى نزعة المشتاق، فقد ظهرت باللغة الفرنسية فى
مجلدين عام ١٨٣٦، ١٨٤٠م، على يد جوير Jubert (١٧٧٩-١٨٤٧م) وهو أحد علماء
الحملة الفرنسية على مصر، وعنوان عمله هو :

Geographie d'Edrisi, Traduite de L'Arabe, Par Jubert, Paris 1836-1840.

والجدير بالذكر أن دى ساسى له دراسة هامة عن جهود جوير السالفة الذكر، تم نشرها
فى الجريدة الآسيوية، المجلد الحادى عشر، عام ١٨٤١م. عنها أنظر :

De Sacy, "Geographie d'Idrisi, Traduite en Francais par Mr. Jaubert", J.A.,
T. XI, Année 1841, pp. 342-387.

ويرى كراتشكوفسكى، أن عمل جوير يحوى العديد من الأخطاء، التى من الواجب
تصويبها دون أن يحدد طبيعتها.

ومن جهة أخرى، قام دوزى Dozy ودى جوي De Goeje بطبع القسم الخاص بوصف
للغرب، والأندلس، ومصر، والسودان، وصدر عملهما فى لندن عام ١٨٦٤م، وعنوان العمل هو :

Dozy et De Goeje, Description de L'Afrique et de L'Espagne, Leyden 1866.

أما أمارى Amari، فإنه قام بنشر القسم الخاص بوصف إيطاليا، وصدر عمله فى روما عام
١٨٨٥م. كما أن جون جلد مستر قام بنشر القسم الخاص بفلسطين وسوريا وصدر عمله فى بون

عام ١٨٨٥م، بعنوان :

Idrisi palestina et Syria arabice ad fidem Librorum manuscriptorum ed. John Gildemester, Bonn 1885.

عن طبعات وترجمات أجزاء من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أنظر :

Rubricht, Chronologisches Verzeichniss der Auf die yeographie des Heilligen Landes Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878, Berlin 1890, P.36-37.

كراتشكوفسكى، المرجع السابق، ص ٣١١، بالنبيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ت. حسين مؤنس، ط. القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٣١٣، نجيب العقيدى، للمستشرقون، ج ١، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص ٩٩، محمد جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة، ط. بيروت بـت، ص ١٠٢، ١١٢، فلورنس أفرا لاغ، المرجع السابق، ص ٤٢١،

والواقع أن نظرة فاحصة إلى الجهود التحقيقية التى قام بها محققو الإدريسى، توضح أن الباحثين الفرنسيين، والألمان والإيطاليين، وكذلك الأسبان، عملوا على تحقيق أجزاء معينة من نزهة المشتاق، وأن منهم من حرص على تحقيق القسم الخاص ببلاده، من ذلك الكتاب أو ترجمه إلى لغته المحلية.

يبد أن من الملاحظ أن الباحثين الإيطاليين، كانوا أكثر من غيرهم حرصاً على تحقيق كتاب نزهة المشتاق، وإصداره من خلال عمل جماعى قام به عدد من المحققين الإيطاليين، نذكر منهم :

G. Levi Della Vida, E. Cerulli, F. Gabrieli, G. Tucci, L. Petech, A. Bombaci, U. Ruzitano, A. Rubinacci, L. Veccla Vaglieri.

وقد صدر عملهم تحت عنوان : Opus Geographicum . أى «صورة الأرض»، خلال المرحلة من ١٩٧٠-١٩٧٧م، وذلك من جانب معهدين من كبار معاهد الاستشراق فى إيطاليا وهما :

Instituto Universitario Orientale di Napoli, Istituto Italiano Per Il Medio Ed Estremo Oriente.

ويلاحظ أن جهد ذلك الفريق من الباحثين الإيطاليين قد استغرق سنوات عديدة، إذ أن العلامة حسين مؤنس، كان قد أشار إلى إعدادهم لذلك العمل منذ عام ١٩٦٣-١٩٦٤م. قبل إصداره عام ١٩٧٧م، عن ذلك أنظر ما ذكره فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، م (١١)، (١٢) مدريد ١٩٦٣-١٩٦٤م، ص ٣٩٤.

ومن للملاحظ غياب دور الباحثين المسلمين المحدثين في مجال تحقيق نزعة المشتاق أو جزء منه، بيد أن الباحث إبراهيم شوكة قام بتحقيق القسم الخاص بوصف سوريا ولبنان، وفلسطين، والأردن، وصدر عمله في مجلة المجمع العلمي العراقي، في مجلد رقم (٣٠) عام ١٩٧٩.

وبلاحظ أن الباحث الألماني ميلر Miller - كما أسلفت من قبل - كان قد قام بتحقيق ذلك القسم من نزعة المشتاق، وصدر عمله في ليزج Lupzeg عام ١٨٢٨ م، ولكن لم يتسن لي مطالعة عمل ميلر؛ كي أقرر حقيقة جهد إبراهيم شوكة، وأوجه تميزه من عمل قريبه الألماني.

ومع ذلك، يؤخذ على تحقيق إبراهيم شوكة؛ أنه اعتبر قسماً مضافاً إلى مخطوطة من المخطوطات التي اتخذها أساساً لدراسته، على أنه أصل من نزعة المشتاق، والجزء المضاف خاص باسترداد جزيرة أرواد وقد أشار إلى حدوث ذلك في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وبلاحظ أنه تولى السلطنة على ثلاث مراحل متقطعة من ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م إلى ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، من ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م إلى ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م، من ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م إلى ٧٤١هـ / ١٣٤٠. ومن المنطقي تصور أن ذلك القسم يعد دخيلاً على المخطوطة، ومضافاً إليها، على اعتبار أن الإدريسي نفسه - كما أسلفت الإشارة من قبل - قد توفي عام ٥٦٠هـ / ١١٦٢م، ولذا فمن المتبعد تماماً أن يصف أحداثاً وقعت خلال مدة حكم السلطان المملوكي الناصر محمد. عن ذلك السلطان أنظر :

ابن تفرين بردى، النجوم الزاهرة، ح ٨، ص ١١٥-١١٦؛ سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت، ب-ت، ص ٢٢٥-٢٢٨، ٢٣١-٢٣٣؛ السيد الباز العرني، للمماليك، ط. بيروت ب-ت، ص ٢٦٧؛ على إبراهيم حسن، تاريخ للمماليك البحرية، ط. القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٦٨-١١٥.

(١٥) أنس المهج وروض الفرج، مخطوط مكتبة حكيم أدغلي تحت رقم ٦٨٨، ومخطوط مكتبة حسن حسني تحت رقم ١٢٨٩، وقام بتصوير الكتاب اعتماداً على المخطوطتين المذكورتين فؤاد مزكين، وصدر عمله من جانب معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٤.

ومن المعروف أن المستشرق يوسف صورفيتش Joseph Horovitz، قد اكتشف المخطوطة المذكورة في مكتبة حكيم أدغلي، وعمل عدد من الدارسين على البحث فيها مثل سيولد C.F. Seybold وكونزا ميلر K. Miller.

وبلاحظ أن الإدريسي في هذا الكتاب يقرر أنه يقتصر فيه «على الاختصار، وترك الهلر والإكثار»، وذلك مع اعتماده على المصادر التي ذكرها في مقدمة كتابه نزعة المشتاق في اخراق الآفاق.

وقد ذهب فؤاد سزكين إلى القول بأن هذا الكتاب من المحتمل أن الإدريسي قد ألف في أواخر حياته للإمبراطور غليوم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) ولد روجر. عن ذلك أنظر :

تقديم فؤاد سزكين لتصوير المخطوطة المذكورة، محمد النونى، «الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها»، مجلة الجمع العلمي العراقي، م(٢٩)، عام ١٩٧٨م، ص١٦٢.

(١٦) جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى، ط. القاهرة، ١٩٧٤م، ص٤٠٢، زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل، ص٣٧٥، كراتشكوفسكى، مع المخطوطات العربية، ط. موسكو-ب-ت، ص٣٥.

(١٧) نفسه، نفس المرجع، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(١٨) بالثنيا، المرجع السابق، ص ٣١٤، شوقي ضيف، المرجع السابق، ص١٩، حسين فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت، ١٩٨٩م، ص٩٦، عبدالعال عبدالنعم الشامى، «جهود الجغرافيين للمسلمين فى رسم الخرائط للجغرافية»، للمؤتمر الإسلامى الجغرافى الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م(٣)، ط. الرياض، ١٩٨٤م، ص٢٨١، عبدالنعم ماجد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٣٥، شريف، الفكر الإسلامى منابعه وآثاره، ت. أحمد شلى، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٢٣.

(١٩) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٨م، ص١١٢، أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص٤٧.

ومن المقيّد فى الواقع أن تتعرض بالرد على ما ذهب إليه الباحث حسن على حسن عندما ذكر ما نصه «إن كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار يعدل كتاب الإدريسي نزهة المشتاق فى الأهمية، والواقع أن هذا التصور يحوى مبالغة جلية، لعدة اعتبارات، فمؤلف الاستبصار المجهول، ويعتقد أنه رحالة مغربى يعود إلى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر للميلادى تطرق فى وصفه لبلاد المغرب، ومصر، والحجاز فى الأساس، ولم يتعرض لمناطق أخرى فى آسيا وأوروبا، وأفريقيا إلا نادرًا، على عكس نزهة المشتاق الذى أوضح فيه الإدريسي جوانب هامة عبر القارة الأوروبية ومناطق بها نائية وقل اعتمام الجغرافيين للمسلمين السابقين بها، زد على ذلك أن الإدريسي أفاد من تصورات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين عليه وهو أمر لا يتضح من خلال مطالعة الاستبصار، وأخيرًا، فإن نزهة المشتاق يعكس براعة عقلية الإدريسي من خلال توافر إمكانيات دولة النورمان بصقلية، وبالتالي توافرت له إمكانيات يمكن أن توصف بأنها استثنائية، أما كتاب

الاستبصار فيمكنس مجهوداً فردياً - مع عدم إغفال دور ما يسمى بالناظر في الكتاب - وليس من اليسير مقارنة الكتاب الأخير بترهه للمشتاق للإدريسي أمام كافة الاعتبارات السابقة. عن الرأي السابق أنظر :

حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر الرابطين والموحدين، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص ٥٠٥.

(٢٠) عبدالفتاح وهبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٧.

(٢١) كراشكوفسكي، الأدب الجغرافي، ص ٣٠٣.

Lite, A History of geographical discovery and exploration, New York 1967, p. 60.

(٢٢) فؤاد سركين، تقديم تصوير مخطوط نس للمهج وروض الفرج، ورقة (١).

(٢٣) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص ٢١٧.

والهمذاني، هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني المشهور بابن الحائك، نشأ في أسرة متوسطة الحال، كانت تهتم بأمر الحجيج من اليمن، وأكثر الهمذاني من الأسفار خارج اليمن، مما أعطاه فرصة جيدة من أجل مجالسة العلماء في العديد من المدن والأقطار، وتعرض الهمذاني للسجن في عهد الإمام الزيدى أحمد الناصر في عام ٣١٥هـ / ٩٢٧م، وألف العديد من المؤلفات منها كتاب الإكليل، وكتاب سرائر الحكمة، وكتاب القوى في الطب، وكتاب زيج الهمذاني، وكتاب صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهريتين العتيقتين الحائقتين الصفراء والبيضاء، وكتاب في الأنساب، وكتاب للمسالك والممالك، وقد توفي الهمذاني في عام ٣٣٤هـ / ٩٤٦م. عن الهمذاني ومؤلفاته أنظر :

الهمذاني، الإكليل، تحقيق محب الدين الخطيب، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٨-٢٤، القفطي، أخبار العلامة بأخبار الحكماء، ط. بيروت ب-ت، ص ١١٢، زغلول النجار وعلى عبدالله الدفاع، للرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٤، أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ٩٥-١٠٠، أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص ٦٨-٦٧.

وابن حوقل، هو محمد بن علي البغدادى الموصلى، يكنى بأبي القاسم ولقب بابن حوقل، ولا نعرف الكثير عن حياته سوى أنه غادر بغداد في عام ٣٣١هـ / ٩٤٣م، من أجل دراسة

البلاد والشعوب، ورغبة في الارتفاق من خلال التجارة. ولذا طاف أنحاء العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه، ويقال إنه ظل يتجول فى أنحاء عالم الإسلام على مدى ثلاثين عاماً، ووصل فى تجواله إلى بلغاريا، وأعلى نهر الفولجا، وقد ألف كتابه الشهير صورة الأرض، وقد أفاد من جغرافى مسلم آخر، ألا وهو الاصطخرى فى تخطيط الكتاب، وكذلك فى محتواه ذاته، وقد أضاف أشياء جديدة، كما أن أسلوبه فى الكتابة، امتاز بالسهولة، والوضوح، وتجنب السجع، والمحسنات البديعية، ونظراً لكون ابن حوقل تاجراً، نجد أنه اهتم اهتماماً خاصاً بالتجارة وكذلك العجائب، ويلاحظ أن المشرق دوزى قد رأى أن ابن حوقل عمل جاسوساً لحساب الفاطميين فى الأندلس، غير أن ذلك التصور لا يتفق مع الواقع، إذ أنه فى مواضع كثيرة يوجه النقد الشديد للفاطميين، من ذلك أنه عندما كان يورد ذكر بعض المناطق المخربة فى أفريقية، حرص على أن يشير إلى أن ذلك خربه المبيدون، وهى تسمية لا يوردها إلا أعداء الفاطميين، على نحو نفيد ما ذهب إليه دوزى فى هذا الشأن. عن ابن حوقل أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. لندن ١٩٦٧م، ص ٣-٤؛ حسين مؤنس، مكان للمسلمين فى التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص ٢٤٧، أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ١١٧، على عبدالله النفاق، رواد علم الجغرافيا، ص ١٠٨، نفيس أحمد، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى، ت. فتحى عثمان، ط. الكويت ١٩٧٨م، ص ٦٩، أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١٦.

والمقدسى، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء وعرف باسم المقدسى، حيث ولد بمدينة بيت المقدس فى عام ٣٣٥هـ / ٩٤٥. وقد تلقى تعليماً متميزاً، وأدى فريضة الحج، وهو فى العشرين من عمره، وكرس حياته من أجل دراسة الجغرافيا، ولذا، قام بعدة رحلات استغرقت عشرين عاماً، وذلك من أجل الحصول على المادة العلمية اللازمة لوضع كتابه الشهير أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ويحوى على وصف عام للدول الإسلامية، مع التخصيص على الجوانب الثقافية والدينية. وقد صنفه فى عام ٣٨٥هـ / ٩٩٥م، ونجد فيه الكثير من الجغرافيا الوصفية لسطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية وذكر المسافات، وكذلك طرق اللواصلات، وأيضاً عن الجغرافيا الانسانية التى تتناول طوائف الناس، واللغة، والتجارة، وغيرها، ومن المفيد أن نذكر أن المقدسى يتضح من خلال كتابه أنه دقيق الملاحظة لأنماط الحياة المختلفة فى المناطق التى مر بها، وكذلك ممارسات الناس، ونشاطهم الاقتصادى المتباين، كما أنه تمتع بنظرة ثاقبة فى مجال تقدير، وتقييم آطب البلاد التى طاف برهوعها، وقد امتاز منهجه بالاستناد، ولذا نجده يستند للمعلومات التى دونها فى كتابه أحسن التقاسيم إلى رلوها،

لا سيما في حالة التشكك حتى ولو قليلا، على نحو جعله يتصف بالدقة بصورة واضحة. وتبقى ناحية طريفة عن المقدسي، ألا وهي أنه كثيرا ما غير اسمه من أجل أن يندمج في صفوف الجماهير، حتى يتمكن من دراسة أنماط حياتها المختلفة. وقد توفى ذلك العلم الجغرافي في عام ٣٩٠هـ / ١٩٥٠م. عن المقدسي أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ح-١ / ق ١، ط. استنبول ١٩٤١م، ص ١٦؛ شاعر الفطام، حياة المقدسي وعصره، ضمن أعمال الندوة التي عقدت في دمشق في ١١/٨/١٩٩٠م، في الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاته؛ صفى الدين أبو العز، الجغرافية الاقتصادية والاجتماعية عند المقدسي، الندوة السابقة؛ عادل عبدالسلام، منهج المقدسي وأسلوبه في البحث، الندوة المذكورة؛ خالد مازوط، الإنشاءات التراثية للمائة أيام المقدسي، الندوة السابقة الذكر؛ محمد نذير سنكري، للامع البيعة والمائة للوطن العربي عند المقدسي، ضمن أبحاث الندوة المذكورة؛ حسين فهم، المرجع السابق، ص ٧٧، حاشية (٣)؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١١٤؛ صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، ط. بغداد ١٩٨١م، ص ٤٤-٤٥؛ علي عبدالله الدفوع، رواء علم الجغرافيا، ص ١٢٤؛ زغلول النجار والدفوع، المرجع السابق، ص ٣٤٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ح-٢. ط. بيروت ١٩٦٧م، ص ١١؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٢٩؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص ٤٤؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢٤) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص ٢١٧.

وعن دور الإدريسي في مجال علم الخرائط أو الكارتوجرافى Cartography، نعرف أن أكبر إضافة قدمها للمسلمون، إلى ذلك العلم، تتمثل في خريطة الإدريسي للعالم، وقد تضمنت خريطته معلومات من كل من الجانبين؛ الغربي للمسيحي، والشرقي الإسلامي، وتعود أهمية خريطته بالنسبة للغربيين إلى ثروة المعلومات الخاصة بالجزء الآسيوي، وكذلك منطقة الشرق الأوسط، ووسط آسيا على نحو خاص، وقد رسم الإدريسي خرائط أخرى، ونجد أنه قد استخدم الألوان في رسمها؛ فظهرت البحار باللون الأزرق، بينما تجده قد استخدم اللون الأخضر ليدل على الأنهار، واللون الأحمر والبنى والأرجواني ليدل على الجبال، أما المدن؛ فتجده قد جعلها مرسومة بنواثر ملحية. عن دور الإدريسي في هذا المجال أنظر :

محمد محمد سطيحة، الجغرافيا العملية وقراءة الخرائط، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص ٣٣-٣٤؛ محمد صبيح عبدالحكيم وماهر اللبني، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ضمن كتاب دراسات في الحضارة

الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٣٩؛ مونتجومري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ط. القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٥؛ على عبدالله الدقاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٥٣؛ أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١١١.

Wright, The geographical Lore of The Time of The Crusades, A study in The History of medieval Science and Tradition in Western Europe, New York 1965, p. 80; Lite, A History of geographical discovery, p. 60.

وبلاحظ أن المستشرق بلوشيه، قد قام بنشر خريطتين من خرائط الإدريسي عن الشمال الأفريقي، وضمنها كتابه عن لدراسة علم الخرائط عند المسلمين، الصادر في يون عام ١٨٨٨م. عن ذلك أنظر :

Blochet, contribution à L'etude de la cartographie chez les musulmans, Bonn 1888.

عن ذلك أنظر : دائرة المعارف الإسلامية، م (٢)، مادة «الإدريسي»، ص ٤٨٩.

ومن بعد ذلك، قام للمستشرق الألماني كونراد ميلر Konrad Miller - وهو من كبار المهتمين بالدراسات الإدريسية لاسيما في مجال الخرائط - قام بعمل أطلس كامل خاص بخرائط الإدريسي، وقد احتوى على (٧٣) خريطة، وأضاف إليها قائمة تفصيلية بالأسماء التي وردت فيها وذلك في شتوتجارت عام ١٩٢٦.

وقد صدر عمل ميلر تحت عنوان :

Miller, Mappae Arabicae, Arabische Welt - and Lander Karren I Band. 3 Heft. Die kleine Ldrisikarte Von Jahre 1192n Stuttgart 1926.

عن عمل كونراد ميلر أنظر :

شاكر خصباك، الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٦١، وكذلك تقديم فؤاد سزكين لتصوير مخطوط أفس المهج.

وبلاحظ أن صبيحي عبدالحكيم وماهر الليثي قد اعتقدا أن عمل كونراد ميلر السالف الذكر، قد صدر عام ١٩٢٨م، والصواب ما أثبتته وهو عام ١٩٢٦م. عن رأيهما أنظر : صبيحي عبدالحكيم وماهر الليثي، المرجع السابق، ص ٢٨، حاشية (١).

ومن المهم أن نذكر أن عمل كونراد ميلر قد صدر في ستة أجزاء، خلال الرحلة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣١م.

ومن جهة أخرى، استطاع كونراد ميلر أن يستخرج من مجموعة من خرائط مخطوطات كتاب الإدريسي، خريطة شاملة للعالم كما صورها ذلك الجغرافي والخرائطى اللوهورى، وتم طبعها وذلك فى عام ١٩٣٨، ملونة ومزودة بالحروف اللاتينية، وفى عام ١٩٥١م، اهتم المجمع العلمى العراقى بتحقيق تلك الخريطة الهامة، وعمل على إعادتها إلى أصلها العربى، وهناك من يرى أن التصحيح لا يزال قائماً فى الأسماء، ومن زاوية أخرى، نجد أن الاهتمام بتلك الخريطة، لم يكن قاصراً على المجمع العلمى العراقى، بل إنه امتد ليشمل نقابة المهندسين العراقيين، التى عملت على الاهتمام بطبع تلك الخريطة، وذلك فى عام ١٩٧٠م، وتم اختصارها من ست قطع إلى ثلاثة. عن ذلك أنظر :

عبدالجبار عبدالرحمن، فهرست للطبوعات العراقية، ج-٢، ط. بغداد ١٩٧٩م، ص ٣٦٥؛
على عبدالله الدفاعة، رواد علم الجغرافية، ص ١٥٣؛ أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٦٤؛
فلاح شاكراًسود، دور العرب والمسلمين فى رسم الخرائط، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٢١٥؛ محمد
محمود الصياد، منهج العلماء للمسلمين فى البحث الجغرافى، المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول،
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٤٩٤؛ عبدالعال
عبد المنعم الشامى، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط، الجمعية الجغرافية الكويتية،
صفر ١٤٠٢هـ / ديسمبر ١٩٨١م، ص ٢٠٢-٢٠٣؛ أحمد فؤاد باشا، للرجع السابق، ص ١٢٠

(٢٥) كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى، ص ٣٠٤.

(٢٦) نفس المرجع والصفحة.

وقد رد ذات الفكرة محمد عبدالقنى حسن؛ إذ أشار إلى أنه قلم أوصافاً لمدينة صيدا، وبيروت، وبيت لحم فى فلسطين، ويقول ما نصه «وإن كان لم يأكد لنا زيارته لتلك البلاد، وهو هنا ناقل عن أوصاف غيره». أنظر : الشريف الإدريسي، أشهر جغرافى العرب والإسلام، ص ١٥١.

(٢٧) تكتب عكا، أو عكة، أو عكا. وترد فى المصادر التاريخية الصليبية، Acron, Accoron, Acre، وهى من مدن الساحل الفلسطينى، وبعدت عن قيسارية بمسافة ستة وثلاثون ميلاً، وقد استولى عليها الصليبيون وعلى رأسهم الملك الصليبي بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧م) فى عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ، وغدت مركزاً تجارياً بالغ الأهمية للكيان الصليبي، ولزاد وجود التجار الأوروبيين فيها من كافة الجنسيات من أجل القيام بعمليات

الاستيراد والتصدير. وقد حرص العديد من الرحالة الأوروبيين الذين زلروا مملكة بيت المقدس على مدى المرحلة من عام ١٠٩٩-١١٨٧م، حرصوا على وصف مدينة عكا والازدهار التجارى بها، وتعدد السفن الموجودة فى مينائها، وكذلك الكثافة السكانية بها من أم وأجناس مختلفة، وفيما بعد استردها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وفيما بعد أخضعها الصليبيون فى ظروف الحملة الصليبية الثالثة، وذلك عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ بعد حصار دام نحو عامين، وظلت بمثابة مركز الصليبيين السياسى - بالإضافة إلى مكانتها الاقتصادية - وذلك بعد سقوط مدينة بيت المقدس فى قبضة المسلمين، وفيما بعد استرد عكا المسلمون فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وذلك عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ. عن عكا أنظر :

للقديسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط. لندن ١٩٦٧م، ص ١٦٢-١٦٣، ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص ١٥، الإدريسي، أنس للهج، ورقة (٧٦).

Fulcher of Chartres, A History of The expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rvan, Tennessee 1969, p. 176; William of Tyre, A History of The deeds done beyond the sea, Trans. by Bebrok and Krey, Vol. I, p. 454-456; Le Strange, palestine under Islam, London 1890, p. 334.

مكسيموس موزوند، تاريخ الحرب المقدمة للدعوة بحرب الصليب، ت. مكسيموس مظلوم، ج ١، ط. لورشليم ١٨٦٥م، ص ٢٢١-٢٢٢، سيد الحريرى، الأخبار السنوية فى الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩١١م، ص ٤٩.

(٢٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وبلاحظ أن هناك من الرحالة الأوروبيين، ممن زلروا عكا خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، من أشار إلى تزايد أعداد السكان فى مدينة عكا مثل ليودريس ويوحنا فوكاس، أنظر :

Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 59; Joannes phocas, A Brief Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 19.

أيضاً : محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية

(١٠٩٩-١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٨٤، ص ٢١٨.

(٣٠) وقعت حيفا على الجزء الجنوبي من أكبر خليج على شاطئ فلسطين، وتعد متفلاً إلى البحر مرج ابن عامر، وهو المرج الوحيد الذي يشق جبال فلسطين الغربية، وهذا المرج يمثل إحداراً تدريجياً إلى غور الأردن، وتعد حيفا مركزاً لشبكة من الطرق تتجه شمالاً وشرقاً وجنوباً، وقد استولى الصليبيون عليها في عام ١١٠٠م / ٤٩٤هـ، بمساعدة أسطول من البندقية، وقد دافع عنها سكانها بيسالة، وعندما دخلها الصليبيون ارتكبوا فيها مذبحه. وقد استردها المسلمون في عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. ثم من بعد ذلك سقطت في أيديهم بعد أن أخضعها الصليبيون، وكان ذلك في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٦٥م / ٦٥٥هـ. عن حيفا أنظر :
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦، ص ٢٣٤.

Fulcher of chartres, p. 142; William of Tyre, Vol. I, p. 399; Stevenson, The Crusaders in The east, Beirut 1968, p.33, p.40, p. 150; Press, Palestina Und Sudsyrien ressehandbuch, Berlin 1921, p. 249-250.

ألكس كرم، تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين ت. تيسير إلياس، جامعة حيفا، للمركز اليهودي العربي، معهد دراسات الشرق الأوسط، ط. حيفا ١٩٧٩م، ص ١١-٣٧؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ت. إلياس شاهين، ط. موسكو ١٩٨٦م، ص ١٢٩؛ زكي نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨، ص ٥٥-٥٦.

(٣١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٢.

(٣٢) نفسه، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٣) نفسه، نزهة المشتاق، ص ١٩، أنس المهج، ورقة (١٣٢).

(٣٤) نفسه، نزهة المشتاق، ص ١٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٧.

وبلاحظ أن مثل تلك الإشارات مجدها تتكرر في المصادر الجغرافية العربية التالية على عصر الإدريسي، من ذلك - على سبيل المثال - أن ابن شاهين، قد أورد أن صيدا - في عصره - تعد ميناء دمشق. عن ذلك أنظر :

ابن شاهين، زبدة كشف للممالك وبيان الطرق والمسلك، تحقيق بول رافي، ط. باريس ١٩٩٤م، ص ٤٧.

وكيفاً : هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في المصور الوسطى، ج ١، ت. أحمد محمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٨٥.

(٣٦) عن وصف الطريق المحتد من يافا إلى بيت المقدس، تعرف أنه مر بمناطق ذات طبيعة جبلية، إلى أن يصل إلى السهل الساحلي، ويبلغ امتداده سبعة وستين كم، ويبدأ من غرب بيت المقدس من الباب الغربي لها، والمسمى باب يافا، ويستمر في هضبة القدس، ثم يعبر دير ياسين، وأبو غوش ثم الرملة، وقد قام الصليبيون بتشييد ستة حصون على امتداد ذلك الطريق. وفي أوائل عهد الصليبيين بالمنطقة، شن المسلمون حرب عصابات على أعدائهم عبر ذلك الطريق الذي وصفه الرحالة الروسي دانيال (١١٠٦-١١٠٧م) بأنه طريق صخري وخطر وأشاز إلى هجمات المسلمين الفجائية ضد أعدائهم الصليبيين الذين سقطوا قتلى من جراء ذلك.

عن طريق يافا - بيت المقدس أنظر :

Daniel, Pilgrimage of the Rusion Abbot Daniel in The Holy Land, Trans. by Wilson, P.P.T.S., Vol. IV, London, 1895, p. 9.

سيد فرج، القدس عربية إسلامية، الدارة، السنة (٨)، العدد (٢)، يناير ١٩٨٤م، ص ١٢؛ عبدالرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص ٦٢؛ فتيحي عبدالعزيز عبدالله، دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م، ص ١٢٢؛ علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط. القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢١٣.

(٣٧) الإدريسي، للمصر السابق، ص ١٧.

(٣٨) وقعت عسقلان Ascalon على الساحل الفلسطيني على بعد إثني عشر كم إلى الشمال من غزة، وعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة في آخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كانت عسقلان تابعة للسيادة الفاطمية، ومثلت ميناء تجارياً هاماً، وقاعدة بحرية متقدمة للفاطميين في فلسطين، ووصفت بأنها عروس الشام، وقد استولى عليها الصليبيون في عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، وذلك بعد حصار طويل، في عهد الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٦-١١٦٣م). عن عسقلان أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق دي جويه، ط. لندن ١٩٦٧م، ص ١٧٤؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، تحقيق دي جويه، ط. لندن، ص ٢٢٩؛ إسحاق بن الحسين، آكام للرجان في ذكر اللدائن المشهورة في كل مكان، باعتناء فهمي سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٦٠؛ الإدريسي، أنس المهج، ورقة (٧٥).

William of Tyre, vol. II, pp. 184-234; Baldwin, The Latin States under Baldwin III and Amalric I, in Setton, A History of the crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, pp. 546-538.

عبد اللطيف عبدالهادي السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م، ص ١٣٨-١٤١؛ قسطنطين خمار، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية الواردة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨م، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ١٦٧؛ فهمي توفيق مقل، الفاطميون والصليبيون، ط. بيروت ب-ت، ص ١١٧-١٢٢؛ أحمد محمود الأحمد، السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، ط. دمشق ١٣٩٩-١٤٠٠هـ، ص ٢٩؛ بسام العسلي، نور الدين القائد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٨٤-٨٩؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٦.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦. وأنظر أيضاً: ابن بطوطة، تحفة النظار في عجائب الأمصار، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٦٢.

(٤١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٤؛ علي السيد علي، أخواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (بلاد الناصبات)، الدرة، العدد (١)، السنة (٨)، شوال - ذو القعدة - ذو الحجة ١٤١٢هـ، ص ١٩٢.

(٤٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٤.

ومن المفيد أن نذكر أن مدينة دمشق في العصر الذي زارها فيه الإدريسي عرفت واشتهرت بصناعة الثياب الحريرية التي عرفت باسم الدمسك Damask لدى الأوروبيين، والدمسك من الملابس الزخرفية، وخصص لها سلة واحدة ولحمة واحدة، كلاهما من لون واحد، أو من لونين مختلفين، وتحدث الزخرفة بهذا النوع من المنسوجين من خلال أطلس من السداة، وأطلس من الفضة، في أجزاء الزخرفة من أجل تغطية وإخفاء خيوط السداة تحت ذلك عن ثياب الدمسك أنظر:

البدرى، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢١٤؛ نعمان قسطلي، الروضة الفناء في دمشق الفيحاء، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٢١؛ صلاح العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص ٦٩؛ روم لاندو، الإسلام والعرب، ت. منير البعلبكي، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٣٣٧.

Serjeant, Islamic Textiles, material for a History up to The Mongul Conquest, Beirut, 1972, p. 117.

(٤٣) الإدريسي، للمصدر السابق، ص ١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٥.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وبلاحظ أن من العوامل الهامة التي أدت إلى ازدهار التجارة في المدن الشامية الخاضعة للسيادة الإسلامية في الوقت الذي زارها فيه الإدريسي، ما نلاحظه من اهتمام الدولة النورية بابتعاث النشاط التجاري في الحواضر الشامية الكبرى؛ مثل دمشق، وحلب، وقد أدركت تلك الدولة الأهمية الكبيرة للنشاط التجاري من أجل تدعيم ميزانيتها، حتى تستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، ولذلك سعت ما وسعها السعي نحو تنشيط حركة التبادل التجاري بين بلاد الشام والأقاليم المجاورة، ومن أمثلة ذلك، أن نقش باب شاغور الذي يعود إلى عام ١١٥٦ هـ / ١١٥٦ م، نجد فيه إعفاء وإزالة حق التسفير الذي كانت تحصل عليه الدولة على التجار المسافرين إلى العراق، والقادمين منها إلى دمشق حاضرة الشام للزعمرة تجارياً.

عن نقش باب شاغور أنظر :

Comps, Wiet, Sauvaget, Repertoire Chronologie d'epigraphie Arabe, T. IX, p. 16; Wiet, Notes d'epigraphie Syromusulmane, Syria, T. VI, Paris, 1929, p. ; Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, M.L.E.T III, Caire 1922, p. 453-454.

(٤٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٧.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر ص ١٥-١٦.

وهناك نص مشابه لما أوردته الإدريسي، قدمه لنا مؤرخ متأخر ألا وهو، العثماني (ق ١٨٨٠ هـ / ١٤٤٠ م) وقيمة نص الأخير، أنه يوضح ما ذكره الإدريسي وقلم التفاصيل الهامة بشأنه، وهو يقرر صراحة ضمن تناوله لتاريخ صفة، أن من توابعها بلاد الشقيف، ومرج عيون، وحدد قرية تسمى «لول»، ذكر إنه بها يخرج سمك صغير إذا أخذ في شهر فبراير (شباط) وتم استعمال الذكر منه، حيث توجد علامة مميزة له، نفع في الباء نفعا كبيرا، ويقرر العثماني، أن هذا النوع من السمك ذكره الأطباء في كتبهم، وعبروا عنه بسمكة صيدا، وقيل أنه بقرية من قرأها، غير أن ذلك المؤرخ يستترك ويذكر أنها في وقت من ضمن عمل الشقيف. عن ذلك أنظر : العثماني، تاريخ صفة، تحقيق يوتارد لويس، B.S.O.A.S., Vo. XV, 1953, ص ٤٨١.

(٥٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٧.

وكنيسة القيامة بنتها هيلانة أم الامبراطور قسطنطين وذلك في عام ٣٢٥م، فوق الجبلية، في اللوضع الذي تم اكتشاف ما يزعم بأنه الخشبة التي قيل إن السيد المسيح صلب عليها كما يعتقد المسيحيون، وقد قام الفرس - خلال غزوهم للمدينة المقدسة - بإحراقها وذلك في عهد كسرى عام ٦١٤م، كما أنهم أحرقوا كافة الكنائس والأديرة التي وجدت فيها، وتمت إعادة بنائها وذلك على يد الراهب مورسلس في عام ٦١٧م، وفيما بعد عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب بفتح بيت المقدس عام ٦٣٦م، لم يصب كنيسة القيامة بأذى، بل أنه رفض أن يصلى فيها حتى لا يتم تحويلها إلى مسجد، وقد قام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بتدميرها في مرحلة من مراحل عدائه لأهل اللغة، وعمل ابنه الظاهر من بعده على إعادة تعميرها، وعندما خضعت الكنيسة المذكورة لسيادة الصليبيين عملوا على زيادة الاهتمام بها وصارت محل توافد الحجاج الأوروبيين، ويلاحظ أن هناك من الرحالة المسلمين من وصف كنيسة القيامة من قبل الإدريسي، من ذلك أن الرحالة الفارسي ناصر خسرو أشار إلى ما بها من الزخارف العظيمة من الرخام الملون، والتقوش، والصخور، وتحتوي على عدد من الصور الدينية.

عن كنيسة القيامة أنظر :

ناصر خسرو، سفرنامه. ت. يحيى الخشاب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٧٤-٧٦.

Daniel, p.10.

فاروق عز الدين، القدس تاريخياً وجغرافياً، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص ٧٤-٧٥، عبدالمعالم عبدالرحمن خضر، التطور العمراني لمدينة القدس، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ١٢٩-١٣٠، عماد الدين خليل، فلسطين في الأب الجغرافي العربي، ضمن كتاب دراسات تاريخية، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ١٣٩، مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ١، ق ٢، ط. بيروت ١٩٧٥م، ص ٣٠١، فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ط. ت. جورج حناد وعبدالمعالم رافق، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ٤٠٥، شفيق جاسر، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين حتى الحروب الصليبية، ط. عمان ١٩٨٩م، ص ٧٤-٧٥، محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ١١.

(٥١) عن الكنيسة هيلانة ودورها في هذا الصدد أنظر :

Eusebius, Extraits from Eusebius Life of constantine, Trans. by John Bernard, P.P.T.S., Vol. I, London 1896, p. 11; Attwater, Apenguin dictionary of saints, London 1978, p. 166; Runciman, The pilgrimage to palestine before 1095, in setton, A History of the crusades, Vol. I, Pennsylvania 1952, p. 69, A History of The Crusades, penguin Books, Vol. I, London 1978, p. 39.

إسحق عبيد، قصة عشور القديسة هيلانة على خشبة الصليب، أسطورة أم حقيقة، مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس، م (١٧)، عام ١٩٧٠م، ص ٥-٢١، شفيق جاسر، المرجع السابق، ص ٧٤، هنري كتن، القدس الشريف، ت. نور الدين كتانة، ط. عمان ١٩٨٩م، ص ٥٨، حاشية (٢٠).

(٥٢) عنها أنظر :

The tinerary of the Bordeaux pilgrim, Trans. by Stewart, P.P.T.S., vol. I, London 1896; The pilgrimage of the Holy paula, by St. Jerome, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; The Letter of paula and Eustochium to Marcella about the Holy places, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. I, London 1896; Antonius Martyr, The Holy places visrted by Antonius Martyr, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. II, London 1896; A domnan of Lona, in Wilkinson, Jerusalem pilgrims before the Crusades, London 1977; Wilibald, Hodoeporicon, Tans. by Brownlow, in P.P.T.S., Vol. III, London 1892.

(٥٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٧.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠.

(٥٥) أنظر الفصول التالية من هذا البحث.

(٥٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) وقعت عين سلوان في وادي قلرون، وهو جزء من الوادي الممتد شرق بيت المقدس، وتعرف بالبركة الحمراء وتكتسب قلانة خاصة نظراً لما يقال من أن السيد المسيح عليه السلام قد أرسل رجلاً كفيفاً إليها، وأمره أن يختل من مائها، فعاد إليه بصره بإذن الله تبارك وتعالى. وقد قدم راييموندا جيل Raymond d, Aguillicrs تناولاً هاماً لعين سلوان وذكر أنها عبارة عن نبع كبير يتدفق مرة كل ثلاثة أيام، ويقرر السكان المحليون أنها تتدفق يوم السبت فقط، أما باقي الأيام فهي عبارة عن مستنقع، وقد ذكر أن التنافع الجنوبي العنيف من أجل شرب الماء جعل الكثيرين يلقون بأنفسهم في البركة، وقد تسبب ذلك في هلاك الكثير من الدواب، كذلك نجد أن الرحالة الألماني يوحنا الورزبرجي John of Wurzburg، قد ذكر أن عين سلوان؛ ليس لها مصدر للمياه سوى جوف الأرض، وعندما زار الرحالة اليهودي الأسباني بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela المدينة؛ أشار إلى تلك العين، وذكر أنه لا يوجد بها إلا أقل القليل من الماء، وتجدر الإشارة إلى أن المنهاجي السيوطي قد ذكر العديد من الفضائل الخاصة بها. عن عين سلوان أنظر :

ابن تحوكل، المصدر السابق، ص ١٧١، المقدسى، المصدر السابق، ص ١٧١، أبو العلا المعري، لزوم ما لا يلزم، ج ٢، ط. بيروت ١٩٦١ ك. ص ٤٦٨، ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٥٥، رايخوندا ايجيل، تاريخ الفرجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الاسكندرية ١٩٩٠ م، ص ٢٢٧، بنيامين التطيلي، الرحلة، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٥، ص ١٠٢، حاشية (٢)، للنهائجي السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ق ١، تحقيق أحمد رمضان، ط. القاهرة، ١٩٨٢ م، ص ٢١١-٢٢٤.

John of Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p.51.

فاروق عز الدين، المرجع السابق، ص ٥٣، مرمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣، عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤ م، ص ١٧، كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ط. عمان ١٩٨٢ م، ص ١٠٣، مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٨ / ق ٢، ط. بيروت ١٩٧٤ م، ص ١٥١-١٥٢، محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، ط. بيروت ١٩٨١ م، ص ٩٥.

(٥٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٦١) القديس لازاروس St. Lazarus، يظهره العهد الجديد على أن السيد المسيح قد أعاد إليه الحياة - وذلك بإذن الله تبارك وتعالى. بعد أن مات، وعاش لازاروس مع اخته مريم، ومرتا في قرية بيتاني بالقرب من بيت المقدس، ويقال إن قبره في قرية العازرية (بيت عنا) على قارعة الطريق المؤدية إلى أريحا Jerico. عن لازاروس أنظر :

يوحنا، الاصحاح (١١)، من ١ إلى ٥٢، الاصحاح ١٢ من ١ إلى ١١.

Bernard The Wise, The Tinerary of Bernard The Wise, Trans. by J.D. Bernard, P.P.T.S., Vol. III, London 1893, p.9; Attwater, Op. Crt., p. 216, p. 238.

مرمرجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ٢١٩، كامل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبدالله مخلص، ط. عمان ١٩٨٧ م، ص ١٩٣-١٩٤.

(٦٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٨. وعن المسجد الجامع في قرطبة أنظر :

المعري، نفع الطيب من خصن الأندلس الرطيب، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت

١٩٦٨م، ص ٥٦١، محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٠-٣٦، إبراهيم ياسر الدروي، عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص ٢٧٦-٢٨٧، السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ط. الاسكندرية ١٩٦١م، ص ٣٧٧-٤٠٠، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ٢٦٩، ٣٥٥.

والجدير بالذكر أن مساحة المسجد الجامع في قرطبة تبلغ الآن : الطول ١٨٠ م × العرض ١٣٥ م، المساحة : ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً. عن ذلك :

محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٢، أما للمسجد الأموي بدمشق فصاحته تبلغ : الطول ١٣١ م × العرض ٣٨ م، للمساحة : ٤٩٧٨ متراً مربعاً.

عن ذلك : محمد علي، الرحلة الشامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ٨٧.

(٦٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٨.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٦٣.

(٦٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٣.

(٦٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٦.

والجدير بالذكر، أن السامرة ينسبون إلى سبط يوسف، ويجعلون سبب إنشقاقهم عن باقي اليهود خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الأسباط، ويلاحظ أنهم يصفون أنفسهم على أساس أنهم «المحافظون»، على اعتبار أنهم حافظوا ولا يزالون على أدق الشعائر سواء في مجال العبادات أو الشريعة، ولعل أوضح مجالات الخلاف بين السامريين واليهود، موضع القبلة؛ إذ أن السامريين، يرون أن جبل جرزيم بمثابة الجبل المقدس، ويعتقدون أن عيد الفصح وقرابينه، لا تجوز إلا في هذا الجبل، الذي لا يتجاوز حدوده الجغرافية مدينة نابلس في الضفة الغربية لنهر الأردن. عن وجود السامرة في نابلس وعقائدهم أنظر :

ابن حوقل، للمصدر السابق، ص ١٧٢، اليقوي، كتاب البلدان، تحقيق دي جوه، ط. ليدن

١٩٦٧م، ص ٣٢٨-٣٢٩، الاصطخري، مسالك الممالك، تحقيق دي جوه، ط. ليدن

١٩٦٧م، ص ٥٨، أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلات، ط. باريس ١٨٣٨م، ص ٢٩٢-٢٩٣، شيخ الرهوة للمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهران، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص ٢٠١، كرد على، خطط الشام، ح ٦، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٢١٣-٢١٩، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٦١-٦٢، فضل الله فارس أبي حلقة، مختصر في الجغرافية، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص ١٥١.

(٧١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٦.

(٧٢) من أمثلة ذلك، دعم الموارنة في لبنان للوجود الصليبي، حيث عملوا كأدلاء ومرشدين، وكذلك كأطباء وتراجمة. واشتركوا في بعض المعارك الحربية لدعم الصليبيين ضد المسلمين عن ذلك بالتفصيل أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p.458; Salibi, The Maronites of Lebanon under the Frankish and Manlula rule R.E.A., T. IV, Année 1957, p. 289; Mayer, The Crusades, Trans. by Gillingham, Oxford 1972, p. 276; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 161; Churchill, The Druzes and Maronites, London 1862, p. 18.

هنري لامنس، تسيح الأبصار في ما يحوى لبنان من الآثار، ح ٢، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٥٥-٥٦.

(٧٣) الإدريسي، للمصدر السابق، ص ١٩.

وقد وقعت قلعة الخرابي في شمال غرب صافيتا وجنوب شرق قلعة للرقب، وهي جزء من قلاع الدعوة الإسماعيلية عنها أنظر :

ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان خميس، تطوان ١٩٥٨م، ص ٨٦، أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن ١٢م/١٦)، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٩٥.

(٧٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٩.

(٧٥) تسمى مصياف، أو مصياب، أو مصيات، أو مصياء، وقد وقعت فوق تل متدرج الانحدار في الشعاب الواقعة إلى الشرق من جبال النصيرية، وهي بالتالي وقعت إلى الجنوب من قلعة الرصافة وإلى الشرق كذلك من قلعة القدموس، ووصفت مصياف بأنها كانت محصنة تحصيناً بالغاً على نحو يثير العجب، وتتجسد فيها عملية استغلال للعالم الطبوغرافية، استغلالاً كاملاً، وهناك من

يقرر أنها وجدت منذ العهد البيزنطي، وفي العصر الإسلامي سيطر عليها فرع من الأسرة المرداسية. وقد حاصرها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وذلك في عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بسبب محاولة عناصر الاسماعيلية النزارية اغتياله، ولكن تم عقد الصلح بين الجانبين فتم رفع الحصار، وفي عام ٦١٥هـ/ ١٢٢٠م، تمت عدة إصلاحات بالقلعة وتجديدات وهذا ما تكشف عنه النقوش الأثرية التي عثر عليها بداخلها، وقد تعرضت قلعة مصياف إلى سيطرة المغول وذلك في عام ٦٥٥هـ/ ١٢٦٠م حيث أخضعوها لتفوذهم مرحلة من الزمن وقاموا بتخريبها، وكان سقوطها النهائي في قبضة المسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس في عام ٦٦٠هـ/ ١٢٧٠م. عن قلعة مصياف أنظر :

ابن القلانيس، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ٢٧٢، أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق قليب حتى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص ١٤٨، حاشية (٢)، جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي للقدس، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ٢١٩، حاشية (١)، مولا، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاء، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص ٨٨-٨٩.

Van Bercham, Epigraphie des Assassins, J.A., T. IX, Année 1897, p. 481.

بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، ح ٤، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٥٤٧-٥٥٦.

(٧٦) وقعت القدموس إلى الشرق من قلعة المرقب فيما بين قلعتي مصياف والكهف، وقد تمكن الاسماعيلية النزارية من الاستيلاء عليها، من صاحبها سيف الدين ابن عسرون، عام ١١١٣-١١١٢م/ ٥٠٦هـ، واستفادوا من موقعها، ضمن إقليم بانياس، من أجل مهاجمة المسلمين، والصليبيين، على حد سواء، وذلك من أجل تحقيق مصالحهم العليا. عنها أنظر :

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ح ٢، تحقيق سامي الدمان، ط. دمشق ١٩٥٤م، ص ٥١، ص ٢٥٢، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ح ٤، ط. القاهرة ١٩١٢م، ص ١٤٧، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ح ٣، ت. السيد الباز العريني، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٣٠٩، زكي نقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٥٠م، ص ١٢٣، برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ت. سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٧١م، ص ١٢٥، عبدالكريم حناملة، صلاح الدين الأيوبي وموقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام، الدارة، السنة (١٢)، العدد (٢)، سبتمبر ١٩٨٦م، ص ١٦٢.

(٧٧) وقعت العليقة إلى الشمال من قلعة للتيقة وجنوب شرق جبلة، عنها أنظر :
القلقشندي، المصدر السابق، ج-٢، ص ١٤٧؛ إلياس ديب، العقود الدرية في تاريخ المملكة
السورية، ط. بيروت ١٨٧٤م، ص ٩٢؛ سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط.
الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ٣١٦.

Le Strange, Palestine, p. 352.

(٧٨) وقعت للتيقة شمال قلعة الكهف إلى القرب من قلعة القدموس عندها أنظر :
ابن بطوطة، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٧٦؛ شيخ الرهوة، المصدر السابق، ص ٢٠٨؛
حارث تلمر، ستان وصلاح الدين، ط. بيروت ١٩٥٦م، ص ٧١.

(٧٩) وقعت قلعة الكهف جنوب قلعة للتيقة وإلى الشمال من قلعة الخواهي، عنها. أنظر :
القلقشندي، المصدر السابق، ج-٤، ص ١٤٧.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 200.

(٨٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص
٧١-٧٢؛ جوزيف نسيم يوسف، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، ط.
الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٦. العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط.
الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ٢٦٣.

(٨١) عن ذلك أنظر :

Fetellus, Description of the Holy Land, Trans. by J.R. Macpherson, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 39; Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in wright, early Travels in Palestine, London 1848, p. 83; John of Wurzburg, p. 21; Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans, by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. V, London 1896, p. 30; Peters, Jerusalem, The Holy city in the eyes of chronicles, visitors, pilgrims and prophets From the days of Abraham to the beginnings of modern Times, Princeton 1985, p. 328.

(٨٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٩.

William of Tyre, Vol. II, p. 81.

(٨٣)

إبراهيم خميس، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الدلوية والمسلمين في مصر والشام
(١١٩٣-١٢٩١م / ٥٨٩-٦٩٠هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة
الاسكندرية عام ١٩٨٧م، ص ٤٧.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 157.

William of Tyre, Vol. I, p. 81.

(٨٤)

محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، عام ١٩٨٤م، ص ٢٧٩. وعن هيئة النارية بصفة عامة أنظر :

Fetellus, p. 29; John of Wurzburg, p. 2; Benjamin of Tudela, p. 83; Theoderich, p. 30; Northup, The Knights Templars in The Holy Land (1118-1187), Thesis of master of Arts, University of California, 1943; Barber, The Trial of Templars, London; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1943, p. 269.

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص ١٠٦.

(٨٥) الإدريسي، للمصدر السابق، ص ١٧.

وعن تلك القلعة التي لا تزال بقاياها قائمة في طرابلس بشمال لبنان أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 194; William of Tyre, Vol., I, p. 454; Fedden, Crusader Castles, Beirut 1957, p. 24.

عمر عبدالسلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي، البيزنطي والحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٤٠٨؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص ١٥؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ٩٥؛ محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٣٩؛ سعيد برجاي، الحروب الصليبية في المشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٠٣.

William of Tyre, Vol. I, p. 454. (٨٦)

(٨٧) عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤٠٨.

(٨٨) ونسيهان، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٩، محمد محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٤٠؛

عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٦٠؛ عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤٠٨.

(٨٩) عمر عبدالسلام تدمري، المرجع السابق، ص ٤١١.

(٩٠) الإدريسي، للمصدر السابق، ص ٣.

(٩١) عن موقع قلعة عرقه أنظر :

أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ ابن

شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ح-٢، تحقيق سامي الدحان، ح-١، دمشق ١٩٥٤م، ص ٩٢، ابن شاهين، المصدر السابق، ص ٤٨، شيخ الرهوة، المصدر السابق، ص ٢٠٨، إلياس ديب، المرجع السابق، ص ٩٤، فيليب، دي طرازي، أصدق ما كان من تاريخ لبنان، ح-١، ط. بيروت ب-٢٥، ص ٢٥.

Nantet, Histoire de Leban, Paris 1963, p. 61; Stevenson, The Crusaders, p. 31;

Anonymous, The deeds of The Franks and other pilgrims, Trans. by Hill, (٩٢) New York, 1962, p. 83.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ط. القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٨٦.

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 83. (٩٣)

(٩٤) ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ١٦٢، ابن طاهر الأزدى، أخبار الدول للنقطعة، تحقيق أنثريه فريه، ط. القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٨٧، الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، تحقيق فهم شلتوت، ومحمد مصطفى، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٠، العبر في خبر من غير، ح-٤، تحقيق صلاح الدين للنجد، ط. الكويت ١٩٦٣م، ص ١٠.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 389. (٩٥)

(٩٦) عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٧١٤.

(٩٧) عن زلزال عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ أنظر :

الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تحقيق كلوركاهن T. B.E.O., VII-VIII, Année, 1957-1958، ص ١٢٨، الفتح البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فضيحة النبرلوي، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٤٧، ابن الأثير، الكامل، ح-١١، ط. بيروت ب-٢٥، ص ١٤٣، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٤٥، ابن العديم. المصدر السابق، ح-٢، ص ٣٣٠، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ح-٩، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص ٢٣٠، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ح-٥، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٦٦، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ق/١، ح-٨، ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١م، ص ٢٧٩-٢٨٠، المقرئ، إنباط الحفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ح-١، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٣١٨، الذهبي، دول الإسلام، ح-٢، تحقيق شلتوت وزميله، ط. القاهرة ١٩٧٠م،

ص ٧٨، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م (٤)، ح (١)، تحقيق الشماخ، ط. البيرة ١٩٧٦م
ص ٩٤-٩٥، ابن قاضي شهاب، المصدر السابق، ص ١٨٩.

William of Tyre, Vol. II, p. 370; Michael The Syrian, Chronicle, T. III, ed. by chabot, Paris 1910, p. 339; Rubricht, Geschichte des Kenigreichs Jerusalem, Innsbruch 1892, p. 348; Stevenson, The Crusaders, p. 348.

شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط. بيروت، ب-ت، ص ١١٨، سالم، دراسة
في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ط. بيروت ١٩٧٠م ص ١١٢، عماد الدين خليل،
نور الدين محمود وتجرته الإسلامية، ط. دمشق ١٩٨٧م ص ١١٨، أشتور، التاريخ الاقتصادي
والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ت. عبد الهادي أبو حبل، ط. دمشق ١٩٨٥م
ص ٢٨١، كرد علي، غرطة دمشق، ط. القاهرة ١٩٥٠م، ص ٢١٥، عبدالله يوسف الغنيم،
أسباب الزلازل وأخطائها في التراث العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٣٢)، ح (٢)،
ط. بغداد ١٩٨٤م، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٨) عن زلزال عام ١٢٠١م / ٥٩٧هـ أنظر :

ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ط. بيروت ب-ت، ص ٢٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية،
ح ١٣، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٧-٢٨، ابن نظيف الحموي، التاريخ للنصوري تلخيص
الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العبد دودر، ط. دمشق ١٩٨١م، ص ٢٥.

(٩٩) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٢٥١، ابن شداد الحلبي، المصدر السابق، ح ٢، ص ٩٥، ابن
بهاذر، فتوح النصر، ح ١، ورقة (١٠٩).

(١٠٠) الإدريسي، أنس المهج، ورقة (١٣٤).

(١٠١) عن موقع بفراس أنظر :

أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٥٨-٢٥٩، ابن عبدالحق البغدادي، مراض الاطلاع على
أسماء الأمكنة والبقاع، ح ١، تحقيق البجاوي، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص ٢٠٩، العمري،
التعريف بالمصطلح الشريف، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٩٥، الخالدي، المقصد الرفيع للنشأ، ورقة
(٩٢)، مرمجي الدومنيكي، المرجع السابق، ص ١٧٢.

Le Strange, palestine, p. 407; Runciman, Vol. II, p. 47.

(١٠٢) عاشور، الحركة الصليبية، ح ٢، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٦٩٣، حامد غنيم، الجبهة
الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ح ٢، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص ٦١.

(١٠٣) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٣ ابن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ح-٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٩٢، ابن العديم، بغية الطلب، ح-٢، ورقة (٢٢٩)؛ الحريري، الإعلام والتبيين، ورقة (١٥)، النهمي، دول الإسلام، ح-٢، ص ٩٦، محي الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ح-١، تحقيق محمد بحر العلوم، ط. النجف، ص ٣٥٤.

(١٠٤) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ٩٣.

(١٠٥) ابن عبد الظاهر، للمصدر السابق، ص ٣٢٦، عاشور، المرجع السابق، ح-٢، ص ١٠٢٦.

وبلاحظ أن ابن بهادر اعتقد أن ذلك تم في عهد الظاهر غازي صاحب حلب، أنظر المخطوط السابق، ح-١، ورقة (١١٣).

والواقع أن قوله ينطوي على مغالطة واضحة؛ ذلك أن الظاهر غازي قد توفي عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م (أنظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ح-٣، ص ٢٤١)، والخليفة ابنه الملك العزيز قام بذلك الدور.

(١٠٦) ابن عبد الظاهر، للمصدر السابق، ص ٣٢٥، النهمي، دول الإسلام، ح-٢، ص ١٧٠، للقرنزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ح-١، ق ٢، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص ٥٧١، ابن بهادر، المصدر السابق، ح-١، ورقة (١١٣)؛ عاشور للمرجع السابق، ح-٢، ص ١١٥٠، الظاهر بريس، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٧٣، للماليك دولة الإسلام، مجلة العربي، العدد (٢٧٧) لعام ١٩٨١م، ص ٥٧.

(١٠٧) محمود الحوري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٨٥-١٨٦. وعن مشكلة نقص العنصر البشري بصفة عامة أنظر :

Prawer, The Settlement of the latins in Jerusalem, Speculum, Vol. XXVII, pp. 449-503; Russell, The population of the crusader states, in setton, A History of the Crusades, Vol. V, Madison 1985, pp. 295-314; Fedden, Crusader Castles, p. 13

سيد عاشور، الحركة الصليبية، ح-١، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٢٢.

٢ - ياقوت الحموى

(٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)

يتعرض هذا الفصل بالدراسة؛ لأحد كبار الجغرافيين المسلمين، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)^(١). وقد قلم تناولاً هاماً لبلاد الشام وأوضاعها فى عصر الحروب الصليبية، وذلك من خلال قدرة على الملاحظة وبراعة الوصف مع ثراء التفاصيل المهمة، الأمر الذى سيتضح من خلال السطور التالية.

وياقوت الحموى؛ هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله^(٢)، ولد فى عام ٥٧٤ أو ٥٧٥هـ / ١١٧٨ أو ١١٧٩م^(٣)، وهو رومى الجنس والمولد^(٤)، وقد تم أسره فى إحدى المعارك الحربية وابتاعه أحد التجار ببغداد يسمى عسكر بن أبى نصر إبراهيم الحموى، وجعله فى الكتاب من أجل أن يتنفع به فى تجارته^(٥).

وحدثت خلافات بين ياقوت، ومولاه عسكر، على نحو أدى إلى عتقه عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م، وقد قام بإشراكه فى تجارته، وفى هذا المجال تم إرساله إلى أقاليم متعددة ومناطق نائية من أجل مباشرة النشاط التجارى، ثم فيما بعد؛ اشتغل بنسخ الكتب، واحترف الوراقة^(٦) وقد أفاده ذلك عندما اتجه إلى تأليف مؤلفاته.

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت فى مرحلة من مراحل حياته قد تأثر بأفكار الخوارج، وتعصب على الإمام على كرم الله وجهه، وعندما اتجه إلى دمشق عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، تناقش مع بعض من يتعصب للإمام فثار الناس عليه حتى كادوا يفتكون به، وعلى أثر ذلك غادر المدينة^(٧).

وقد ساح ياقوت في العديد من الأقاليم والأصقاع؛ فطاف في آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، وبلاد المغرب، وإيران، وبلاد ما وراء النهر^(٨)، واستقر في خوارزم (خبره حالياً)، وعلى أثر الغزو المغولي لها قام بمغادرتها واتجه إلى بلاد الشام. واستقر في حلب^(٩) حتى مات بها عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م^(١٠)، وهو في ذلك يتشابه مع أحد الرحالة المسلمين السابقين، ونعني به السائح الهروي (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م)، الذي توفي في تلك المدينة؛ التي عدت من حواضر شمال الشام الهامة والتي حرص الجغرافيون والرحالة المسلمون في ذلك العصر على القدوم إليها وتناولها في مؤلفاتهم.

وقد ألف ياقوت الحموي عدداً وافراً من المؤلفات على نحو يعكس علو مكانته العلمية، ومنها، معجم البلدان، ومعجم الأدياء، ومعجم الشعراء، والمشارك وضعاً والمفترق صعباً، والمبتدأ والمآل في التاريخ، وكتاب الدول، ومجموع كلام أبي علي الفارسي، والمقتضب في النسب يذكر فيه أنساب العرب^(١١).

ويرى أحد الباحثين أن «الصفة الغالبة على القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي هي اتعلم الخلق في الفكر العربي، واهتمام العلماء والأدباء بوضع موسوعات، ومعاجم، تتناول جهد الأسبقين في مختلف الموضوعات والبحوث، ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا الصنف هو ياقوت الحموي»^(١٢).

والواقع أن مثل هذا التصور يحوى مغالطة واضحة، وسوف توضح الصفحات التالية مدى قدرة ذلك العلم من أعلام الحضارة الإسلامية على التحليل، والنقد، والعرض الذكي لجغرافية العالم المعمور في ذلك العصر، ومن الإنصاف أن نقرر أن ياقوت الحموي ما هو إلا امتداد لبقرية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي الذي ظهرت فيه كوكبة من العلماء والمفكرين من كافة المجالات والعلوم، والفنون، وينصفه البعض عندما يقررون أنه يتميز عن كثير من المؤلفين من أبناء عصره بملكة النقد^(١٣).

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقم بتدوين أخبار تنقلاته، غير أنه ما شاهده في أسفاره، وما قام بجمعه من خزائن المشرق الإسلامى، والتي نهل منها، قد أفاده في تأليف مؤلفاته الجغرافية التي ألفها^(١٤).

وأهم المؤلفات الجغرافية التي ألفها ياقوت الحموى هي معجم البلدان^(١٥)، والمشارك وضعاً والمفترق صفحاً^(١٦)، وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب الأول، قد رتبته أبجدياً، وأورد فيه وصفاً حيوياً، وهاماً لكل ما أمكن أن يصل إليه علمه عن المدن، والمواضع من ديار الإسلام من الأندلس غرباً إلى بلاد ما وراء النهر، والهند شرقاً، كما كانت عليه تلك المناطق في القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى^(١٧).

ولكى ندرك عظم شأن هذا الكتاب، نعرف أنه وقع في ثمانى مجلدات، وبلغت أعداد صفحاته (٣٨٩٤) صفحة، أما الشواهد الشعرية فيه فإنها بلغت ٥٠٠٠ بيتاً من الشعر^(١٨). ويقيمه البعض على أنه اشتمل على الدين، والحضارة، والإنثولوجيا Ethnology أى علم الأعراق والفصائل البشرية، والأدب الشعبى Folklore، والأدب الفنى، وذلك فى القرون الستة الأولى من الهجرة^(١٩)، وهكذا يمكن أن تتفق مع ما قلره البعض، من أن معجم البلدان، يعد منجماً غنياً للمعرفة، ولا يوجد له نظير فى سائر اللغات^(٢٠).

ولا نزاع فى أن هذا الكتاب يعد وبحق ثمرة جهد ضخم، قام به المؤلف فى الارحجال، وكذلك المطالعة، ثم تسجيل كل ما وصل إلى علمه عن المناطق التى أشار إليها فى معرض كتابه، وهكذا، فلا عجب إذا ما عرفنا أنه قد بدأ فى تأليفه عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م، وأتمه عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م^(٢١) أى أن قرابة عشر سنوات استغرقها فى إعداد تلك الموسوعة الجغرافية الهامة، وتعنى بها «معجم البلدان».

وهناك ناحية هامة يمكن أن نقررها بشأن ياقوت الحموى، ألا وهى أن ثقافته كانت ثقافة شخصية أى أنه لم يتلق من خلال الشيوخ، ولكن عن طريق الجهد

الشخصي، وقد أفاد من النسخ والمتاجرة بالكتب في أمهات المدن الإسلامية، في كافة أنحاء العالم الإسلامي، ومن هنا كانت ثقافته الواسعة التي ضمنها كتابه معجم البلدان على نحو خاص بالإضافة إلى مؤلفاته الأخرى بطبيعة الحال.

وبلاحظ أن قيمة ذلك الكتاب أيضاً تتمثل في أنه يعكس - صورة ضمنية - ثراء مكتبات المشرق الإسلامي، خاصة قبل أن تدمر على أيدي جيوش المغول، ولا ننسى أن ياقوت كان شديد الاعتزاز بمكتبات مرو، وقد امتدح محتوياتها، أو أنه استعار منها مئات المجلدات لازمت داره^(٢٢)، دون أن تتأثر - على ما يبدو - باستعارة ذلك العدد الضخم من المؤلفات، ومن جانب شخص واحد، فقط. على نحو عكس ثراءها بأضعاف ذلك العدد من الكتب.

أما الكتاب الثالث، فهو المشترك وضعاً والمفترق صعباً؛ وفيه يحدد ياقوت الأسماء الجغرافية الواحدة الموجودة في أكثر من إقليم، وقد عكس ذلك مدى براعته، وتفوقه في هذا المجال، في عصر كان التوصل فيه إلى مثل تلك المعلومات الجغرافية لا يتم إلا بالارتحال، والانتقال بالدواب، ومجالسة العلماء مع ملاحظة تآثرهم في مناطق متباعدة ومتباعدة مع إتساع رفعة الدولة الإسلامية حينذاك.

أما المصادر التي استقى منها ياقوت مادة مؤلفاته الجغرافية، فهي مؤلفات الأقدمين الجغرافية، وكذلك مؤلفات المسلمين ولاسيما كتب الرحلات، وأيضاً دواوين الشعراء، هذا بالإضافة ما شاهده هو نفسه، وما سمعه من التجار، والعلماء، وأهل البلاد التي ساق فيها^(٢٣).

وفيما يتعلق بمصادره عن بلاد الشام على نحو خاص، نجد أنه أفاد من مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين الذين زاروا للمناطق الشامية، مثل السمعتي^(٢٤) (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م) والسائح الهروي^(٢٥) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) وغيرهما، بالإضافة إلى عنصر المشاهدة الشخصية؛ وهي هامة للغاية بالطبع. إذ أن تناول المدن التي

تعرض لها تبين لنا كيف أنه احثك بها، وكون رأيه الشخصي عنها من خلال اتصاله بها مكاناً وسكاناً. وعلى مدى زمني ليس بالقصير على نحو ممكن من تكوين رؤية واقعية للمواقع التي أورد ذكرها وكان قد اتصل بها من قبل.

وبالاحظ أن ياقوت قد تعرض للعديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فمن ذلك تناوله لمدن الساحل الشامي، ذات الأهمية الخاصة، وكذلك الوضع السكاني للمدن الشامية، والجوانب الاقتصادية سواء مصادر المياه، أو الأنشطة الزراعية والصناعية، والتجارية، ثم العمارات الحربية والمزارات الدينية، ولا ريب في أن تعدد كافة تلك العناصر التي نعرض لها ذلك الجغرافي، تعكس مدى اهتمامه ببلاد الشام، وعنايته بها من خلال ما ألف، وإدراكه لضرورة أن يتعرض لها بذلك القدر الوافر من التفاصيل الهامة.

أما إذا ما نظرنا إلى تناول ياقوت الحموي للساحل الشامي، فإننا نجده يعطيه أهمية خاصة في معجم البلدان، ويتضح ذلك بجلاء من تناول العديد من المدن الساحلية الشامية، وبصفة عامة نجده يحرص الحرص أجمعه على أن يتعرض لتاريخ المدن الهامة منه، من أجل أن يمزج بين التاريخ والجغرافيا؛ تدعيماً لوجودها، وتأكيداً لأهميتها، وإثباتاً - على ما يبدو - للعلاقة الوثيقة بين علمي التاريخ والجغرافيا الذي يكمل كل منهما الآخر.

ونجد المثال الجلي الدال على ذلك؛ في صورة مدينة عكا؛ إذ أنه قدم لنا تناولاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها، وذلك في عام ٤٩٧هـ / ١١٠١م، ثم استمرار السيطرة الصليبية عليها حتى استطاع المسلمون في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي انتزاعها، وذلك في عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٢٦) في أعقاب الانتصار على الصليبيين في ذلك العام، ثم يفرض لجهود الصليبيين حيالها خلال الحملة الصليبية الثالثة، وإخضاعهم لها مرة ثانية بعد معارك طاحنة.

وفي مجال مدينة عكا، نجد أن ياقوتاً لا يخفى إعجابه بها إذ أنه يقرر أنها «من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها»^(٢٧)، وتدل عبارته على أن العمران الذي كان قد شاهده من قبل الإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٢م)، من المرجح أنه قد ازداد بصورة واضحة فيما بعد، حتى أن ياقوت الحموي عندما زار عكا، وجدها أكثر عمراناً وحسناً، مع ملاحظة أنه لم يجعلها أحسن بلاد الساحل قاطبة، بل أنها من أحسن البلاد. وفي هذا دلالة وضاحة على أن هناك مدناً أخرى إلى جانب عكا، حققت درجة كبيرة من العمران والازدهار، على نحو جعل ياقوتاً يذكر الأمر بمثل هذه الصورة، مع ملاحظة أن عكا في ذلك الوقت كانت خاضعة للسيادة الصليبية، وأنها مثلت القلب التجاري للكيان الصليبي وذلك إلى جانب بيت المقدس التي مثلت القلب الديني أو الروحي، مع ملاحظة أن المدينة الأخيرة كانت لاتزال خاضعة للسيادة الإسلامية حتى زمن وفاة ياقوت.

أما مدينة عسقلان؛ فإنه حدد موقعها على اعتبار أنها على ساحل البحر، بين غزة وبين جرير، وتوصف بأنها عروس الشام مثلما يطلق نفس اللقب على دمشق حاضرة الشام الكبرى. وقد قام لنا عرضاً تاريخياً لسيطرة الصليبيين عليها في عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م إلى أن استردها المسلمون من قبضتهم عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بعد جهد^(٢٨)، ولكن فيما بعد ضربها صلاح الدين الأيوبي؛ وذلك في عام ٥٨٧هـ / ١١٩٢م، ومن الواضح أن ذلك جاء تنفيذاً لخطط عسكري محدد حتى لا تقع في قبضة الصليبيين ويتقروا بها.

ونجد ياقوت يتناول مدينة صور اللبنانية فيشير إلى حصانتها، وأنها داخلة في البحر مثل الكف، وأنه يحيط بها من جميع جوانبها إلا أحد الأقسام، وقد أشار إلى أنه لا يمكن إخضاعها إلا بالخدلان^(٢٩)، ثم يقدم لنا نبذة عن تاريخها وسقوطها في قبضة الصليبيين عام ٥١٥هـ / ١١٢٦م، وأشار إلى أنها لاتزال في قبضتهم^(٣٠). ونفس الأمر

بالنسبة لأرسوف التي وقعت على ساحل البحر بين قيسارية ويافا وتناول خضوعها لسيطرة الصليبيين عام ٤٩٤هـ / ١١٠٠م، وهي في زمانه لم تزل في قبضتهم^(٣١) كجزء من إحكام سيطرتهم الحربية على الساحل الشامي ذي الموقع الاستراتيجي. أما بيروت، فهي عنده من أعمال دمشق، ويتحدث عن خضوعها للصليبيين عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م، إلى أن استردها المسلمون في عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٣٢). أما فيما يتعلق بانطربوس^(٣٣) وبلنياس^(٣٤)، نجد أنه يكفي بتحديد موقعهما الجغرافي دون أن يقدم لنا جانباً عن تاريخهما، وسيطرة الصليبيين عليهما، على الرغم من أهميتهما بوصفهما منافذ بحرية للمدن البرية الداخلية الحيوية.

ونخلص من العرض السابق، أن ياقوت الحموي عندما كان يدرك أهمية مدينة معينة، كان يمزج التاريخ والجغرافيا معاً خاصة من خلال تناوله للصراع الإسلامي/الصليبي بشأنها، والعكس بالنسبة لبعض المدن الأخرى التي لم ير فيها ذات الأهمية.

ومع ذلك فإن تناوله للساحل الشامي لا نجد فيه الأبعاد الاقتصادية لاسيما التجارية، وهي أساسية للغاية عند تناول ذلك الامتداد الطولي الفريد استراتيجياً واقتصادياً بالنسبة لاقتصاديات بلاد الشام، وعلاقات الوجود الصليبي بالغرب الأوروبي حينذاك وعلاقاته بالكيان الإسلامي ذاته.

ومن جهة أخرى، نجد أن ياقوت الحموي يقدم لنا إشارات هامة عن الوضع الديموغرافي أو السكاني لبعض المدن الشامية في عصره، من حيث كثافتها الكبيرة وازدحامها بالعنصر البشري، أو عكس ذلك، ونجد مثلاً دالاً على الحالة الأولى من خلال تناوله لدمشق حيث أوضح أن كثرة أهلها وبالتالي فإن هناك «أزمة» في الإسكان بها، فيشير صراحة إلى أن «المساكن بها عزيزة»^(٣٥) والسبب في ذلك من وجهة نظره هو «كثرة أهلها، والمساكنين بها، وضيق رفعتها»^(٣٦)، ومن المنطقي أن نلاحظ أن إفساح عمران دمشق، وتزايد أعداد سكانها ارتباطاً معاً ارتباطاً وثيقاً، وينبغي ألا نتصور أن تعبيره

بشأن ضيق رقعتها، يعنى أنها كانت مدينة صغيرة إذ أن أوصاف الجغرافيين المسلمين الآخرين على امتداد القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م؛ تنفى ذلك التصور البتة، بيد أن المقصود بمقولته أن التزايد السكاني بها استمر بصورة تفوق المعروض من مساكن للأهالي، ومن ثم فإن المساكن بها عزيزة على حد قوله.

وكنموذج للحالة الثانية نذكر مدينة على الساحل ونعنى بها قيسارية، إذ أن ياقوتا يشير إلى أنها كانت فى السابق كثيرة الخير والأهل، ولكنها فى وقته ليست كذلك^(٣٧)، وهذا عنى أن بعض المدن أحياناً اضطربت أوضاعها على نحو انعكس على بنيتها السكانية بصورة متدهورة.

وهناك ناحية هامة أخرى يورد ذكرها ياقوت الحموى خاصة بالجانب العمرانى، فمن الملاحظ أنه لا يوضح العمران بالنسبة لداخل المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، بل إنه يتعرض للعمران الريفى، واتساع نطاقه حول بعض المدن الأخرى.

ومن أمثلة ذلك؛ أنه يقرر أن هناك فى حلب، ثمانمائة، ونيّف، وعشرون قرية، ملك لأهلها، ونحو مائتين ونيّف قرية مناصفة بين الرعية والسلطان^(٣٨)، والأمر المؤكد أن ذلك التحديد الدقيق الذى قدمه ياقوت فى أعداد القرى، والتى بلغ عددها نحو ألف قرية، جاورت وأحاطت حلب، يدل على دقته من ناحية، ويدل أيضاً على النمو السكاني على المستوى الريفى فى بلاد الشام فى ذلك العصر. وإشارته فى هذا المجال تعكس تشابهها مع رواية متماثلة قدمها الإدريسي عن الضياع الموجودة فى غوطة دمشق، على نحو يفيد فى تصور الامتداد الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى مع ملاحظة الفاصل الزمنى بين وقت قيام الإدريسي بزيارته إلى هناك وكذلك الأمر بالنسبة لياقوت.

ولا نزاع فى أن ذلك الجغرافى، وجد من الضرورة بمكان إيراد مثل تلك الأرقام؛ من أجل تأكيد ثراء تلك المدينة، ومن خلال موقعها الهام على المستوى التجارى لا نستبعد صحة تلك الأرقام، وحيث أنه استقر فى حلب وعاش فيها عدة سنوات فى

آخرى من حياته، فمن ثم له مثل تلك المعلومات الدقيقة بشأنها على نحو دعم روايته في هذا الصدد.

وهكذا، يمكن القول إن ذلك الجغرافى، كان شاهداً على مدى إتساع حلب، وزيادة عمراتها الحضري في ذلك العصر شأنها في ذلك شأن باقى حواضر الشام الكبرى التى سارت ذات المسيرة العمرانية على ما هو متوقع وإن كان بنسب متفاوتة.

ويضاف إلى ما سبق، أن ياقوت الحموى كانت له رؤيته الاقتصادية من خلال تناوله لمصادر الثروة المائية والنشاط الاقتصادى، ونجد أن ذلك الجغرافى، قد أعطى اهتمامه لمصادر المياه في بلاد الشام، سواء الأنهار، أو الأمطار، أو العيون، والينابيع، وفي هذا المجال نجده يذكر أن دمشق بها مياه الأنهار وافرة، ونجده يشير إلى نهر بردى ومخرجه من قرية يقال لها فتوة من كورة الزبداني، وتبعد خمسة فراسخ عن دمشق، وقد أعجب ياقوت بجريان الماء في قنوات دمشق، وفي ذلك يقرر أنه ندر أن يمر للمرء بحائط إلا ويجد للماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض من أحواض الشرب، ويسقى الوارد والصادر^(٣٩).

أما في حلب، فهناك نهر قويق^(٤٠)، أضف إلى ذلك، نهر العاصى، ويجعله نهر حماة وحمص، ويوضح أن له أسماء متعددة، فهو يعرف بالميماس، أما قرب أنطاكية فاسمه الأرند، أما اسم العاصى فسبب ذلك - في تقديره - أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب، أما ذلك النهر، فيتجه نحو الشمال^(٤١)، وإن كان من المعروف أن الجغرافيين المسلمين قد أطلقوا ذلك الاسم عليه لأنه يعصى أمر المسلمين، ويدخل ديار الكفار، أما طرسوس، فعندها نجد نهر البردان.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك بحيرة قلنس، وهى بين حمص وجبل لبنان، وتنصب إليها مياه تلك الجبال، ثم تخرج منها لكى تصبح نهراً كبيراً ألا وهو نهر العاصى السابق الذكر^(٤٢)، كما أن هناك بحيرة طبرية وهى تحيطها الجبال، وتنصب فيها فضلات عدة أنهار كثيرة، تجتمع من ناحية باتياس، والساحل، والأردن. وقد قرر ياقوت أنه رآها مرات

عديدة. ولا أدل على ذلك من أنه قرر أن ماءها عذب صالح للشرب بيد أنه ليس بصادق الحلاوة ثقيل^(٤٣). ومن ناحية أخرى وصف سمكها وأوضح أن مذاقه لا يعجب إلا أهل طبرية، وفي هذا قدرة كبيرة على تحسين مظاهر المكان الذي يمر به الجغرافى بحيث يجعله عى مرأى بصر القارئ، وتوضيح تباين المشاعر النفسية حيال الأماكن باختلافها.

ويضاف إلى الأنهار، والبحيرات، مياه الأمطار، ومن أمثلة المناطق التى تعتمد على مياه الأمطار يذكر معرة النعمان، وكذلك مدينة بيت المقدس، وفي المدينة الأخيرة يقرر أن أهلها يعتمدون فى شربهم على مياه الأمطار^(٤٤)، كما أن بها ثلاث برك عظيمة، هى بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان عليه السلام، وبركة عياض، وعلى تلك البرك توجد حمامات أهلها^(٤٥)، ونفس الأمر يتكرر فى مدينة أخرى، ألا وهى معرة النعمان التى تعتمد أيضاً على الأمطار^(٤٦) فى شرب أهلها وكذلك فى رى مزروعاتها.

ومن جهة أخرى، قدم ياقوت الحموى مادة علمية هامة عن النشاط الاقتصادى فى المدن الشامية الكبرى، لاسيما تلك الخاضعة للسيادة الإسلامية، ومن الجلى البين أن عمل ذلك الجغرافى فى المجال التجارى قد أفاده بصورة واضحة فى اهتمامه الشخصى بذلك النشاط فى المدن الشامية المختلفة من خلال خبرته العريضة التى تكونت على مدى عدة أعوام عندما كان ياقوت الحموى يعمل فى تجارة مولاة عسكر. وهذه الناحية - بصورة خاصة - تميز ياقوت الحموى عن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ لا أعلم أن أحداً منهم عمل فى التجارة قبل تصديه للتأليف فى المجال الجغرافى مثله. وهو أمر نجده لدى أحد جغرافيين القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى من المسلمين ونعنى به الجغرافى ابن حوقل النصيبى (ق ٤هـ / ١٠م) مؤلف كتاب صورة الأرض الذى وصف بأنه كان تاجراً هو الآخر بما انعكس على كتاباته الجغرافية ذاتها.

والجدير بالذكر، أن ياقوت الحموي على حين اهتم بإبراز النشاط التجارى للمدن الإسلامية، فإنه أغفل ذلك فيما يتصل بالمدن الخاضعة لسيطرة الصليبيين، على نحو يدعونا إلى افتراض التصور بأنه على حين دخل المدن الأولى وعاش فيها مدة زمنية كافية، فإنه على ما يبدو لم يدخل المدن الخاضعة لسيطرة القوى السياسية الصليبية يمثل تلك الصورة، وإن مر بها فإنه لم يقم بها بنفس الدرجة التى وجدناها له فى المدن الإسلامية.

مهما يكن من أمر، ففى المجال الاقتصادى بصفة عامة، نجد يشير إلى الناحية الزراعية، وقد أوضح - على سبيل المثال - أن مدينة حلب عرفت زراعة عدد من المحاصيل الزراعية مثل القطن، والمشمس، والبطيخ، والخيار، والدخن، والكروم، واللوز، والمشمش، والتين، والتفاح، وذلك اعتماداً على مياه الأمطار^(٤٧). ويقدم رؤيته النقدية للأمر بعقلية التاجر الذكى، عندما يقرر أن الإنتاج الزراعى بها من تلك المحاصيل يتفوق ما يتجع اعتماداً على المياه التى تأتى من مصادر أخرى غير مياه الأمطار^(٤٨).

أما على المستوى التجارى، فنجده يتبع الأسواق التى فى العديد من المدن الشامية، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن أسواق حماة، وخصبة الأسعار متسعة فى رقعتها. وبظاهر السور المحيط بحماة حاضر متسع للغاية فيه أسواق عديدة^(٤٩)، كما ذكر وجود أسواق حسنة فى كفر سوت من الأعمال الحلبية بالغرب من منطقة تسمى يهسنا^(٥٠)، أما بيت المقدس فيرى أن أسواقها كثيرة^(٥١)، دون أن يذكر صفة أخرى مميزة لها. مع ملاحظة أن وضعها كمدينة مقدسة للأديان الثلاثة أفاد دورها التجارى، كذلك ذكر سوقاً يعقد بصفة سنوية، وهو السوق الذى يعقد عند جبل الطور، الذى يطل على طبرية، وإن لم يحدد إن كان ذلك السوق شهرياً أو موسميّاً.

زد على ذلك، أنه قدم إشارات هامة عن حجم التعامل النقدى فى مدينة حلب بشمال الشام، مع ملاحظة أن تلك المدينة على نحو خاص احتلت موقعاً متميزاً من

الناحية الاقتصادية التجارية بحكم أنها تمثل مفتاح شمال الشام، وواقعة على خطوط التجارة التي تربط شمال الشام بشمال العراق؛ ناهيك عن قربها من الأسواق التجارية في آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أنها واقعة على امتداد خطوط التجارة القادمة من شرق ووسط آسيا، وتصب في شرق البحر المتوسط؛ حيث يتم تصريفها إلى الأسواق التجارية الأوروبية^(٥٢).

ولا ريب في أن مدينة ذلك هو طابعها التجاري؛ من المنطقي تماماً أن تحظى باهتمام جغرافي تاجر طاف العديد من الأقطار والبلدان مثل ياقوت الحموي، وفي هذا المجال ذكر أن من عجائبها أن في قيسارية البر عشرين دكاناً للوكلاء، ويقومون بالبيع كل يوم متاعاً، مقداره عشرون ألفاً من الدنانير، والأمر مستمر على ذلك منذ عشرين عاماً، حتى زمان ياقوت^(٥٣)، ومعنى ذلك أن تعامل تلك القيسارية بمفردها يبلغ شهرياً ٦٠٠,٠٠٠ دينار أي ما يزيد على النصف مليون من الدنانير، فإذا ما لاحظنا أن هناك قياسر أخرى في تلك المدينة، لبيع سلع ومنتجات أخرى، لأدركنا حجم الثراء الضخم الذي حظيت به تجارة تلك المدينة على نحو خاص.

والجدير بالذكر أن ياقوتاً اختص مدينة حلب بتلك الإشارة الهامة، الأمر الذي لم نجده بالنسبة لتناوله للمدن الشامية الأخرى، على نحو يعكس دلالات هامة. وبميز تلك المدينة على غيرها من المدن التي تناولها في كتابه ووقعت ضمن النطاق الشامي.

من ناحية أخرى، نجد أن ذلك الجغرافي لا يكتفي بتوضيح ظاهرة معينة، بل إنه يسعى ما وسعه السعي، نحو تحليل تلك الظاهرة قسراً الاستطاعة، ويبحث في أسبابها ودوافعها، ومن أمثلة ذلك تحليله الواعي لتفوق مدينة حلب على نحو خاص في المجال التجاري، وفي هذا الصدد نجده يقرر أن أهلها لهم عناية خاصة بشمير الأموال، وأنهم يتوارثون تلك الصفات بصورة كبيرة، فقل من أهلها من لا يكون على ذلك الحال. وكنيتجة طبيعية لذلك الوضع، نجد أن حلب تسودها ظاهرة الأسرات التجارية العريقة

المعروفة، وفي ذلك يقرر أمر «بيوتات قديمة معروفة بالثروة»^(٥٤) ويحرص الأبناء في المحافظة على تراث الآباء، ويقرر يا قوت نفسه، على الرغم من أنه مر في أقطار متعددة إلا أنه لاحظ ذلك في مدينة حلب؛ على نحو يخالف ما وجدته في سائر البلاد^(٥٥).

ويبدو أن تحليل يا قوت الواعى لتفوق تلك المدينة على نحو خاص في المجال التجارى، ساعده عليه إقامته بها ومعرفة الوثيقة بما يحدث فيها، ومن ثم قدم لنا ذلك التحليل، وهو يكشف لنا عن قدرة عميقة على الاستقصاء والتحليل، وبالتالي فليس من السهل قبول آراء بعض المتحاملين عليه الذين حاولوا النيل من جهده العلمى، وصفه بأنه مجرد جماع دون أن يتكرر، إذ أن مثل تلك الجوانب في كتابه تكشف عن عقلية محللة ناقلة لا ترصد الظواهر فقط بل تتجه نحو تحليلها. وبالتالي يمكن أن نعتبره جغرافياً ذا نزعة عقلية محللة لا ناقلة دون وعى. إذ أن نصوص معجم البلدان تنفى ذلك التصور وترفضه وتدعم نقيضه.

ويضاف إلى الجوانب السابقة، أننا نجد أن يا قوت الحموى، قد حرص على إبراز العديد من القلاع والحصون التى انتشرت فى كافة أنحاء بلاد الشام، ولعبت أدواراً تاريخية هامة فى عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين. وفى هذا المجال تناول بالحديث قلاع الصليبيين الحصينة التى كانت بمثابة شوكة فى جنب المسلمين، كما أنه أشار إلى قلاع الآخرين، وكان تناوله فى هذا الصدد أوفر حظاً من تناول الإدريسى.

أما بالنسبة للقلاع الصليبية، فقد تفاوتت إشاراتته بشأنها بين الإطالة والقصر، وذلك وفق أهمية القلعة، ودورها فى الصراع الإسلامى / الصليبي، وعندما كان يلاحظ أهمية الدور الذى لعبته إحدى القلاع كان يلجأ إلى الزاوية التاريخية من أجل أن يوضح للقراء أهمية تلك القلعة فى ذلك الحين، ويؤصل دورها على المستوى التاريخى.

أما أمثلة الإشارات المفصلة بشأن القلاع، ما ذكره فيما يختص بقلعة صهيون^(٥٦)، وقد أشار إلى حصانتها وأوضح أنها من أعمال حمص، وفى طرف جبل،

وخنادقها أودية واسعة عميقة، ولا يوجد بها خندق مخفور إلا من جهة واحدة، ويبلغ طوله ستون ذراعاً، ومخفور في الجبل، ولها ثلاثة أسوار، وقد سيطر عليها الصليبيون إلى أن أخضعها المسلمون بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م، ولم تزل قلعة صهيون في أيدي الصليبيين حتى وقت كتابة ياقوت الحموي لمعجم البلدان^(٥٧).

ويلاحظ أن ما أورده ياقوت عن قلعة صهيون، هو إجمال ما نعرفه عن تلك القلعة التي لعبت دوراً هاماً في عصر الحروب الصليبية، وقد اشتملت إشاراته في هذا المجال على موقعها، وحصانتها، وتكوينها المعماري ثم تاريخها في ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة صهيون، عرفت بعدة أسماء، فكان الصليبيون يسمونها سايون Saone^(٥٨)، أو قصر ساون^(٥٩)، وهناك تسمية لها مازالت حتى الآن موجودة وهي، قلعة صلاح الدين الأيوبي^(٦٠).

وعدت قلعة صهيون من أعمال حمص، وهي تطل على مدينة اللاذقية، حيث وقعت بينها وبين حماة^(٦١)، وتمتعت بموقع استراتيجي هام، إذ أنها كانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية، المؤدية إلى إمارة أنطاكية الصليبية^(٦٢).

وامتازت بأنها وقعت على طرف جبل له أودية واسعة عميقة^(٦٣)، كما وصفت بأنها كانت شاهقة الارتفاع^(٦٤)، وقد حفر الصليبيون من حولها خندقاً بلغ عمقه ثلاثين متراً، وعرضه اثني عشر متراً، وأحاط بها عدة أسوار كما جهزت بأدوات القتال المختلفة^(٦٥). واحتوت على نظام السقاطات^(٦٦). وكان لكل ذلك أثره في اعتقاد الكثيرين بصعوبة اقتحامها^(٦٧).

ويلاحظ أن قلعة صهيون؛ سيطر فرسان الاستبارية عليها، وقد حاصرها المسلمون في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتمكنوا من إسقاطها، وذلك في جمادى الآخر عام ٥٨٤هـ / ٢٩ يونيو ١١٨٨م^(٦٨).

أما الإشارات الموجزة التي أوردها ياقوت الحموى عن القلاع الصليبية، فمن أمثلتها قلعة بيت جبرين، والتي لا يقدم عنها سوى أنها وقعت بين بيت المقدس، وعسقلان^(٦٩).

والجدير بالذكر أن قلعة بيت جبرين كانت تسمى بيت جبرين أو بيت جبريل، وعرفت من قبل باسم الثيروبوليس Eletheropolis^(٧٠)، وعرفت عند الصليبيين خطأ باسم Beursheba^(٧١). أى بحر سبع. وقد وقعت قلعة بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة، وكذلك بين بيت المقدس وعسقلان^(٧٢)، الأمر الذى أعطى لها موقعا استراتيجيا هاما.

ويلاحظ أنه فى خلال محاولة الصليبيين إسقاط مدينة عسقلان التى طالما قاومتهم، وشكلت حاميتها الفاطمية خطرا عليهم، حرص الصليبيون على تشييد عدد من القلاع الحصينة من أجل تسهيل مهمة إسقاط تلك المدينة، وكانت قلعة بيت جبرين واحدة من ثلاث قلاع تحت إقامتها خلال المرحلة من ١١٣٦ إلى ١١٤٩م^(٧٣) / ٥٣١-٥٤٤هـ، وهناك من يقرر أنه تم بناؤها عام ١١٣٤م^(٧٤) / ٥٢٩هـ. وقد عهد إلى الاستتارية بأمر قلعة بيت جبرين، وذلك فى عام ١١٣٦م^(٧٥) / ٥٣١هـ أى بعد تشييدها بعامين فقط، نظرا لاحتياج المملكة الصليبية للعون الحربى القوى، المقدم من جانب فرق الرهبان الفرسان مثل الاستتارية والداوية لمواجهة الخطر الإسلامى المتنامى حينذاك.

وقد وصفت قلعة بيت جبرين من جانب المصادر العربية بالحصانة^(٧٦)، على نحو تؤكد على مدى تاريخها ودورها فى قتال المسلمين، والدفاع عن المنطقة التى وجدت فيها.

ويلاحظ أن الفاطميين عملوا على مهاجمة القلعة المذكورة وذلك فى عام ١١٥٨م / ٥٥٣هـ، إذ قامت سرية من قوات الجيش الفاطمى بمهاجمتها، وغنمت

منها، وعادت بالتغنايم^(٧٧) كما تكررت تلك الهجمات، وعاد المهاجمون بالمغانم والأسلاب^(٧٨). وقد سقطت القلعة في عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ^(٧٩) وإن تمكن الصليبيون من استردادها فيما بعد إلى أن عادت للسيادة الإسلامية في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٤٤م^(٨٠) / ٦٤٢هـ.

ومن الإشارات الأخرى التي قدمها ياقوت الحموي عن القلاع الصليبية ما ذكره بشأن قلعة عرقة، وقد تناولناها بالتفصيل في موضع سابق من هذا البحث. وقد ذكر أنه على جبلها (أى عرقة) قلعة لها^(٨١).

كما تعرض ياقوت لقلعة صليبية هامة أخرى، ونعني بها قلعة المرقب، وقد قرر أنها تشرف على ساحل البحر وعلى مدينة بانياس، وعبر عن ضخامتها من خلال إشارته إلى أن كل من يراه يحدث نفسه بأنه لم يجد له نظيراً^(٨٢).

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة المرقب كانت تسمى في اللاتينية مركاثوم Marghatum، أما في الحوليات الصليبية فإتنا نجد الاسم كاستروم مارجاثوم Castrum Margatum^(٨٣)، وفي العربية مرقب؛ على اعتبار أن الأهلة منه ترقى وترقب^(٨٤).

وقد وقعت قلعة المرقب إلى الجنوب الشرقى من مدينة بانياس، بالغرب من ساحل البحر المتوسط، وبالتالي وصفت بأنها وقعت على ساحل جبلة^(٨٥) وبنيت القلعة المذكورة من أحجار سوداء قديمة، وفي ذلك تشابهت مع برج نور الدين محمود في دمشق الذى بنى أيضاً من الأحجار القديمة^(٨٦) واحتوت على أسوار مزدوجة تتخللها الأبراج المستديرة الشكل^(٨٧)، وامتازت الأبراج بالارتفاع الشاهق^(٨٨)، وفى داخلها وجدت كنيسة مربعة الشكل، وبسيطة فى تكوينها المعماري^(٨٩)، وكذلك كانت هناك الحمامات وصهاريج للمياه، ومخازن للمؤن، ويقال إنها كانت تكفى حاميتها لعدة سنوات. ومساكن عديدة تكفى لحامية صليبية قدر عددها بألفين من الرجال^(٩٠).

وبلاحظ أن ذلك القسم الذى احتوى على كافة تلك المرافق الحيوية قد وقع فى الجانب الجنوبي من القلعة^(٩١).

وقد حاول السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي إسقاط المرقب بمحاصرته عام ١١٨٨م / ٥٨٣هـ. بيد أن الجيش الأيوبي عجز عن تحقيق هدفه^(٩٢)، ويعبر أحد المعاصرين فى رواية له عن الموقف مبرراً لإياه بوصفه للقلعة على أنها «من حصونهم التى لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بتملكها نظراً لعلوها، وامتناعها»^(٩٣). كما حاول الظاهر غازي صاحب حلب إسقاط القلعة عام ١٢٠٥م / ٦٠٢هـ^(٩٤)، دون جدوى هو الآخر، وإن حصل من جراء عملياته على مغام وفيرة.

بيد أن سقوط المرقب كان فى عهد المنصور قلاوون فى عام ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ^(٩٥)، وهناك من يرى أن سقوطها كان فى عهد الظاهر بيبرس^(٩٦)، بيد أن ذلك لا يجد دعماً من المصادر التاريخية المعاصرة، واللاحقة، والكتابات الأكاديمية فى مجال القلاع الصليبية.

أما فيما يتصل بالقلاع الإسلامية، نجد أن ياقوت أشار إلى قلاع حلب، وحماة، والطور، أما قلعة حلب فنجد يصفها بدقة متناهية حيث شيدت على «جبل عال مدور صحيح التدوير»^(٩٧) والمدينة حول ذلك الجبل وللقلعة خندق كبير، ولها سبعة أبواب حدها بمسمياتها^(٩٨)، وأشار إلى التجديدات التى أقامها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وأنه عمل على حفر خندقها، وبناء رصيفها بالحجارة، غير أن المنية عاجلته؛ فلم يتمكن من إكمال مشروعه نحو تجديداتها^(٩٩).

وهكذا، فإن إشارة ياقوت الحموي فى هذا الصدد اقتضت على الجهد الذى قام به الظاهر غازي فى أمر تجديداتها؛ ولم يقدم لنا تناولاً للمراحل الأخرى التى مرت بها تلك القلعة فى المرحلة السابقة فى عهده.

والجنير بالذكر، أن قلعة حلب قد وقعت فوق مرتفع طبيعي بوسط المدينة، وكانت تتألف من برج أمامي، وبرج خلفي ضخم، ووجد خندق واسع عرضه ٢٦ متراً، تم حفره وأحاطها، ولها سفح يشرف عليه مصفح بالحجارة المنحوتة، وبصفة عامة تمتاز القلعة بمدخلها الحصينة التي تمثل أرقى ما وصل إليه فن التحصين الحربي في ذلك العصر^(١٠٠).

ومن الممكن ملاحظة أن البرجين سالفى الذكر، كان يتم الاتصال بينهما عن طريق جسر مائل فوق الخندق يقوم على ثمانى قناطر، واتصل بالبرج الأمامي عن طريق جسر خشبي متحرك^(١٠١).

وقد عمل الملك العادل نور الدين محمود على تدعيم قلعة حلب وشيد لها سوراً، ومسجداً^(١٠٢)، وفيما بعد، وفي العصر الأيوبي، نجد أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي غطى سفح الجبل الذي تقع عليه القلعة بالحجارة، وشيد بابها، وكان ذلك في عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣، ١٢٠٤م، وعمل له قنطرة، أو جسراً يمتد إلى حلب، كما أنه قام ببناء برجين على الباب، وجعل للقلعة خمسة أبواب، وشيد أماكن مخصصة للجنود وكبار موظفى الدولة^(١٠٣).

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة حلب قد تم ترميمها لاسيما فى عهد دولة سلاطين المماليك، وذلك فى خلال حكم قلاوون، وقايتباى، وقانصوه الغورى^(١٠٤).

أما قلعة حماة، فنجد أن ياقوتا لم يفصل الحديث بالنسبة لها واكتفى بأن أوضح أنه فى طرف المدينة توجد تلك القلعة، التى وصفها بالعظمة، وأنها متقنة العمارة^(١٠٥).

أما قلعة الطور؛ فقد أعطى لها أهميتها، إذ أنه ذكر أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، قام بينائها، وصارت قلعة حصينة، وقد أغدق عليها الأموال الوفيرة، وذلك من أجل أن يواجه الأطماع الصليبية الموجهة إلى المنطقة بعد رحيل السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبي، غير أن الأمور تطورت في عام ٦١٥هـ / ١٢١٩م، فعندما قدم الصليبيون إلى المنطقة، وأحس بالخطر، وخشى أن تسقط تلك القلعة في قبضتهم عمل على تخريبها^(١٠٦).

وهكذا، نجد أن ياقوت الحموي قد حرص على إبراز عدد من القلاع الصليبية، والإسلامية، من أجل توضيح دورها حينذاك، بيد أن معالجته اختلفت من قلعة إلى أخرى أو بصفة عامة تعد إشاراته عن قلعة صهيون كإحدى القلاع الصليبية، وقلعة حلب كإحدى القلاع الإسلامية نموذجاً للتفاصيل الهامة التي أوردها بشأن القلاع في ذلك العصر.

ويلاحظ أنه اهتم بإبراز التحصينات الدفاعية حتى للمدن الأخرى، من أمثلة ذلك أنطاكية التي أشار إلى أن سورها به ثلاثمائة وستون برجاً^(١٠٧)، ودل ذلك على اهتمامه بصفة عامة بإبراز التحصينات الدفاعية سواء لدى القلاع، أو لدى المدن الموجودة في بلاد الشام بصفة عامة. وكان من الطبيعي أن يتعرض لنموذج أنطاكية على اعتبار أن تلك المدينة على نحو خاص اشتهرت بمناعتها وحصانتها وقد تزايدت وتناثرت روايات مؤرخي الحروب الصليبية التي تعكس حصانة تلك المدينة على نحو خاص.

ومن جهة أخرى، تناول ياقوت جانباً هاماً عن بلاد الشام ونعنى به المزارات الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية. ومن أمثلة المزارات الدينية الإسلامية، للمسجد الأقصى^(١٠٨). وقد فصل الحديث بشأنه بيد أنه لم يخرج به عن حدود أوصاف الجغرافيين المسلمين السابقين، كما أن دمشق تحتوى على قبور لعدد من الصحابة والتابعين، من أمثلة ذلك ما يقال من أن قبر أم عاتكة أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنها موجود هناك، وكذلك قبر صهيب الرومي وأخيه^(١٠٩)، ويبدو أن ياقوت لم يكن يقبل فكرة وجود قبر أخت عمر بن الخطاب، بدليل أنه ذكر ذلك من قبيل الزعم، بالإضافة ذكره لجبل قاسيون وما به من القبور الخاصة بالصالحين^(١١٠).

زد على ذلك، أننا نجده يذكر وجود عدد من المشاهد والقبور في حمص، فيقرر أن بحمص مشهد الإمام على بن أبي طالب، كما أن بها دار خالد بن الوليد، وقبره فيما يقال، وكذلك قبر عياض بن غنم القرشي فاتح بلاد الجزيرة، وكذلك قبر زوجة خالد بن الوليد، وقبر ابنه عبدالرحمن، بالإضافة إلى مشهد لأبي الدرداء^(١١١).

وتجدر الإشارة إلى أن ياقوت لم يقبل فكرة دفن خالد بن الوليد في حمص، بل إنه ذكر أنه مات بالمدينة المنورة ودفن بها ويرى أن هذا هو الأصح^(١١٢)، ومعنى هذا أنه لم يقبل كل ما يقال له بشأن دفن الصحابة في تلك المناطق.

أما المزارات الدينية المسيحية، فهناك كنيسة القيامة، ويقرر أنها موجودة في وسط بيت المقدس، وأن هناك مقبرة يسميها المسيحيون القيامة، ويصف الكنيسة بصفة عامة على اعتبار أنها أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس وبها مظاهر الحسن والثراء^(١١٣).

وهناك أيضاً عين سلوان، وهي في ريف بيت المقدس، وهي عين عذبة ويتم التبرك بها، ويقرر ياقوت أن هناك اعتقاداً بأن ماء زمزم يزور ماء سلوان وذلك كل ليلة عرة^(١١٤)، ومن الواضح عدم اعتقاده في ذلك بلليل أنه اعتبر ذلك من قبيل الزعم، أو من خلال المعتقدات الشعبية الساذجة. وإن أفادت إشارته في تسليط الضوء على ذلك الجانب الفولكلورى.

وبالإضافة إلى تلك المزارات الدينية المسيحية، يشير ياقوت إلى عدد كبير من الأديرة المسيحية في كافة أنحاء الشام سواء في دمشق، وحلب، وبالس، وأنطاكية، وعزاز، وفي الأردن، وعند جبل الطور، والرملة.

ومن أديرة دمشق، دير صليبا، ودير الخصيان، ودير سمعان ودير يونا، ودير فطرس، ودير بولس، ودير قانون، ودير هند^(١١٥)، ومن أديرة حلب حافر، وحشيان، وعمان، ودير

بلاض^(١١٦)، أما في أنطاكية فهناك دير سمعان^(١١٧)، وفي عزاز هناك دير شيخ^(١١٨)، وفي الأردن هناك دير فاخور^(١١٩) في الموضع الذي عهد فيه يوحنا المعمدان^(١٢٠) السيد المسيح. وفي الطور يوجد دير التجلي^(١٢١) الذي يزعم المسيحيون أن السيد المسيح قد علا عليهم فيه. أما الرملة ففيها دير البلوط، وكذلك دير يولس.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أديرة، معينة من بين التي لوردها تحتل مكانة خاصة لدى نفوس المسيحيين، ومن أمثلة ذلك دير التجلي، ويلاحظ أنه على جبل الطور، ويقصده الناس من كافة الموضع، ويوصف الدير بالاتساع والمناعة في البناء، واشتمل على موضع مخصص لاستقبال الحجاج المسيحيين واستضافتهم، كما أنه احتوى على كنيسة عرفت بكنيسة المخلص^(١٢٢).

وبصفة عامة كانت تلك الأديرة على درجة كبيرة من الثراء، ومن أمثلة ذلك إشارة ياقوت نفسه إلى أن دير سمعان بظاهر أنطاكية يبلغ دخله في العام أربعمئة ألف دينار^(١٢٣)، ومن الطبيعي ملاحظة أن الأديرة التي وقعت في قبضة الصليبيين مثل أنطاكية والرملة كانت أكثر ثراء من تلك الأديرة الواقعة في دمشق، وحلب، وعزاز، على اعتبار أن جموع الحجاج المسيحيين، كانوا يقدمون إليها كل النفائس والتبرعات المالية على نحو أدى إلى ثرائها بصورة متزايدة.

والجدير بالذكر، أن إيراد ياقوت الحموي لكل تلك الأديرة في بلاد الشام، والعديد منها خاضع للسيادة الإسلامية. يعكس حقيقة جليلة لا تقبل الجدل ألا وهي أن مناطق المسلمين، احتضنت أماكن العبادة المسيحية، ومنها الأديرة على مدى قرون عديدة من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى آخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك في حرية كاملة، ومن ثم فإن القول بأن الحملات الصليبية جاءت إلى المنطقة العربية بوصفها حملات إنقاذ للمسيحيين الشرقيين من اضطهاد المسلمين،

تفنده تلك الإشارات الثرية، التي قدمها ياقوت الحموي عن كثرة أعداد الأديرة المسيحية المتناثرة في أنحاء بلاد الشام، وخاصة في المناطق الإسلامية.

ومن ناحية أخرى، فإن إيراد ياقوت الحموي لأديرة المسيحيين، يعكس بجلاء مدى التسامح الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة، على نحو جعلهم يخصصون صفحات كاملة من مؤلفاتهم للحديث عن تلك المؤسسات المعمارية الدينية المسيحية، وفي هذا دليل واضح آخر إن لم تكن هناك «مشكلة ما» في التعامل بين المسلمين والمسيحيين لا على المستوى الرسمي، ولا على مستوى الكتابة التاريخية عن الطرف الآخر المخالف في الدين من جانب الجغرافيين المسلمين في ذلك العصر، ويمثل ياقوت الحموي خير دليل على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجد ذلك الجغرافي يعنى بتوضيح المزارات العلاجية، في بلاد الشام، ومن أمثلتها عيون طبرية، وفي هذا المجال نجده يستفيد من نص للسائح الهروي، ويؤكد على أهمية قرية الحسينية، ويصف الماء هناك بأنه شديد الحرارة للغاية، كما أنه صافٍ، وعلب، وطيب الرائحة^(١٢٤). ومن الواضح أن تلك القرية لقيت اهتماماً كبيراً من جانب الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر.

وأخيراً، فإن ياقوت الحموي حرص على ذكر جوانب من الخريطة العقائدية لبلاد الشام، وفي هذا الصدد أشار إلى وجود عناصر الاسماعيلية في حلب، وخاصة في جبل السماق الذي احتوى على عدد كبير من المدن، والقرى والقلاع^(١٢٥). وقد أوضح أن غالبية الاسماعيلية هناك تحت طاعة الأيوبيين^(١٢٦)، ويعنى ذلك أن عناصر أخرى منهم كانت تناصب السلطة الأيوبية في حلب العلواء ولكن دون فعاليات حقيقية خطرت بدليل علم إشارته إلى تلك العناصر إلا بتلك الصورة الموجزة.

كذلك فإنه أوضح وجود عناصرهم في كفر لانا في سطح جبل عاملة بين نواحي حلب^(١٢٧)، مع ملاحظة أن مناطق حلب كانت مركزاً تقليدياً للوجود الاسماعيلي

منذ أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. ومع ذلك فإنه لم يشر إلى قيامهم بأية اغتيالات ويبدو أن شوكتهم قد كسرت نهائياً من خلال القبضه الأيوبية.

أضف إلى ذلك، أنه تناول عناصر النصيرية فى حمص^(١٢٨). وأشار إلى أن كثيراً من أهلها من عناصرهم، ومن الطبعى أن تجده يشن عليهم الهجوم؛ نظراً لعقائدهم، وأفكارهم الباطلة، حيث اعتبروا من غلاة الشيعة.

ولا ريب فى أن ياقوت يواصل بذلك توضيح أماكن توزيعات العناصر الشيعية فى ذلك العصر. مع ملاحظة أن تلك العناصر فى العصر الذى كان فيه ذلك الجغرافى، لم تكن بنفس قوتهم خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

وهكذا، قدم لنا ياقوت الحموى من خلال مؤلفاته الجغرافية التى تناول خلالها أنحاء الشام، صورة عامة عن بلاد الشام خلال عصره، وهى بالتأكيد صورة ثرية وهامة ومع ذلك يمكن أن توجه له بعض جوانب النقد ومنها :

أولاً : إن اهتمام ياقوت بالمدن الخاضعة للسيادة الإسلامية فاق بكثير اهتمامه بتلك الخاضعة للسيادة الصليبية، بل إنه أحياناً فى المدن الأخيرة اكتفى بإيراد اسمها فقط، دون أن يعمق رؤيته بشأنها، إذ أن رؤية تلك المدن المعادية من خلال عيون إسلامية يثرى تلك الرؤية إلى حد كبير، بيد أنه لم يفعل ذلك.

ثانياً : إن مدن الساحل الشامى، وهى التى لها شأنها الكبير على المستوى الاستراتيجى، والاقتصادى التجارى، غلبت الزاوية التاريخية على شقيقتها الجغرافية عند معالجة ياقوت الحموى لها، حقيقة أن الفاصل بين الجانبين ليس بالكبير، وأن

التاريخ ما هو إلا صراع على الجغرافية، إلا أن ياقوت الحموي عالج تلك المنطقة من خلال اهتمامه بتصوير تاريخ الصراع الإسلامي / الصليبي بشأنها، بيد أن ذلك الجانب، خصصت له كتب الحوليات التاريخية العربية أجزاء هامة منها.

ومع ذلك؛ فإن النقد السابق، ينبغي ألا يقلل من قيمة ذلك العلم الجغرافي والأديب والمؤرخ المتميز، خاصة إذا ما لاحظنا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا تلك المدن من خلال اهتمامهم بإيراد أوضاع المدن الخاضعة للصليبيين حينذاك.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ياقوت الحموي أنظر :

ابن المستوفى، تاريخ كربل، ج١، تحقيق سامي الصغار، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٣١٩-٣٢٤؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أئمة الزمان، ج٦، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص١٢٧-١٣٩؛ اللحي، المعبر في خبر من غير، ج٥، ص١٠٦؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج٤، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٤٨هـ، ص٥٩؛ عبدالستار فراج، معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة العربي، العدد (١٤١)، أغسطس ١٩٧٠م، ص٧٨؛ صلاح الدين المنجد، من أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ج١، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص٦٣؛ محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص١٥٦؛ زكي حسن، الرحالة للمسلمون، ص١٠٢؛ صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص٢٥١، حاشية (١)؛ أحمد أحمد بدوي، الحياة الفعلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة، ب-٢، ص٢٨٥؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٤٤٧-٤٤٨؛ علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص١٥١؛ علي عبدالله الدفاع، للوجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، ط. نيويورك ١٩٧٩م، ص٤٣؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص١٧٧؛ زغلول النجار والدفاع، إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علم الأرض، ص٣٩٢-٣٩٣؛ يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص١٢٧؛ عبدالله فتاح وهبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص١٨؛ عبدالرحمن زكي، أعلام العرب في الجغرافيا، المجلة العربية، السنة (٢)، العدد الأول، ديسمبر ١٩٧٨م، ص٥٣؛ عمر رضا كحالة، معجم مصنفى الكتب العربية في التاريخ والتراجم والجغرافيا والرحلات، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٦٦٧-٦٧٠؛ مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، ط. بيروت ١٩٩١م، ص٥٦٣-٥٦٥.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T.L., p. 479 Suppl., T.L., p. 880; Rubricht, Chronologisches, p. 50.

(٢) ابن المستوفى، للمصدر السابق، ج١، ص٣١٩.

(٣) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص١٣٩.

(٤) نفسه، نفس المصدر، ح ٦، ص ١٢٧، ويرى يسرى الجوهري، أن ياقوت قد ولد في اليونان عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ، ولكن هذا الرأي لا تدعمه المصادر الأصلية لأن المؤرخين يذكرون أنه رومي الجنس والمولد، ومعنى هذا أنه ولد في موقع ما من أملاك الامبراطورية البيزنطية التي أطلق عليها المسلمون تعبير دولة الروم، أما التحديد بأنه ولد في اليونان، فهو أمر لا يجد سنداً من الدعم المصدري، ويبقى مجرد احتمال لا أكثر. أنظر رأيه في الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص ١٢٧.

(٥) ابن خلكان، للمصدر السابق، ح ٦، ص ١٢٧، أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ١٧٧.

(٦) نفسه، نفس المرجع، والصيغة.

(٧) ابن خلكان، للمصدر السابق، ح ٦، ص ١٢٧-١٢٨.

(٨) السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٩٦.

(٩) ويلاحظ أن زغلول النجار وعبدالله الدفاع قد ذكرا أن ياقوتا عندما اتجه إلى حلب كان يحكمها الحمدانيون، أو كما ورد في نص كتابيهما «هي إذن حاضرة الحمدانيين». عن ذلك أنظر : إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علم الأرض، ص ٢٩٤.

غير أن هذا القول، لا ينطبق على الواقع التاريخي، على اعتبار أن الحلبيين، حكموا حلب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد، وكانوا على النحر التالي :

أبو الحسن علي، سيف الدولة ٢٢٣-٢٥٦هـ / ٩٤٤-٩٦٧م، الحمداني، سعد الدولة، أبو المعالي شريف ٢٥٦-٣٨١هـ / ٩٦٧-٩٩١م، الحمداني، سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ٣٨١-٣٩٢هـ / ٩٩١-١٠٠١م، الحمداني، أبو احسن علي، أبو المعالي شريف الثاني، ٣٩٢-٣٩٤هـ / ١٠٠١-١٠٠٣م.

ولما كان ياقوت الحموي قد عاش خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وتوفي عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، فمن الواضح عدم صحة القول السابق. عن تسلسل حكم الحمدانيين وتاريخهم أنظر :

Canard, Histoire de la dynastie de Hamadanides de Jaziract et Syrie, Paris, 1951.

زمارور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ح ٢، ت. زكي حسن وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥٢م، ص ٢٠١، ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ١٠٩، محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ٢٧٢، السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٩١٦.

وعن مصادر تاريخ الحمدانيين بصفة عامة أنظر : النصوص الهامة التي أوردها للمستشرق الفرنسي كنار فى كتابه التالى :

Canard, Sayf Al Daula, recueil de Textes relatifs d L'emir Sayf al Daula Le Hamdanids avec annotations, Alger 1934.

وفيه تجد النصوص العربية والتعليقات بالفرنسية التي قام بها كنار. وأنظر أيضاً : مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمداني، أو مملكة السيف ودولة الأقاليم، ط. القاهرة بـت.

(١٠) ابن خلكان، للمصدر السابق، ج٦، ص١٣٩، عبدالرحمن زكى، المرجع السابق، ص٥٣، عبدالستار فراج، المرجع السابق، ص٧٨، العبادى وزيادة والعدوى، الدولة الإسلامية، تاريخها وحضارتها، ط. القاهرة بـت، ص٥١.

(١١) ابن المستوفى، للمصدر السابق، ج١، ص٣٢٤.

(١٢) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٢م، ص٦١.

(١٣) محمد الحسينى عبدالعزيز، الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ط. الكويت ١٩٧٣م، ص١٧٦.

وأيضاً، حمد الجاسر، «نظرات فى معجم البلدان»، مجلة العرب، ج (٩)، (١٠)، الربيعان ١٤١٤هـ، ص٥٧٨، خردانجش، الحضارة الإسلامية، ت. على حنى الخربوطلى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨٠.

(١٤) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص٤٢٨.

(١٥) يلاحظ أن معجم البلدان، قد نشره وستفيلد Wustenfield فى ستة أجزاء فى الرحلة من ١٨٦٦ إلى ١٨٧١م، وقد صدر عمله تحت عنوان :

Wustenfield, Jacut's geographischer wörterbuch aus den Handschriften zu Berlin, St. petersburg und pairs.. hrsg von Ferdinand I-VI Lerbzig 1866-1870.

وضمن ذلك العمل، هناك جزء مخصص للفهارس، كذلك صدرت فى القاهرة فى عام ١٣٢٣-١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، بعناية الشنقيطى طبعة أخرى من معجم البلدان وقعت فى ثمانية مجلدات، مع زيادات تحت عنوان «منجم العمران فى المسترك على معجم البلدان»، لمحمد أمين الخانجى، الجزءان التاسع والعاشر، القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م. وفيما بعد ظهرت طبعة أخرى من الكتاب المذكور فى بيروت فى عام ١٩٧٧م، وهى التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا الفصل.

ومن المفيد أن نذكر أن هناك من رأى أن عمل ذلك للمستشرق الألماني، في تحقيق معجم البلدان، يعد أكبر عمل اضطلع به مستشرق بمفرده، وبذلك يكون قد قدم للعلم خدمة لا يمكن أن تقدر بثمن. عن ذلك أنظر :

صلاح الدين عثمان هاشم، للمستشرقون والجغرافية العربية، ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ح-٢. ط. الرياض ١٤٠٥هـ، ص ٧٨. آثار في الجغرافية الإسلامية تنتظر النشر، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٧.

والجدير بالذكر، أن كتاب ياقوت قد أترك للمؤرخون المسلمون أهمية اختصاره من أجل تقليل حجمه. وذلك على الرغم من أن ياقوت بنفسه قد لوصى في مقدمة كتابه ألا يختصر حتى لا يقلل فائدته.

وقد قام صفى الدين بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ / ١٢٤٠م) باختصاره تحت عنوان مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وقد قام جوهريول بتحقيقه، وطبعه في أربعة أجزاء، وقد صدر عمله في لندن عام ١٨٥٣م : كما أن السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) اختصر هو الآخر كتاب ياقوت تحت عنوان مختصر معجم البلدان. عن اختصار معجم البلدان أنظر : حاجي خليفة، كشف القنون عن أسامي الكتب والفنون، ح-٢، ق ٢، ص ١٧٣٣.

ويرى أحمد رمضان، أن مراصد الإطلاع من مؤلفات ياقوت الحموي، وأن عبدالمؤمن بن عبدالحق قد اختصره. بيد أن هذا الرأي يخالف الواقع، لأن ياقوتا لم يؤلف البتة كتاباً بهذا العنوان، أما كتاب مراصد الإطلاع، فما هو إلا اختصار ابن عبدالحق البغدادي لكتاب ياقوت معجم البلدان، أنظر رأيه : الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ١٧٩.

كما أن صلاح الدين الشامي قرر أن عبدالمؤمن البغدادي قد اختصر هذا للمعجم وأضاف إليه، بيد أن هذا القول، هو الآخر لا يتفق مع واقع الأمر، لأن عبدالمؤمن لم يضيف إلى كتاب ياقوت، بل اختصره، لأنه في حالة افتراضنا جدلاً أنه أضاف إليه لما فكر أصلاً في أن يختصره، وبلا حظ أن اختصاره كان على عكس نصيحة ياقوت، لمن يأتي من بعده من المؤرخين، والجغرافيين، إذ أنه نصح بعدم اختصاره حتى لا تضعف فائدته، أنظر رأى الباحث السابق في : الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ط. الاسكندرية، ١٩٧٨م، ص ١٣٧، حاشية (٢).

(١٦) حققه وستفيلد Wustenfield اعتماداً على نسختي فيينا، ولندن، وصدر عمله في جوتنجن عام ١٨٤٦م، وأعيد نشره كما هو، من جانب عالم الكتب في بيروت عام ١٩٨٦م. وقد صدر تحقيق وستفيلد بعنوان :

Jscut's Moschtarik, das isti Lexicon geographischer Homonyme, Gottingen 1846.

وبلاحظ أن عنوان كتاب ياقوت قد استوحاه محمد عبدالله بليهد عندما ألف كتابه ما تقارب سماعه وتباينت أمكته وبقاعه. ط. الرياض ١٤٠٢هـ.

(١٧) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية (٩٥-٣١٦هـ/ ٧١٤-٩٢٨م)، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص ٢٦، صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص ٢٥١.

(١٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٥٩، محمد محمود محمدين وطه القراء، المدخل إلى علم الجغرافيا، ط. الرياض ١٩٨٢م، ص ٢٥، محمد محمود محمدين، دراسات في الأسماء الجغرافية العربية، الدارة، العدد (٤)، السنة (٤)، محرم ١٣٩٩هـ/ ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٢٢٧، محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م (٣)، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٤٦.

(١٩) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٢٠) عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٢١) ياقوت، معجم البلدان، ح ٥، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٤٥٧، صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ح ١، ص ٧٠.

(٢٢) ياقوت، المصدر السابق، ح ١١٤. ويقول ما نصه (لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بنير رهن) ومرو، مدينتان من مدن المشرق الإسلامي وهناك مرو الشاهجان أي روح الملك، وهي مرو العظمى؛ التي عدت أشهر مدن خراسان، وقصبتها، أما مرو الثانية فهي مرو الروة، وهي مدينة صغيرة بالمقارنة بمرو الشاهجان التي كانت أكبر منها، ويمتدح ياقوت مرو الشاهجان على اعتبار أنها أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان عددا لا يحصى، ووصفت مرو من جانب القزويني، بأنها كثيرة الخيرات وافرة الغلات، كما امتدح الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى، أهل مرو؛ من حيث رقتهم، وحسن معاشرتهم. عن مرو أنظر :

النرخي، تاريخ بخارى، ت. أمين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، ط. القاهرة ب-ت، ص ٩٤-٩٥، ياقوت، معجم البلدان، ح ٥، ط. بيروت ١٩٥٧م، ص ١١٣، القزويني، آثار البلاد، ص ٤٥٦-٤٦٠، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٥٦، محمود شيت خطاب،

أفغانستان قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، مجلة المجمع العلمي العراقي، م (٢١)، حـ (٣)، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص ٤٧؛ لستراخ، بلدان الخلافة الشرقية، ت. بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٤٤٩-٤٥٢؛ طه ندا، فصول في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص ١٥٩.

Bosworth, "The political and dynastic History of The Franian World", in C.H.I., Vol. V, Cambridge 1968, p.65, p.163.

(٢٣) على أدهم، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢٤) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩١.

(٢٥) ياقوت، للمصدر السابق، حـ، ص ١٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، حـ، ص ١٤٤.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، حـ، ص ١٤٣.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، حـ، ص ١٢٢. عن معركة حطين أنظر :

ابن شداد، النواذر السلطانية والحامض اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٧٥-٧٦؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسبي في الفتح القدسي، ط. القاهرة، ص ٨١؛ ابن الأثير، الكامل، حـ، ص ١٧٩، مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٠٥؛ مصطفى زيادة، يوم حطين اليوم الفاصل بين المسلمين والصليبيين، العربي، العدد (٥٩) أكتوبر ١٩٦٣م، ص ٣٦-٤٦؛ محمد زبيير، معركة حطين من التمزق إلى الوحدة، مجلة للتورخ العربي، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص ١٦٥-١٧٦؛ الحبيب الجنحاني، حطين رمز الوحدة والتحرر، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٣٩)، السنة (١٥)، عام ١٩٨٩م، ص ١٧٧-١٨٥؛ ديفيد جاكسون، معركة حطين والاستيلاء على القدس، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص ٨٦-١٠٠؛ جوزيف نسيم يوسف، معركة حطين، خلفياتها ودلالاتها، عالم الفكر، م (٢٠)، العدد (١)، أبريل، مايو، يونيو ١٩٨٩م، ص ٢٣٢-٢٥١؛ جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ت. محمد فتحي الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٢١؛ محمود رزق محمود، العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م، ص ١٥٥-١٦٠؛ أمين توفيق الطيبي، وقعتا حطين والأرك

نصران متوازنان على الغزاة الصليبيين في المشرق والمغرب، مجلة البحوث التاريخية، السنة (١٠)، العدد (٩١) يناير ١٩٨١م، ص ٥١-٦٤؛ سام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٧٨م، ص ٦٥-١١٢.

Richard, "La bataille de Hittin, Saladin defeat L'Occident", L'Histoire, T. XL VII, année 1987, pp. 104-111, AAn account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in Oriental maslem states", Speculum, T. XXXII, pp. 168-175.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٣٣. وعن حصانة صور أنظر :

ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٤، للقنسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢-١٦٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ ياقوت، للمشارك وصفًا، ص ٢٨٦؛ سر الختم عثمان، صور في القرنين ١٢، ١٣م، ص ٤-٧؛ محسن محمد حسين، مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م (٧)، العدد (٢٦)، الكويت ١٩٨٧م، ص ٣٢.

(٣٠) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٣.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ١٥١-١٥٢.

وقد وقعت أرسوف، وهي في المصادر الصليبية ترد بأشكال متعددة، مثل Arsuf, Arsur, Azotus، على بعد عشرة أميال إلى الشمال من يافا على ساحل فلسطين، وبينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً، وبينها وبين الرملة إثنى عشر ميلاً، ومن المحتمل أن اسم لرسوف Arsuf، مشتق من اسم الإله السامي رسيف Reseph، ويلاحظ أنه خلال القرون الأولى من عهد الخلافة، عدت أرسوف واحدة من المدن الحصنة الرئيسية في فلسطين، وقد احتلها الصليبيون في عهد الملك الصليبي بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٧م) وذلك في عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ، وفيما بعد استردها المسلمون في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي؛ في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، ووقعت عندها معركة أرسوف الشهيرة خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ، والتي انتصر فيها الصليبيون بقيادة الملك الإنجليزي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م)، وفيما بعد أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وسقطت أرسوف بصورة نهائية في قبضة للمسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ وذلك في عام ١٢٧٨م/ ٦٧٧هـ. عن أرسوف أنظر :

للقنسي، المصدر السابق، ص ١٧٤؛ ابن القلانسي، فيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥٢٨-٥٢٩؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة

القاهرة، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص ٨٩-٩٠.

Fulcher of Chartres, p. 12, p. 29; William of Tyre, Vol. I, p. 434.

كشاف البلدان الفلسطينية، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٩٦؛ عبدالحفيظ محمد علي، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين في الشرق الأدنى في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص ٢١؛ عبدالهادي شعيرة، الرحلة ورباطاتها السبعة، المجلة التاريخية المصرية، م (١٥)، عام ١٩٦٩م، ص ٤٣؛ صابر دياب، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٩١-٢٩٢؛ مرمجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، ص ٢٠-٢١؛ قلرس قلنجي، صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين ١٢، ١٣م، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٣٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٥.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٢٧٠.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٤٨٩.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٤٢١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٦٧-٦٨.

وتجدر الإشارة إلى أن نهر العاصي Orontes، قد سماه أحد الرحالة الأوروبيين اللين زاروا المنطقة، وبالتحديد مملكة بيت المقدس الصليبية، ألا وهو فتيلوس (١١١٨-١١٢٠م) Pharphar أو Far Far، وقد ذكر عنه أنه ينبع من أسفل جبل لبنان، واخترق مجراه مناطق متعددة من بلاد الشام مثل أنطاكية، وامتد غربها إلى البحر المتوسط حيث توجد مدينة سوليم Solim أو القديسي سيمون St. Simeon أو السويدية. عن ذلك : Fetellus, p. 24-25.

(٤٢) ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٢.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، حـ ١، ص ٣٥١-٣٥٢

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، حـ ٥، ص ١٦٨

(٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، حـ ٥، ص ١٥٦.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، حـ ١، ص ٢٨٤.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، حـ ١، ص ٢٨٥.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، حـ ٢، ص ٣٠٠.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، حـ ٤، ص ٤٦٩.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، حـ ٥، ص ١٦٨.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، حـ ٤، ص ٤٧.

ويلاحظ أن جبل الطور أطلق عليه طابور Tabor، ويقع في إقليم الجليل، وطل على مرج بن عامر، وارتفع عن سطح البحر بنحو خمسمائة وثمانية وثمانين متراً، واحتل موقعا استراتيجيا هاما، وكان موضع اهتمام وإعجاب الصليبيين، ولدينا وصف هام للملك الجبل من جانب الرحالة الروسي دانيال Daniel، ويقرر أنه من عجيب صنع الله، على نحو يعجز للمرء عن وصفه، وهو بالغ الجمال والروعة، ومنزل عما سواه من الجبال، وهناك نهر يجري في الوادي الذي يقع أسفل الجبل وتنمو فوق الجبل كافة أنواع الأشجار المثمرة مثل الزيتون والتين وغيرها من أشجار الفاكهة، ويقرر نفس الرحالة أنه من الصعوبة بمكان تسليق ذلك الجبل نظراً لتكويناته الصخرية الوعرة، عن جبل الطور. أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 100; Daniel, p. 66-67; Fulcher of Chartres, p. 272.

الشاهشي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط. بغداد ١٩٥١م، ص ١٣٢؛ ابن عبدالحق البغدادي، مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، حـ ٢، ص ٨٩٦؛ أندريوس كرشه وأبيض، الثمار الشهية في جغرافية المملكة العثمانية، ط. طرابلس الشام ١٩١٢م، ص ١٧٨-١٧٩؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، حـ ٧، ق ٢، ص ١٢؛ طه تليجي الطراونة، تاريخ مملكة صفد في عهد للماليك، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٧٥-٧٦؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ١٦، سعيد البيشاوي، للممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م)، ط الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٦٩، حاشية (٢)

- (٥٣) ياقوت، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٤.
- (٥٤) نفسه، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٨٦.
- (٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٥٦) نفسه، نفس المصدر، ج٢، ص ٤٣٦-٤٣٧.
- (٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٥٨) شيخو، جولة في الدولة العلوية، ص ٤٩١.
- (٥٩) محمد عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان، ص ٥٥٠.
- (٦٠) صبحي الصواف، الكتابات العربية في قلعة حلب، مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب عام ١٩٧٥م، ص ٢٨٢.
- (٦١) ياقوت، للمصدر السابق، ج٣، ص ٣٢٨؛ ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، ص ٨٦؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركيس، ط. بيروت ١٩٠٩م، ص ٢٦٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٥، الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، ورقة (٩٥).
- (٦٢) عبدالرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص ٥٦.
- (٦٣) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ١١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٦١؛ معلوي، التاريخ الحربي للمصري في عصر صلاح الدين، ص ٢٠٨.
- (٦٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦١.
- (٦٥) شنجو، للرجع السابق، ص ٤٩١.
- (٦٦) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص ٣٢٥.
- (٦٧) رنيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٧٦٠-٧٦١.
- (٦٨) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص ٩٠؛ ابن الأثير، للمصدر السابق، ج ١٢، ص ٤-٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٠٣؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٢٩-٨٣٠؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، ج ٢، ص ١٢٥؛ زكي نقاش، العلاقات، ص ٥٩.

Runciman, The Crusades, Vol. II, p. 470.

(٦٩) ياقوت، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٠١.

(٧٠) . Fetellus, p. 41, note (2)

(٧١) William of Tyre, Vol. II, p. 132.

رنسيمان، للمرجع السابق، جـ ٢، ص ١٣٦٩؛ السيد الباز العرنى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٣٧٤؛ آدم سميث، الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة، ط. بيروت ب-ت، ص ١٩٢.

(٧٢) شيخ الرواة الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢١؛ عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٦٠١؛ حسن عبدالقادر، أسماء للمواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين، ط. عمان ١٩٧٣م، ص ١٩؛ نبيلة مقامى، فرق الرهبان لفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م، ص ٨٢.

Le Strange, Palestine, p. 414.

(٧٣) Smail, Crusading Warfare, p. 211.

(٧٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جبرين»، ص ٤٩٧.

(٧٥) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 265.

Riley-Smith, History of The Order of St. John of Jerusalem, London 1967, p. 52; Smail, The Crusaders in Syria and The Holy Land, London 1974, p. 54.

سامى سلطان سعد، الاستبارة في رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص ٢٥.

(٧٦) ياقوت، المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٧٦.

(٧٧) ابن ميسر، أخبار مصر R.H.C., Hist. Or., T. III, p. 472.

(٧٨) أسامة بن منقذ الاعتبار، تحقيق فيليب متى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص ١٧.

(٧٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٨٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢١٠؛ ابن العديم، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٩٨.

Le Strange, Palestine, p. 414.

- (٨٠) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بيت جرين»، ص ٤٩٧؛ نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص ٨٢.
- (٨١) ياقوت، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٠٩.
- (٨٢) نفسه، نفس المصدر، ح ٥، ص ١٠٨.
- (٨٣) فرديناند توتل، زيارة إلى قلعة المرقب، مجلة المشرق، م (٣٣)، ح (٤)، عام ١٩٣٥م، ص ٥٣٥.
- (٨٤) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ٨٥.
- (٨٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٥؛ ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٨٥؛ القلقشندي، المصدر السابق، ح ٤، ص ١٤٥-١٤٦؛ ابن الشحنة، المصدر السابق، ص ٢٦٧.
- (٨٦) وقع هذا البرج في الطرف الجنوبي الغربي من سور دمشق وبناءه الملك العادل نور الدين محمود عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، ويلاحظ أنه بني بأحجار قديمة مستعملة؛ أخذت كما يعتقد من سور مدينة دمشق. عن ذلك أنظر: سليم عادل، مشاهد دمشق الأثرية، ط. دمشق ١٩٥٠م ص ٤.
- (٨٧) نبيلة مقامى، المرجع السابق، ص ٨٧.
- (٨٨) محمود الحورى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٢٢٣.
- (٨٩) فرديناند توتل، المرجع السابق، ص ٥٣٢؛ يوسف سمارة، جولة في الإقليم الشمالى، ص ٧٢.
- (٩٠) Rey, Les colonies Franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siecles, Paris 1883, p.120.
- إبراهيم المحمود، فن الحرب عند العرب، ط. بغداد، ب-ت، ص ٣٦٣-٣٦٤.
- (٩١) فرديناند توتل، المرجع السابق، ص ٥٣٢.
- (٩٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ح ١٢، ص ٤، ابن واصل، المصدر السابق، ح ٢، ص ٢٥٧؛ عاشور، الحركة الصليبية، ح ٢، ص ٨٢٨؛ الناصر صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢١٠.
- (٩٣) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص ١٠٢. أيضاً أنظر :

(٩٤) ابن واصل، المصدر السابق، ح-٣، ص ١٦٥.

(٩٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ١٨٦، ابن حبيب، تذكرة النبيه أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٩٦، اليونيني للعلبكي، ذيل مرآة الزمان، ح-٢، ص ٤٤٧-٤٤٨، ابن لياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ح-١، ط. القاهرة، ١٨٩٤م، ص ١١٦، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ط. القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٢٣٨.

Siada, "The Mamluk Sultan to 1293", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Pennsylvania, 1955, p. 752.

(٩٦) أبو الفرج القش، آثارنا في الإقليم السوري، ص ٩٤.

(٩٧) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٥.

(٩٨) وهي باب الأربعين، وباب اليهود، وباب النصر، وباب الجنان، وباب أنطاكية، وباب قنشرين، وباب العراق، وباب السرا، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٦.

(٩٩) ياقوت، المصدر السابق، ح-٢، ص ٢٨٦.

(١٠٠) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، ط. القاهرة ب-٢، ص ١٨١.

(١٠١) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(١٠٢) عبدالرحمن زكي، قلاع العالم العربي في العصر الوسيط، الدارة، العدد الأول، السنة (٢)، ربيع الأول ١٣٩٦هـ / مارس ١٩٧٦م، ص ٨٦.

(١٠٣) ابن الشحنة، الدر للتخبط، تحقيق كيلر لوهاتا، ط. طوكيو ١٩٩٠م، ص ٤٠.

(١٠٤) حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١٨١.

(١٠٥) ياقوت، للمصدر السابق، ح-١، ص ٣٠٠.

(١٠٦) نفسه، نفس المصدر، ح-٤، ص ٤٧. وعن قلمة الطور أنظر :

ابن نظيف الحموي، التاريخ للنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، ص ٦٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ح-٣، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢١٦، أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٧٠، محمود الحوري، العادل الأيوبي، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٨٤-٨٥، علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩-٦٥٧هـ / ١١٩٣-١٢٥٩م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م،

ص ٢٢٧، محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م،
ص ١٠١.

Duggan, The Story of The Crusades, London 1961, p. 212.

(١٠٧) ياقوت، للمصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٧.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، ج ٥، ص ١٦١.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٩٥.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٩٥.

(١١١) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٣٠٣.

(١١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١١٣) نفسه، نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٥٦.

(١١٤) نفسه، نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٤١. أنظر أيضاً : الفصل الأول، حاشية (٥٨).

(١١٥) ياقوت، للمصدر السابق، ج ٣، ص ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٢، ٥١٧، ٥٢٨، ٥٤٣، ٥٢٥، ٥٢٦.

(١١٦) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥٠١، ٥٢٤، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٧.

(١١٧) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٥١٧.

وبلاحظ أن النابلسي يشير إلى دير آخر بنفس الاسم، أي دير سمعان، ويوجد في نواحي
طرابلس بلبنان، عنه أنظر :

النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق هريوت بوسه، ط. بيروت

١٩٧١م، ص ٢٧.

(١١٨) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥١٨.

(١١٩) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٥٢٥.

(١٢٠) يوحنا للعمندان، هو أحد رجال الدين من يهودا، عاش في خلال المرحلة التي سبقت ظهور
السيد المسيح عليه السلام مباشرة، وكان والده يدعى زكريا، وهو كاهن يهودي، وأخذ يوحنا
يقوم بدوره في التبشير بالسيد المسيح، وقام بعميله، ويرى البعض أن تعاليم يوحنا كان لها أثرها
الهام على المعاصرين، وقد لقي مصرعه على يد هيرودى، وبلاحظ أن العهد الجديد، لاسيما
انجيلي متى، ومرقص، يحتوي على إشارات هامة عن دوره التبشيري، عنه أنظر :

متى، الإصحاح (١)، من ١ : ٦، الإصحاح (٣)، من ١٢ : ١٧، مرقس، الإصحاح (٦) من ١٤ : ٢٩، الإصحاح (٨)، من ٧ : ٩.

Hastings, Dictionary of The Bible, New York 1952, p. 509-510; Grant, Historical introduction to the new testament, New York 1963, pp. 309-312; Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago 1944, p. 599-600.

سامى سعد الأسعد، تاريخ فلسطين القديم، ط. بغداد ١٩٨٩م، ص ٣٧١-٣٧٢.

(١٢١) ياقوت، للمصدر السابق، ج٢، ص ٥٠٢.

(١٢٢) الشاهشتى، للمصدر السابق، ص ١٣٢، العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، تحقيق أحمد زكي، ط. القاهرة ١٩٢٤م، ص ٣٣٧.

وبلاحظ أن ذلك الدير، كان أحد ثلاثة أديرة موجودة فوق جبل الطور، وهي دير التجلى، ودير إلياس، ودير موسى، وقد احتلت مكانة كبيرة في منطقة الجليل بشمال فلسطين وصارت هدفاً لزيارة الحجاج للمسيحيين في العصور الوسطى. عن تلك الأديرة أنظر :

Daniel, p. 66-67; William of Tyre, Vol. II, p. 495.

ليلي طرشوي، إقليم الجليل خيرة الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٨٧م، ص ١٩٧-٢٠٦.

(١٢٣) ياقوت، للمصدر السابق، ج٢، ص ٥١٧.

(١٢٤) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ١٨.

(١٢٥) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ١٠٢.

(١٢٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٢٧) نفسه، نفس المصدر، ج٤، ص ٤٧٠.

(١٢٨) نفسه، نفس المصدر، ج٢، ص ١٠٤.

٣ - القزويني

(ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة، التعريف بالجغرافي القزويني^(١) (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، وأهم ما تناوله في مؤلفاته عن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، ومن الواضح أن ذلك العلم الجغرافي قد أفاد في إلقاء الضوء على أوضاع تلك البلاد من كافة الجوانب، الأمر الذي سيعنى هذا الفصل بتوضيحه.

والقزويني هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ولد في عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م في بلدة قزوين الواقعة في شمال إيران، وهو ينتمي إلى إحدى الأسرات العربية التي استقرت في العراق العجمي منذ أمد بعيد^(٢)، ويقال إن نسبه يصل إلى الإمام مالك^(٣)، وقد تنقل القزويني بين أنحاء متعددة من أقاليم المشرق الإسلامي، ونعلم أنه رحل إلى العراق من أجل أن يتلمذ على أيدي كبار العلماء هناك، وقد تولى منصب القضاء في مدينتي واسط، والحلة، في العراق، ووصف بأنه كان حجة في المجال القضائي، وقد ظل يشغل ذلك المنصب حتى مقدم المغول إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، عام ٦٥٦هـ / ١٢٦١م، ومن بعد ذلك ارتحل إلى بلاد الشام؛ حيث توفي في مدينة دمشق عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٧م^(٤).

ومن المنطقي تصور أن حياة القزويني وتنقله بين العدد من أقاليم المشرق الإسلامي، ثم معاصرتة لمرحلة تاريخية خطيرة متمثلة في الغزو المغولي للمشرق الإسلامي، وعمله في الجانب القضائي، كل ذلك أثقل تجربته الإنسانية، وعمق خبرته، على نحو انعكس

بالضرورة على معالجته، ووصفه، لما كتب عنه من أقاليم، ومناطق جغرافية متعددة ومنها بلاد الشام بطبيعة الحال.

وقد ألف القزويني كتابين هامين في المجال الجغرافي، حققا له ذيوفاً في الصيت، ومكانة علمية رفيعة، وهما : آثار البلاد وأخبار العباد^(٥)، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات^(٦)، والكتاب الأول، وهو الأكثر فائدة لنا في دراستنا. نجد القزويني فيه لا يعطى اهتمامه للمسالك فقط، بل إنه يهتم كذلك بأوضاع المناطق التي يتناولها، وكذلك عناصر السكان^(٧)، أما كتابه الثاني، فيندرج تحت الجغرافيا الفلكية، والرياضية، أو ما يطلق عليه في الوقت الحالي تعبير الكوزموجرافى Cosmography، أى وصف الكون^(٨).

ومن الضرورة بمكان معرفة المصادر التي استقى منه القزويني مادته الجغرافية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، والواقع أنه أفاد من ترحاله ومشاهداته الشخصية في ربوع بلاد الشام، كما أنه أفاد من كتابات بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين مثل السائح الهروي^(٩) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) وكذلك ياقوت الحموي^(١٠) (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، ولا نزاع في أن مؤلفاتهما، كانت متوافرة لدى القزويني عندما تصدى بالتأليف لكتابه السابقين، على نحو دعم رؤيته الجغرافية لتلك البلاد.

ولا نزاع، في أن الوضع السابق يعكس حقيقة جليلة ألا وهي أن الجغرافيين المسلمين بنيت معارفهم من خلال جهود زملائهم السابقين، وأضافوا من بعد ذلك إليها تصوراتهم الشخصية، وهي ظاهرة ندرناها بوضوح طوال مرحلة العصور الوسطى، على نحو أفاد الباحثين المحدثين في تتبع تطور الفكر الجغرافي لدى المسلمين في تلك العصور ذات الثراء العلمى الإسلامى الواضح.

وجدير بالذكر، أن القزويني تعرض للعديد من الجوانب ضمن تناوله لبلاد الشام. فمن ذلك ذكره للساحل الشامي بملفه المتعددة ومظاهر أوضاعها الحضارية، كذلك تعرض للخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء بالنسبة للمسلمين، أو أهل الذمة مثل اليهود. ثم أنه تصدى للحديث عن المزارات الدينية هناك لاتباع الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ثم أنه تعرض لمناطق الاستشفاء، أو السياحة العلاجية. وبالإضافة إلى ذلك تناول الجانب الاقتصادي، من ذلك تعرضه لمصادر الثروة المائية المتعددة في بلاد الشام، وكذلك النشاط الاقتصادي لاسيما التجارى، وأوضاع الأسواق والعملة النقدية، وزيادة على كافة الجوانب السابقة، نجد أنه يتعرض للحياة الاجتماعية في بعض المدن الشامية.

وبلاحظ أن القزويني في رؤيته لبلاد الشام، يعطى اهتماماً خاصاً لمدينة الساحل الشامي، ذات الأهمية الاقتصادية التجارية الفاتكة، وهو في ذلك يشترك في نفس التوجه لدى غيره من الجغرافيين المسلمين ورحالتهم، وكذلك الأوروبيين الذين وفدوا على المنطقة في عصر الحروب الصليبية، ونجد - على سبيل المثال - يذكر مدينة عكا ويقرر أنها مدينة تقع على ساحل بحر الشام^(١١)، ويصفها بأنها في أيامه أحسن بلاد الساحل وأعمرها^(١٢)، ومن الواضح أن تلك المدينة البالغة الأهمية، والتي تصارع من أجل السيطرة عليها المسلمون، ونجد ذلك بصورة جلية خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة ومن الواضح أن مدينة عكا ازدادت في نشاطها التجارى ومن ثم توسع عمراتها على عصر القزويني بصورة كبيرة، وعلى نحو جعله يصفها بمثل ذلك الوصف الذي يستشعر من خلاله انعدام منافسة أية مدينة على الساحل الشامي لعكا، في تميزها الاقتصادي لاسيما التجارى، وكذلك في توسعها العمراني، وبالتالي اختلفت رؤيته لها عن رؤية ياقوت الحموي الذي لم يصورها أحسن مدن الساحل بل من أحسنها.

ومن جهة أخرى، ومن خلال إدراك ذلك الجغرافى لأهميتها تجده يورد لنا نبذة موجزة عن تاريخها، تدعيماً لأهميتها، ولدورها التجارى، وحتى يمزج بين الرؤية الجغرافية، والرؤية التاريخية، وقد قرر استيلاء الصليبيين عليها عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م^(١٣). واستمرار سيطرتهم عليها إلى أن انتزعها المسلمون مرة أخرى فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١٤)، فى أعقاب انتصارهم فى معركة حطين، فى نفس العام^(١٥). وهو فى ذلك يتفق مع منهج ياقوت الحموى بين الجغرافيا والتاريخ.

وإضافة إلى ذلك، نجد القزوينى يعطى أهمية لمدينة ساحلية أخرى من مدن الساحل الشامى، ونعنى بها عسقلان Ascalon، وقد أشار إلى أهميتها، وذكر ظروف استيلاء الصليبيين عليها، وذلك فى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، واستمرار سيادتهم عليها، حتى تم استردادها لصالح المسلمين فى عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١٦) فى أعقاب المعركة المظفرة السابقة.

ومن المعروف أن عسقلان سقطت فى عهد الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٣-١١٦٣م) بعد حصار طويل، وذلك فى عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ^(١٧)، وسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى فلسطين^(١٨)، واكتملت السيادة الصليبية على الساحل الشمالى^(١٩) الذى امتد من سان سيمون St. Simeon (السويدية) ميناء أنطاكية Antioch فى الشمال، حتى غزة Gaza فى الجنوب بامتداد أربعمئة ميلاً.

وقد أشار القزوينى إلى مرحلة هامة من مراحل تاريخ عسقلان عندما اضطر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى تدميرها وتخريبها وذلك فى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(٢٠)، وذلك فى ظروف أحداث الحملة الصليبية الثالثة، ويلاحظ أن أمر تخريبها قد نص عليه صلح الرملة الذى وقع بين السلطان الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م / ٥٨٥-٥٩٥هـ).

كذلك نجده يتعرض لإحدى المدن الساحلية اللبنانية الهامة، ونعني بها مدينة صور Tyre، وقد قرر أنها مدينة ذاتة الصيت، على طرف بحر الشام^(٢١)، وأوضح أمر استدارة حائطها على مينائها «استدارة عجيبة»^(٢٢)، ومن الواضح أن حصانة تلك المدينة قد استرعت انتباه القزويني، ومن المحتمل أن يكون وصفه لها دليلاً على أنه رآها بالفعل، بيد أن تأكيد ذلك ليس في الاستطاعة لعدم إفساح النص الذي قدمه في هذا الشأن.

وتجدر الإشارة إلى أن حصانة مدينة صور، قد جعلت العديد من الرحالة المسلمين والأوروبيين يتناولونها بالذكر، حتى صار أمراً تقليدياً عندما ترد تلك المدينة في نصوص الجغرافيين والرحالة التي وصلت إلينا من عصر الحروب الصليبية أن مجد ذكر حصانتها التي أدخلتها إلى تاريخ الحروب الصليبية بجلارة لاسيما في أعقاب معركة حطين ولجوء فلول الصليبيين إليها ثم تعاقب أحداث الحملة الصليبية المذكورة. ويلاحظ أن وصف القزويني لها يعد موجزاً، ومختصراً، إذا ما قورن بوصف أحد الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ونعني به ابن جبير وهو ما سنتناوله في الفصل المخصص له من هذه الدراسة.

كما أنه يتناول بالإشارة مدينة ساحلية هامة أخرى وهي اللاذقية Ladacia، التي ذكر أنها مدينة من سواحل بحر الشام، وذكر أنها «عتيقة»^(٢٣) وتفيد الإشارة الأخيرة في مزج القزويني الماهر بين الرؤيتين الجغرافية والتاريخية، وحرصه على إبراز صفة القدم على بعض المدن دون الأخرى، على نحو عكس رؤيته الخاصة في هذا المجال، وإن لم يضيف ما يدعم تلك الزاوية التي أشار إليها.

وقد قرر أن الصليبيين استولوا عليها، فيما ملكوه من بلاد الساحل في حدود عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م، وأن المسلمين استردوها في عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(٢٤)، في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ومن الملاحظ في عرض القزويني للساحل الشامي، أنه لم يورد كافة المدن الموجودة به، وإنما أورد نماذج محددة معينة، عكست اهتمامه بالدور الاقتصادي التجارى الذى لعبته تلك المنطقة الحيوية، والهامة من بلاد الشام وهو في هذا المجال يتشابه مع ما أورده الرحالة المسلمون والأوروبيون سواء المسيحيين أو اليهود، وإن اتسمت إشاراته في ذلك المجال بطابع يميل نحو الاختصار إلى حد ما، دون أن يقدم لنا التفاصيل الإضافية التى يتوق إليها الباحثون.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزويني، اهتم بأن يقدم لنا جانباً من الخريطة العقائدية التى كانت عليها بلاد الشام، فهو يحرص على إيراد توزيعات العناصر السنية، وكذلك الشيعية، وأيضاً أماكن وجود اليهود في مناطق معينة في بلاد الشام، فعلى سبيل المثال؛ أورد لنا أن مدينة حلب - حاضرة شمال الشام الهامة - «أهلها سنية وشيعية»^(٢٥)، أما في حمص فقد لاحظ وجود العناصر النصرانية فيها^(٢٦)، وقد قرر أنه من الأمور التى تثير العجب أنهم كانوا من أكثر الناس شدة على الإمام على كرم الله وجهه، ولكن فيما بعد صاروا من غلاة الشيعة^(٢٧). ووصل بهم الأمر، أن صاروا أكثرية في حمص^(٢٨) كما يقرر نفس الجغرافى.

ويستمر القزويني في عرضه للخريطة العقائدية لبلاد الشام؛ فيقرر أن جبل السماق، وهو من أعمال حلب، يشتمل على مدن وقرى أغلبها للعناصر الاسماعيلية^(٢٩). وهو أمر أورده من قبل ياقوت الحموى، ومن الواضح أن ذلك الجبل عد منطقة تركيز تقليدى لهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الوجود الاسماعيلي النزارى في بلاد الشام في عصر القزويني، قد خفت حلته، ولم يحتفظ الاسماعيلية حينذاك بنفس قوتهم في عمليات الاغتيال التى روعوا بها الأهلىن، لاسيما عمليات الاغتيال التى قاموا بها ضد قادة حركة الجهاد الإسلامى مثل اغتيال شرف الدين مودود عام ٥٠٥هـ / ١١١١م^(٣٠)،

وكذلك سنقر البرسقى عام ٥٥١هـ / ١١٢٦م^(٣١)، واغتيال بعض أمراء الشام مثل جناح الدولة حسين صاحب حمص، عام ٤٩٧هـ / ١١٠٣م^(٣٢)، وخلف بن ملاعب صاحب أفاميه، عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م^(٣٣)، وكذلك محاولتين لاغتيال صلاح الدين الأيوبي، وقد أقر القزوينى نفسه بأنهم «قتلوا جمعا من العظماء على يد الفداوية»^(٣٤).

وقد أورد القزوينى إشارات تفيد بأنه فى عهد الملك العادل نور الدين محمود، أنكر وجود ملك الإسماعيلية، فى مناطق وسط بلاده، فجاءه من أجل محاربته، ولما نزل عليه فى الليلة الأولى أصبح فوجد رسالة تهديد وسكينا عند رأسه^(٣٥)، والمرجع أن هذه الرواية لا أساس لها من الواقع التاريخى، ويبدو أنها من نسج الخيال الشعبى، ويظهر أن القزوينى قد أدرك ذلك إذ جعل الرواية على اعتبار أنه «حكى»، ويدعم تصورى هذا، أن المصادر التاريخية المعاصرة لنور الدين محمود؛ لا تشير البتة إلى محاولته الاستيلاء على مناطق الاسماعيلية النزارية، خاصة أنه جعل همه الأكبر مواجهة القوى الصليبية ممثلة فى إمارة أنطاكية وكذلك إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، وأمام صمت المصادر المعاصرة عن تلك الحادثة نتصور أنها واهية دونما دعم مصرى.

أما بالنسبة للوجود اليهودى فى المدن الشامية، نجد أن القزوينى قد أشار إلى وجود اليهود فى مدينة نابلس، وقرر أن بها اجتماع السامرة^(٣٦)، وأوضح أن اليهود يرون فيهم أنهم مبتدعون أحيانا^(٣٧)، وأحيانا أخرى نجد من العناصر اليهودية من يرى أنهم خارجون عن العقيدة اليهودية^(٣٨)، مع ملاحظة أنه غض الطرف عن وجود اليهود فى المدن الإسلامية الشامية، مثل دمشق، وحلب وغيرها. الأمر الذى جعل روايته محدودة الأهمية فى هذا الشأن.

فإذا نحينا ذلك جانبا، وتوجهنا إلى زاوية أخرى من الروايات التى تعرض لها القزوينى فى بلاد الشام، نجد أنه حرص على إبراد أمر المزارات الدينية التى تعددت فى أنحاء متفرقة

سواء في مناطق المسلمين أو الصليبيين، وفي تقديري أن إطلاع القزويني على ما ألفه الهروي عن الزيارات ربما جعله يعنى بإيراد تلك المواضع، وهي توضح أن منها ما كان لليهود. ثم هناك مزارات للمسيحيين، كما توافرت مواضع زيارة من جانب المسلمين، وكذلك مزارات مشتركة اشترك فيها أصحاب الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

فبالنسبة لليهود، نجد أنه أورد وجود عين تحت كهف في نابلس عظمتها عناصر السامرة، وبالمطقة بيت عبادة خاص بالسامرة^(٣٩)، أما العناصر المسيحية، فنجد أنه أورد أمر كنيسة القيامة في بيت المقدس، وأشار إلى أنها كنيسة عظيمة لدى المسيحيين^(٤٠). كما ذكر أمر عين سلوان التي يتم التبرك بها^(٤١)، وفي بيت لحم يوجد ماء يقال له المعمودية وهو «عظيم القدر» عندهم^(٤٢)، أما بالنسبة للمزارات الخاصة بالمسلمين، فقد ذكر وجود مشاهد رأس الحسين عليه السلام في عسقلان، ويقدم إليه الناس من كافة الأنحاء^(٤٣)، أما مسجد حبيب النجار فإنه في أنطاكية وفيه قبره، ويزاره الناس^(٤٤)، أما أنطربطوس، ففيها مصحف عثمان بن عفان، وقد أشار إلى أن الناس ينهبون إليه تبركا به^(٤٥).

والى جانب تلك المزارات السابقة الخاصة بأصحاب كل دين من الأديان السماوية الثلاثة سواء اليهود، أو المسيحيين، أو المسلمين، أشار القزويني إلى وجود مزار قرب عكا يعرف بعين البقر، يقدم إليه أصحاب الأديان الثلاثة^(٤٦). وقد ذكر أيضاً وجود مشهد على العين منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب^(٤٧). ومن المتوقع أن العناصر المسلمة فقط هي التي توجهت إلى المشهد الأخير وخاصة الشيعة منهم.

وهكذا، فإن القزويني، يورد عدداً وافراً من المزارات الدينية المتناثرة في ربوع بلاد الشام، وهنا نجد أنه يختلف عن ياقوت الحموي الذي أورد عدداً منها في كتابه معجم البلدان، فعلى حين نجد أن ياقوتا يقرر صراحة أن بعض مواضع الزيارات غير صحيحة، أو

أن أصحابها دفنوا فى أماكن أخرى^(٤٨)، إلا أن القزوينى يؤثر السلامة، ولا يشير إلى ذلك البتة، وهذا يعكس لنا ناحية هامة، ألا وهى، أن الجغرافيين المسلمين اختلفوا فى معالجة أمر تلك المزارات الدينية، وأن منهم من عارضها فى شجاعة نادرة، والبعض الآخر أقر السلامة، ولم يشأ أن يعارض عقائد العامة، والحس الشعبى العام فى ذلك العصر الذى تزايدت فيه ظاهرة المزارات والاعتقاد بأصحابها، والتبرك بأضرحتهم، وكل ذلك يمكن رصده من خلال تعاظم ظاهرة التصوف التى تسببت ذلك العصر.

والى جانب المزارات الدينية السابقة، أوضح القزوينى وجود مزارات بغرض الاستشفاء، مثل تلك العيون الموجودة فى منطقة طبرية، وخاصة موضع يقال له «الحسنية»^(٤٩) حيث يأتى إليه المرضى من أجل العلاج، ويلاحظ أن الإدريسى قد أشار من قبل إلى تلك الظاهرة العلاجية الهامة فى نفس تلك المنطقة، وكان من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام وأشار إلى ذلك فى خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر ميلادى، ويلاحظ أن القزوينى - على ما يبدو - كان شديد الإعجاب بذلك الموضع العلاجى الذى سُمى بالحسنية، حتى أنه عده من «عجائب الدنيا»^(٥٠) الأمر الذى يعكس الفعالية العلاجية لتلك المنطقة، ويبدو أنه عبر بذلك عن اعتقادات المعاصرين أنفسهم فى هذا الشأن.

ومن جهة أخرى، احتوت إشارات القزوينى على رؤية اقتصادية هامة لبلاد الشام فى ذلك العصر، وتتمثل رؤيته فى هذا الشأن فى حرصه على تناول مصادر الثروة المائية التى هى عصب النشاط الاقتصادى والعمراتى، ثم تعرضه للأسواق التجارية وكذلك العملة النقدية المتداولة حينذاك.

وفى مجال الثروة المائية، والتى شهدت فى عصر الحروب الصليبية تنافساً، وتصارعاً عنيفاً بين المسلمين، والصليبيين، من أجل تدعيم السيادة الاقتصادية، والسياسية بالتالى، نجد أن القزوينى يورد أن غوطة دمشق تمتد فيها عدة أنهر^(٥١)، الأمر الذى وفر لتلك

المنطقة ثراء زراعياً مشهوداً، أما بيت المقدس فإنها تعتمد على مياه الأمطار، ولذا فكل بيت فيها يملك صهريجاً من أجل تخزين المياه^(٥٢)، كما ذكر أن بها ثلاث برك، وهي بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان، ثم بركة عياض^(٥٣)، وفي فيج أشار إلى أن أهلها يشربون من قنى تسبح على وجه الأرض^(٥٤)، وفي كفر طاب لاحظ أنها فى بركة معطشة، وأن للمياه نادرة بها، ولذا يشرب أهلها من مياه الأمطار^(٥٥).

وبدل عرضه السابق على تنوع مصادر المياه بالنسبة لأهل الشام من أنهار وأمطار وعيون ثم استعمال وسائل تخزين المياه خاصة الصهاريج، كما أن ما أورده يعكس أن بلاد الشام كانت تعاني فى بعض الأحيان من مشكلة نقص المياه خاصة فى المناطق التى لم تتوافر بها الأنهار.

أما الأسواق، فنجد أنه يحرص على إبراد بعض أسواق المدن التجارية الشامية، والتى ازدهرت فيه العديد من الصناعات، والسلع التجارية، ومن أمثلة ذلك؛ ذكره لأسواق مدينة حلب بشمال الشام، وقد أعجب القزوينى بسوق الزجاج بها^(٥٦)، ورأى أن المرء إذا اجتاز بها لا يريد أن يغادر ذلك السوق وذلك لكثرة ما يشاهده من مصنوعات متقنة^(٥٧). وأشار إلى أن تلك المصنوعات الزجاجية الحلية يتم تصديرها إلى مختلف البلاد^(٥٨). على نحو عكس تفوقها بحيث صارت سلعة تجارية تدخل فى نطاق التصدير للدول الأخرى.

ومن المعروف أن صناعة المنتجات الزجاجية قد ازدهرت فى عصر الحروب الصليبية فى العديد من المدن الشامية، ومن المدن الأخرى التى يمكن أن تذكر فى هذا المجال صور^(٥٩)، وعكا^(٦٠)، حيث أشار المؤرخون الصليبيون المعاصرون مثل وليم الصورى، وكذلك ما ألفه الرحالة الأوروبيون؛ الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر لاسيما اليهود مثل بنيامين التطيلي الذى أشار إلى تفوق مثل تلك المدن فى الصناعات الزجاجية^(٦١).

كما أن القزويني أعجب بأحد أسواق حلب الطريقة ونعنى بها سوق المزوقين، وقد وصفها بأن فيها «آلات عجيبة ومزوقة»^(٦٢)، ويبدو أن هذين السوقين كانا أكثر الأسواق التي لفتت انتباه ذلك الجغرافي على الرغم من أن منها ما كان من الكماليات، مع عدم إغفال أسواق هامة أخرى للعديد من السلع التجارية لم يشر إليها القزويني، وإذا كان هذا هو حال مدينة حلب في شمال الشام، فإن مدينة دمشق كانت أكثر ثراء وازدهاراً على المستوى الحرفي والتجاري. وهذا يتضح لنا بجلاء من خلال كتابات المؤرخين السابقين على عصر القزويني الذين قدموا لنا وصفاً طوبوغرافياً للمدينة المذكورة اشتمل على أسواقها المتعددة.

ومن جهة أخرى، نجد أن القزويني اهتم بإيراد أمر العملة المتداولة في عصره في بلاد الشام، وفي هذا المجال أشار إلى الدنانير السورية التي سكنت في مدينة صور الساحلية، وذكر أن تلك الدنانير تعامل عليها أهل الشام، والعراق^(٦٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الدنانير السورية كانت من أكثر أنواع العملات النقدية التي اتسع نطاق التعامل النقدي بها في عصر الحروب الصليبية وهي عبارة عن عملة ذهبية عليها نقوش عربية وآيات قرآنية^(٦٤).

فإذا غادرنا تلك الناحية الاقتصادية ضمن إشارات القزويني عن بلاد الشام، وجدنا أنه قدم لنا رؤية طريفة، لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية في مدن الشام الكبرى مثل دمشق وحلب، وهي التي يمكن وصفها بأنها من وسائل التسلية وإدخال المرح على النفوس، وفي هذا المجال نقرر أن أهل دمشق يجعلون من كل يوم سبت أمر الاشتغال باللهو، واللعب، يستوى في ذلك الرجال، والنساء، والأطفال، حيث يلتقون بأصدقائهم، ويخرجون إلى البساتين، ويتجه القوم إلى الميدان الأخضر، الذي تحيطه مظاهر الخضرة وكذلك المياه الجارية^(٦٥).

وقد أوضح أن في ذلك اليوم يوجد المغنون، والساخرة، والمصارعون^(٦٦)، الذين يؤدون ألعابهم، وأدوارهم التمثيلية من أجل إدخال البهجة على نفوس الأهلين، على نحو عكس أن ذلك المجتمع، لم يعلم وسائل التسلية على الرغم من جو الحرب الذى عاشه بصفة عامة.

أما إذا توجهنا إلى مدينة حلب، فنجد أنهم يحددون مناسبة مثل تلك السابقة لدى أهل دمشق، ونعنى بها أول الربيع وتسمى الشلاق، حيث يخرجون إلى ظاهر المدينة وقد انقسموا إلى فرقتين متقاتلتين متصارعتين^(٦٧).

ويعنى هذا كله، أن المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام لم يعلم وجود العديد من وسائل التسلية^(٦٨)، والترويح عن النفس، وأن الصراع بين المسلمين والصليبيين، لم يحل دون توافر مثل تلك الوسائل التى عكست انتعاش الحياة الاجتماعية فى المدن الإسلامية الشامية، وقيمة ما أورده القزوينى فى ذلك المجال أن للمصادر المعاصرة نادراً ما تشير إلى تلك الزوايا الاجتماعية.

وهكذا، احتوت مؤلفات القزوينى على جوانب هامة عن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وتناول المنطقة الساحلية الهامة على المستوى الاقتصادى لاسيما التجارى، وكذلك الخريطة العقائدية لبلاد الشام، سواء العناصر السنية أو الشيعية وكذلك اليهودية، ثم تناوله للمزارات الدينية لمعتقى الأديان السماوية الثلاثة بالإضافة إلى إشاراته الاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

(١) عن القزويني أنظر :

ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٣٥١هـ، ص ١٢٨-١٣٠؛ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ح ٤/ق ٢، تحقيق مصطفى جودة، ط. دمشق ١٩٦٧م، ص ٧٢٥-٧٢٦؛ على عبدالله الدفاعة، علوم الكون في الإسلام : القزويني، الدارة، العدد (٣)، السنة (٧)، ربيع الثاني ١٤٠٢هـ / فبراير ١٩٨٢م، ص ٢٢٧؛ محمد محمود محمدين، شمولية الفكر الجغرافي في كتب التراث، الدارة، العدد (٤)، السنة (٩)، رجب ١٤٠٤هـ / أبريل ١٩٨٤م، ص ١٧٣؛ أحمد عيسى، تاريخ النباتات عند العرب، ط. القاهرة ١٩٤٤م، ص ١١٥؛ محمد مفيد آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط. بغداد، ١٩٧٩م، ص ٣١٦-٣١٧؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٠٤-٤٠٥؛ زغلول النجار والدفاعة، إسهام علماء المسلمين الأوائل في علم الأرض، ص ٤٠٧؛ شوقي ضيف، لرحلات، ص ٢١؛ محمد أحمد العقيلي، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، الدارة، العدد (٢)، السنة (٥)، المحرم ١٤٠٠هـ / ديسمبر ١٩٧٩م، ص ١٦٩؛ عمر فروج، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ٥٥٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ٢٩٧؛ صلاح الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ص ١٣٠؛ محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الاسلام في العلم والفكر والأدب والقيادة، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ٥٥؛ الفاضل العبيد عمر، الطب الإسلامي عبر القرون، ط. الرياض ١٩٨٩م. ص ٣٩٢.

Rubricht, Chronologisches, p. 60.

(٢) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٠٤.

(٣) عبداللطيم متصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٢٤٧.

محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ص ١٦٦.

(٤) على عبدالله الدفاعة، رواد علم الجغرافيا، ص ١١٥؛ محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٥) حقق المستشرق وستفيلد Wustenfield كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، وصدر عمله في تورينج عام ١٨٤٨م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud El-Cazwini's Kosmographie Zweiter Theil Die der Lander, hrsg- Von F. Wustenfield, Gottingen 1848.

وهناك طبعة أخرى من آثار البلاد وأخبار العباد، صدرت في بيروت بدون تاريخ، وهي التي اعتمدت عليها في إعداد هذا الفصل.

(٦) حقق للمستشرق وستفيلد كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وصدر عمله في تورينج عام ١٨٤٩م، وعنوان عمله هو :

Wustenfield, Zakarija Ben Muhammed el. Cazwinis die kosmographie erster Theil Wunder der Schopfunghrsg. Von F. Wustenfield, Gottingen 1849.

والجدير بالذكر هنا، أن الطبعة الثانية للكتاب المذكور قد صدرت في القاهرة في عام ١٨٩٢م، ثم صدرت عدة طبعات تجارية أخرى بهامش كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، كما نشرت ترجمة له إلى الفارسية في لكتاو عام ١٨٠٥م، ثم صدرت له ترجمة تركية، كما يلاحظ أن للكتاب المذكور ملخصاً قام به الباتوني (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٤م) تحت عنوان الآثار من عجائب المخلوقات. عن ذلك أنظر : مصطفى النجار والدفاع، للرجع السابق، ص ٤١١.

ومن اللهم أن نلاحظ أن التأليف في مجال العجائب خاصة في الزاوية الجغرافية، يمثل توجهاً وجد من قبل القزويني واستمر من بعده، من ذلك أننا نعرف أن محمد علي بن حسين للمسعودي (ت ٣٤٦هـ / ٩٩١م) قد ألف كتاباً بعنوان عجائب الدنيا، كما أن أبا جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٤٠٠هـ / ١٠٤٥م) قد ألف كتاب عجائب البلدان، أضف إلى ذلك وجود كتاب بعنوان عجائب المخلوقات، وهو قارسي، لمحمد بن محمود بن أحمد الطوسي، السلمي، وقد ألفه عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، ثم كتاب عجائب المخلوقات، وهو تركي، لمؤلف اسمه أحمد المعروف ببيجان، وقد ألفه ببلدة كليبولي في عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٨م، وأخيراً، هناك كتاب عجائب البحر للمولى علمشاه عبدالرحمن بن صاجلي أمير (ت ٩٨٧هـ / ١٥٨٨م)، ومن قبل ألف في ذات العنوان علي بن عيسى الحراني كتاباً للخليفة للقتدر. عن ذلك أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، ح-٢ / ق ١، ص ١١٢٦-١١٢٧.

وعلى الرغم من اشتها القزويني بتأليف كتابه، آثار البلاد وأخبار العباد، وكذلك عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، إلا أن حاجي خليفة يشير في كتابه إلى أن القزويني قد ألف كتاب عجائب البلدان، وقد أشار إلى أنه جعل أوله «العر لك، والجلال لكبرهالك»، والبحث انضح أن

هذه هي بداية كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، مما يدعوني إلى الاعتقاد بأن حاجي خليفة تصور أن كتاب القزويني عجائب البلدان كتاب ثالث، بينما في الواقع أن القزويني لم يؤلف كتاباً - على الأرجح - بذلك العنوان لتطابق بلميته مع ما أورده في مقدمة آثار البلاد. عن إشارة حاجي خليفة أنظر :

كشف القتون، ح ٢ / ق ١، ص ١١٢٦.

وقد أشار صالح دياب هندي، إلى أن من مؤلفات القزويني كتاب صفة الأرض، بيد أن ذلك لم يرد في المؤلفات المتخصصة في مجال الرحلة والجغرافيين للمسلمين في العصور الوسطى، أنظر ما ذكره :

صالح دياب هندي، دراسات في الثقافة الإسلامية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص ٢٣٠.

(٧) شوقي ضيف، للرجع السابق، ص ٢١.

(٨) حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافية، ص ٢٣٤.

(٩) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ب-ت، ص ١٤١، وهذا تجده من خلال وصفه لطيرة.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٤٠٨، وهو ما تجده من خلال وصفه لطرابلس الشام.

(١١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(١٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥) عن ذلك أنظر : الفصل الرابع، حاشية (١٢).

(١٦) القزويني، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(١٧) عن ذلك أنظر : الفصل الأول، حاشية (٣٨).

(١٨) محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص ٤٨٠؛ حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص ٢٥٧.

(١٩) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٦٥.

Northop, The Knights Templars, p. 45.

(٢٠) القزويني، المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١٧.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٣.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٥.

والنصيرية، فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام علي بن أبي طالب، رضى الله تعالى عنه، وقد زعموا أن الله تبارك وتعالى حل في الإمام. ويعتقدون أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون من قبل، وتصوروا فكرة الفيض الإلهي الذي حل في شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام علي. عن عقائد النصيرية أنظر بالتفصيل :

الرازي، اعتقادات فرق المسلمين وللشركين، تحقيق للنشار، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٦١؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨١-١٨٩؛ الحسيني عبدالله، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٢٧-٦٥؛ سليمان الطيبي، طائفة النصيرية، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

Dussaud, Histoire et religion des Nusairis, Paris 1900; Cahen, "Note Sur Les Origines de la Communité Syrienne de Nusayrie", R.E.I., T. XXX VIII, Année 1978, pp. 243-249; Hammer, "Tableau genealogique des Saixante Treize sectes de L'Islam", J.A., Vol. VII, Année 1915, p. 44.

(٢٧) القزويني، آثار البلاد، ص ١٨٥.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٠٨؛ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. بيروت ب-ت،

ص ١٥٣-١٥٤

(٣٠) من اغتيال شرف الدين مودود أنظر :

ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمين روتر، ص ١١٨٧، ابن عساكر، ولاية دمشق في العصر السلجوقي، تحقيق صلاح الدين للنجد، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٢٤)، ح- (٤)، عام ١٩٤٩م، ص ١٥٥١، كمال بن ماسي، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها في الحرب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩١م، ص ١٢٠٦، عفاف صبرة، الأمير مودود بن التوتكين أتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي، الدارة، العدد (٢)، السنة (١٢٠)، المحرم ١٤٠٧هـ / سبتمبر ١٩٨٦م، ص ١٣٠، عبدالتى رمضان، شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م (٤)، عام ١٩٧٦م، ص ١١٤٨، شاكر مصطفى، طفتكين رأس الأسرة البورية، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، العدد (١) عام ١٩٧٢م، ص ١٦١، عثمان عسري، الاسماعيليون في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص ١٧٥، حامد زيان، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٩٤، عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاية السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧م)، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ١٠٥.

Fink, "Mawdud of Mosul, precursor of Saladin", M.W., Vol. XLIII, 1953, p. 26.

(٣١) عن اغتيال أقتسر البرسقي أنظر :

ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ٢١٤، ابن الأثير، الباهر، ص ١٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ح- ١، ص ٢٣٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح- ١، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ح- ١٢، ص ١٩٥، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠٢، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح- ٤، ص ٦١، العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص ١٢٠، زكي نقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، ص ١٢٦، ١٣٢، حسن حبشي، نور الدين والصليبيون. ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ٢٢، رشيد الجميلي، دولة الأتابكة بالموصل بعد عماد الدين زنكي، ط. بغداد، ص ٤٤، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص ١٥٤، سعيد الديوجي، الموصل في العهد الأتابكي، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص ١٩.

Chen, La Syrie du nord à L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 304;
Lewis, The Assossins, p. 109; Runciman, A History of The Crusades, Vol. II,
p. 118; Stevenson, The Crusaders in the east, p. 118.

(٣٢) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تراجم الأمراء السلاجقة، تحقيق على سويم، ط. أنقرة
١٩٧٦م، ص ١٢٢-١٢٣.

Gibb, The Damassus chronicle of the Crusades, London 1958, p. 27;
Lewis, "The Ismailites and The Assassins", in Setton, A History of The
Crusades, Vol. I, pennsylvania 1955, p.111.

(٣٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ح ٢، ص ١٥١-١٥٢؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ح ٥،
ص ١١٢؛ السيد العزاوي، فرقة التزارية، معالمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية، ط. القاهرة
١٩٧٠م، ص ١٠٧.

(٣٤) القزويني، للمصدر السابق، ص ٣٠١.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٠٧. وعن علاقة نور الدين محمود بالاسماعيلية التزارية أنظر :

ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ٥٣٤؛ ابن الحنبلي الحلبي، الزهد والضرب في تاريخ
حلب، تحقيق محمد التوجي، ط. الكويت ١٩٨٨م، ص ٢٨.

Khayat, "The Sirte rebellions in Aleppo in the 6th A.H/ 12th A.D.
century", R.D.S.O., Vol. XLVI, 1971, p. 180-181.

(٣٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٧٧.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٣.

(٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٩.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٣؛ عواد مجيد الأعظمي، معالم التراث العربي الإسلامي في
فلسطين، ط. بتد ١٩٧٥م، ص ١٠٩.

(٤٤) القزويني، للمصدر السابق، ص ١٥١.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموي.

(٤٩) القزويني، للمصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(٥٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٨.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٣-١٨٤.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٩) عن مكانة صور في الصناعات الزجاجية أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 9

سر الختم عثمان، صور في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب،
جامعة القاهرة، عام ١٩٧١م، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٦٠) Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, p. 92-93.

(٦١) Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, The early

Travels in palestine, London 1848, p. 80.

ووليم الصوري William of Tyre، هو المؤرخ الرسمي لمملكة بيت المقدس الصليبية
خلال القرن الثاني عشر الميلادي، ولد في بيت المقدس في عام ١١٢٧م أو ١١٣٠م، وذلك
بعد أن أخضعها الصليبيون لسيادتهم السياسية، وينبغي أن نفرق بين اثنين من الأشخاص يحملان

نفس الاسم وليم الصوري، وهم الإنجليزي شغل وظيفة حارس للقبر للمقدس The Holy Sepulchre في بيت المقدس، ويلاحظ أن وليم الصوري مؤلف التاريخ الشهير المعروف باسم تاريخ الأعمال التي جرت فيما وراء البحر، وهو باللاتينية :

Historia rerum impartibus Transmarinis gestarum.

وترجمته بالإنجليزية :

History of The deeds done beyond The sea.

كان عارفاً بالرجل الإنجليزي الذي حمل نفس اسمه، وقد أورد ذكره في كتابه، وقد أظهر وليم الصوري منذ نعومة أظفاره حباً للعلم والتحصيل، ومن للتصور أنه التحق ببعض المدارس، التي كانت ملحقة بالأديرة والكنائس، والبعض منها بقصر الملك الصليبي، وقد أظهر ولماً كبيراً باللاهوت للمسيحي، على نحو جذب إليه أنظار العديد من رجال الكنيسة، ووصل في تدرجه إلى وظيفة رئيس أساقفة صور Archishop of Tyre، وأجاد عدة لغات مثل اللاتينية واليونانية والعربية، وأفاده ذلك في إلقاء كتابته التاريخية، وصار متصلاً بالملك الصليبي عموري الأول Amaury I (١١٦٣-١١٧٤م) ودعاه إلى تأليف تاريخه السالف الذكر، وله كتاب آخر مفقود، وهو خاص بتاريخ الأمراء الشرقيين وينتهي تاريخه الخاص بالأعمال التي جرت فيما وراء البحر بحوادث ما قبل معركة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، ويقال إن وليم الصوري قد مات مسموماً في عام ١١٨٤م / ٥٨٠هـ. عن وليم الصوري أنظر :

Krey, "William of Tyre, The making of an historian in The middle ages", Speculum, Vol. XVI, 1941, pp. 149-166; Edbury, "William of Tyre, A Historian of The Crusades and The kingdom of Jerusalem (1130-1184)", B.F.A.A.U., 1988, pp. 43-52.

عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، م (٢١)، عام ١٩٦٧م، ص ١٨١-٢٠٠، تقديم حسن حبشي للترجمة العربية لتاريخ وليم الصوري الحروب الصليبية، ج ١، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٩١م، ص ١٠-٤٠، السيد الباز العرنى، مؤرخو الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص ١٠١، سر الختم عثمان، صور في القرنين ١٢، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص ٣٣٩-٣٤٠، سمالي، للمؤرخون في العصر الوسطى، ت. قاسم عبد قاسم، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٨٦-١٨٧، جمال الدين الشيال، التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ط. بيروت ب-ت، ص ٧٠-٧٤، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٦٦٦هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، ص ٣٤، حاشية (١٧).

أما بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela، فهو الربى بنيامين Benjamin، ووالده يدعى يونا، وقد ارتحل إلى الشرق من مدينة طليطلة Tudelo، وقام بالتجوال في مناطق جنوب فرنسا، وإيطاليا، واليونان، ومصر واليمن والشام وغيرها من البلاد، ثم عاد أدراجه إلى أسبانيا في عام ١١٧٣م، ويقال إنه خلال ما يقرب من خمسة عشر عاماً زار ما يقرب من ثلاثمائة موضع في مختلف بقاع العالم للعمور حيثذاك، وقد اهتم بنيامين التطيلي في رحلته، بعرض أوضاع اليهود في مختلف البقاع التي زارها، ونشاطهم الاقتصادي لاسيما التجاري، والحرفي، وبعد بصفة عامة، أشهر رحلة يهودي في العصور الوسطى، عن بنيامين التطيلي ورحلته أنظر :

The Universal Eney., "Benjamin of Tudela", Vol. II, New York 1969, p. 180; E.J., "Benjamin of Tudela", Vol. IV, Jerusalem 1973, pp. 535-538; Wright, Early Travels in Palestine, London 1848, p. 63; Roth, A. Short History of The Jewish people, London 1953, p. 216; Tobler, Bibliographia geographia palestinae, Leipzig 1867, p. 17; Rührich, Chronologisches Verzeichnis der Auf die geographische der Heiligen Landes Bezuglichen Literatur, Von 333, Bis 1878, pp. 37-38; Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzüge, Hannover 1965, p. 65; Asher, The Tinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Vol. I, London 1840, pp 1-24.

وبلاحظ أن عزرا حنن قلم بترجمة رحلة بنيامين التطيلي، إلى اللغة العربية، وصدرت الترجمة المذكورة في بغداد عام ١٩٤٣، وهي ترجمة لا تزال تحتفظ بجانب كبير من أهميتها على الرغم من مرور نحو نصف قرن على صدورها، وذلك نتيجة للتعليقات الثرية التي أوردتها عزرا حنن في هوامش الترجمة على نحو أفاد الباحثين بشكل واضح، ومع ذلك، فإن رحلة بنيامين التطيلي تحتاج إلى دراسة أكاديمية عربية متخصصة لمعالجة كافة الجوانب التي تناولها ذلك الرحالة اليهودي لاسيما عن منطقة الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية.

والجدير بالذكر، أن صناعة الزجاج، لم تكن قاصرة على المناطق الخاضعة لسيادة الصليبيين السياسية مثل صور، وعكا، بل إن المدن الإسلامية هي الأخرى لودهرت بها تلك الصناعة، وتجدر أنه في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أشار ابن عساكر إلى وجود مسبك للزجاج في دمشق، وقد صنع من نوع خاص من الصخور الرملية، واحتاجت الأنواع البللورية منه إلى نسب ومقادير مختلفة من أكاسيد الرصاص، وبلاحظ أن بلاد الشام بصفة عامة احتوت على مواد صالحة للغاية لصناعة الزجاج استعملت منذ العصور القديمة. ومن أكثر المدن التي نشطت بها تلك الصناعة في عصر الحروب الصليبية، دمشق وحلب، وتمت صناعة ألواح زجاجية بأشكال هندسية جميلة. وتم تكوينها بالوان عديدة، وفي بعض الأحيان تم تزويدها بخيوط من الذهب والفضة. ولذلك سمعنا عن الزجاج المذهب، ومن الزجاج صنعت الأقداح

والأواني وللشكاوات ونحو ذلك ويوجد في المتحف الوطني بدمشق العديد منها. عن ذلك أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م (٢)، ص ٦٢، أبو الفرج العشي، المتحف الوطني بدمشق، ط. دمشق ١٩٦٩م، ص ٣٠١، أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٣٠٨، كرتي، تراث الإسلام، ج ٢، ت. زكي حسن، ط. القاهرة ١٩٣٦م، ص ٥٣-٥٤، ديماند، الفنون الإسلامية، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص ٢٣٥، أحمد فكري، فن العمارة والمتحف الفنية، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، ط. القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٤٤١، جابر الشكري، لمحات من مآثر العراق العلمية في الكيمياء، ط. بغداد ١٩٨٥م، ص ١٣٩، عبدالعزيز الدوري وناجي معروف، موجز تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م، ص ٨٠، أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط. الكويت ١٩٧٥م، ص ٢٤٥.

(٦٢) القزويني، للمصدر السابق، ص ١٨٤.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩١.

(٦٤) عن الديار الصوري أنظر :

أسامة سيد علي، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر للميلاد / الأسس الهجرى ودوره في الصراع الإسلامى الصليبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م، ص ١٩٦، مصطفى الكنتاني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (١١٧١-١٢٩١م / ٥٦٧-٦٩٠هـ)، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص ٣١١-٣١٥، حسان حلاق، لعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٢٢٢.

(٦٥) القزويني، للمصدر السابق، ص ١٩١، جميل نخلة مدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٢١.

(٦٦) القزويني، للمصدر السابق، ص ١٩١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٤.

(٦٨) عن وسائل التسلية في المجتمع الإسلامى في بلاد الشام في ذلك العصر أنظر :

ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق ماهر حمادة، ط. القاهرة، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى، ص ٢٩٠-٣٠٦، عبدالحميد يونس، خيال الظل، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص ٩-١١.

٤ - ابن شداد

(ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الجغرافيين للمسلمين البارزين؛ الذين انجبتهم بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ونعنى به عز الدين بن شداد الحلبي^(١) (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، ويتطرق الفصل إلى العديد من الجوانب تتعلق بحياة ابن شداد، وتطورها بين الشام، ومصر، وأهم مؤلفاته، وكذلك الجوانب المختلفة التي تعرض فيها لأوضاع بلاد الشام خلال تلك المرحلة الهامة والمؤثرة من تاريخها في العصور الوسطى.

وابن شداد، هو عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد بن إبراهيم بن شداد، أبو عبدالله الأنصاري الحلبي، وقد ولد في مدينة حلب بشمال الشام، وذلك في عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وظل هناك حتى تعرضت بلاد الشام لكافة الغزو المغولي لها، وعندما واجهت حلب ذلك الخطر الداهم عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، لاذ عز الدين بن شداد بالفرار^(٢)، ولجأ إلى مصر.

وجدير بالذكر، أن ابن شداد، قد شغل في سنوات شبابه للبكرة مناصب إدارية لدى الأيوبيين، ووصف بأنه كان خبيراً بالجوانب المتعلقة بالميزانية، والمالية^(٣)، الأمر الذي أفاده بشكل واضح عندما تصدى بالكتابة عن الجوانب الجغرافية المتصلة ببلاد الشام.

مهما يكن من أمر، فإن ابن شداد، قد حظى فى مصر برعاية سلاطين المماليك مثل الظاهر بيبرس^(٤)، والمنصور قلاوون، وقد زار دمشق فى عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة حيث توفى بها عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م^(٥).

وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات ذات الطابع التاريخى، أو الجغرافى، من ذلك كتابه جنى الجنتين فى أخبار الدولتين^(٦). ثم كتاب تاريخ العز ابن شداد فى سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس^(٧). وكذلك كتاب القرعة الشدادية الحميرية، أو تحفة الزمن فى طرائف أهل اليمن^(٨)، ثم كتاب كروم الذهب فى تفسير السبع المثاني^(٩) - وهو كتاب فى مجال التفسير كما يتضح من عنوانه - بالإضافة إلى كتابه الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة^(١٠).

والواقع إن نظرة متأنية لتلك المؤلفات تكشف لنا عن تعدد المواهب التأليفية لابن شداد، إذ أنه ألف مؤلفات فى التاريخ، والجغرافيا التاريخية، والتفسير، وتعددت المجالات الجغرافية الإقليمية لمؤلفاته، فقد تناول بلاد الشام والجزيرة، وكذلك اليمن، ولم يجعلها قاصرة على نطاق جغرافى محدود، كما أنه تجاوز عصره وانتقل إلى العصور القديمة.

وبصفة عامة، فإن أهم مؤلفات ابن شداد التى تفيدنا فى دراستنا هذه، كتابه الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، وقد استغرق فى تأليفه مدة زمنية طويلة خلال الرحلة الواقعة من عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م إلى عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م^(١١)، وهو فى ذلك، يتشابه مع ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، الذى ألف كتابه الشهير معجم البلدان بعد عشر سنوات من البحث والتقصي^(١٢).

وكتاب الأعلام الخطيرة، ليس هو الأول من نوعه من بين المؤلفات الجغرافية العربية الذى يكون عنوانه «الأعلام» فمن قبل ذلك نجد أحد الجغرافيين المسلمين ونعنى به ابن رسته، قد ألف كتابه بعنوان «الأعلام النفيسة»^(١٣). وإن كان تعبير

«الخطيرة» في عنوان ما ألفه عز الدين بن شداد يعكس - أول ما يعكس - ثقة مؤلفه في ما ألفه خاصة أنه استغرق منه في تأليفه قرابة العقد من الأعوام.

وبلاحظ أن ذلك الكتاب اهتم فيه مؤلفه بوصف الظواهر الجغرافية، والطوبوغرافية، ثم تبع ذلك تناول التاريخ السياسي، لتلك المناطق التي تصدى بالكتابة عنها.

ويرى أحد المستشرقين ما نصه «أن التأثير النشط الذي خلقت به خبرات الصليبيين التاريخية عن الحياة الفكرية في سوريا تجلّى في مؤلف آخر عن التاريخ المحلي السوري ألا وهو، أعلام الحاضرة في أمراء وحكام الشام والجزيرة لابن شداد»^(١٤).

والواقع أن هذا التصور لا ينطبق على الواقع في شيء لعدة اعتبارات، إذ أن الصليبيين لم تتفوق لديهم المعارف التاريخية بالصورة التي تجعل المسلمين يفيدون منها، بل إن الأمر للعكس هو الذي حدث، إذ أنهم أفادوا من تجربة المسلمين التاريخية وتجلّى ذلك بصورة واضحة لدى مؤرخهم الأشهر، وليم الصوري William of Tyre، الذي كان يجيد اللغة العربية واطلع على المؤلفات التاريخية العربية وأفاد منها. بالإضافة إلى أن الصليبيين أصلاً قدموا إلى المنطقة كغزاة محاربين لا كأصحاب توجه فكري أصيل، ويعكس الرأي السابق رغبة ذلك الباحث في إضفاء قيمة فكرية على تجربة الاستيطان الصليبي في بلاد الشام الأمر الذي تنكره الوقائع التاريخية، ناهيك عن أن ذلك الباحث أورد عنوان ما ألفه ابن شداد خطأً، والصواب ما أسلفت ذكره، ألا وهو الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

أيًا كان الأمر، فهناك زاوية أخرى تتصل بكتاب الأعلام الخطيرة، ألا وهي أن عددًا من الباحثين قد جعلوه لمؤرخ آخر، وهو بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م)^(١٥) مؤلف النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين^(١٦). والواقع أن ذلك التصور جانب الصواب تمامًا، لأن بهاء الدين بن شداد لم يطل به العمر حتى عصر الظاهر بيبرس، وإنما عاصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، أي أن

بهاء الدين بن شداد ينتمى إلى العصر الأيوبي، بينما عز الدين بن شداد ينتمى إلى العصر المملوكي ثم إن الأول عاش خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وجزء من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ بينما عاصر الثاني القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي فقط.

على أية حال، فإن هناك ناحية هامة يتطلب الأمر التعرض لها، ألا وهي المصادر التي اعتمد عليها عز الدين بن شداد في تأليفه لكتابه الأعلام الخطيرة، ولا نزاع في أن كتاباً متعدد الأجزاء يستغرق من مؤلفه نحو عشر سنوات؛ من أجل تأليفه؛ من المنطقي تصور تعدد وتشعب المصادر التي اعتمد عليها ذلك المؤلف؛ من أجل انجازه في النهاية بالصورة التي وصلت إلينا.

ومن الممكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها ذلك الجغرافي والمؤرخ من أجل تأليف كتابه إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ وهي المصادر المكتوبة، والمصادر الشفهية، ثم المعاينة، والمشاهدة، وأكثر المصادر أهمية في كتاب هي المصادر المكتوبة، إذ اعتمد على كم كبير من المؤلفات الجغرافية، والتاريخية السابقة على عصره، والمعاصرة له، أما المصادر الشفهية فقد جعلها مستمدة من كبار العلماء، والفقهاء، ورجال الحكم مما عكس أهميتها، وفيما يتعلق بالمعاينة، نجد أنه جعلها بصورة ما مرتبطة بالمزارات، وأماكن المقدسات الدينية.

وبالإضافة إلى المصادر السابقة، هناك ما يمكن وصفه بمصادر مجهولة اعتمد عليها عز الدين بن شداد؛ دون أن يحددها، وإن كانت مصادر مكتوبة أو شفهية.

أما المصادر المكتوبة، فهناك مصادر جغرافية؛ ثم مصادر تاريخية، ومن أمثلة المصادر الجغرافية، هناك اليعقوبي^(١٧)، وكتابه البلدان، ثم البيروني^(١٨)، وكتاب القانون المسعودي، ثم المهني^(١٩)، وما ألفه تحت عنوان المسالك والممالك، هذا بالإضافة إلى

الهروى (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)، وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، ثم ابن جبير (٢٠) (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م) ورحلته الشهيرة.

زد على ذلك، أمر المصادر التاريخية وهي متنوعة، سواء من عصر سابق على عصر عز الدين بن شداد أو من جانب مؤرخين ارتبطوا بالقرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م.

وفى هذا المجال، نجد أفاد من محبوب بن قسطنطين في صورة تاريخه^(٢١)، ثم أنه استعان بما ألفه البلاذرى في صورة كتابه فتوح البلدان^(٢٢)، ثم العظمى^(٢٣) (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) في تاريخه، كذلك ابن عساكر^(٢٤) (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) صاحب تاريخ مدينة دمشق، بالإضافة إلى إفادته من ابن العديم الحلبي (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) وكتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب، ثم ابن أبي طى (ت ق ٧هـ / ١٣م) في مؤلفاته مثل تاريخ حلب، وعقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر، كذلك أفاد عز الدين بن شداد من الكامل لابن الأثير الجزرى^(٢٥) (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).

وهكذا تعددت مصادر ذلك الجغرافى المكتوبة، على نحو أثرى كتابه بصورة واضحة، ومع ذلك يثير المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ناحية لا تخلو من أهمية، ويقول ما نصه «إنه - أى عز الدين بن شداد - لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت، ومهما يكن من شىء فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة»^(٢٦).

والواقع أن كراتشكوفسكى قد أثار تساؤلا ولم يقدم التعليل له. كما أنه تصور أمرا من الممكن الاختلاف معه بشأنه.

فمن المستبعد تماما، أن يكون كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) مجهولا لعز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، وكل منها شامى الإقامة لاسيما فى حلب حاضرة شمال الشام الكبرى، وإن امتاز عز الدين بن شداد عن

ياقوت بأنه ولد، ونشأ في حلب، كما أن المرحلة الزمنية بينها لم تكن طويلة، ومن المرجح أن كتاب ياقوت معجم البلدان كان متوافراً في عدة نسخ مخطوطة عندما تصدى عز الدين بن شداد لكتابه الأعلام الخطيرة، وبالتالي فإن تصور ذلك المستشرق ليس من اليسير قبوله أو تصوره منطقياً، خاصة إذا ما لاحظنا أن أبا الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م). ولا يوجد فارق زمني كبير بينه، وبين عز الدين بن شداد نجده يستعين بما ألفه ياقوت الحموي.

نخلص من ذلك إلى القول، إن معجم البلدان كان متوافراً في بلاد الشام، والمرجح أن عز الدين بن شداد كان عارفاً به - وهو العلم الجغرافي الذي أفاد من عشرات المؤلفات الجغرافية السابقة عليه والمعاصرة له - مع علم إغفال أهمية المصادر التاريخية بالطبع وإن تعمد - على ما يبدو - علم الاستعانة به، وتعليل ذلك أنه أراد ألا يكثر من الإفادة به فلا يكرر معجم البلدان، أو لعله أراد أن يتنافس ياقوت في كتابه بتأليف كتاب آخر خاص ببلاد الشام، والجزيرة، ورأى أن الأفضل تجنب الإشارة إلى معجم البلدان، ولعل في ذلك التعليل المرجح لعدم استعانة عز الدين بن شداد بمعجم البلدان الذائع الصيت.

أما المصادر الشفهية، فنجد أمثلتها في صورة أنه يذكر على سبيل المثال حكى القاضي الحسن بن موج القوعي^(٢٧)، أو أخبرني زين الدين عبد الملك بن عبد الرحمن ابن العجمي الحلبي^(٢٨)، أو أخبرني الرئيس بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب الحلبي^(٢٩).

ومن الجلي الواضح أن للمصادر الشفهية؛ جاءت قليلة بالنسبة للمصادر المكتوبة الثرية التفاصيل.

وإذا توجهنا إلى المعاينة والمشاهدة مجدها في زاوية المزارات وفي هذا المجال نجده يقرر عند حديثه عن قبر أبي عبيدة بن الجراح في غور نابلس «وقد زرناه بطبرية»^(٣٠).

وبالإضافة إلى ذلك، هناك مصادر مجهولة، غير محددة وذلك مجده بالنسبة للكتب وكذلك للرواة، يقول في أحد المواضع «وجدت في بعض الكتب»^(٣١) أو «ذكر أرباب التاريخ»^(٣٢) دون أن يحدد عنوان الكتاب ومؤلفه، أو أن يقول «ذكر بعض جماعة»^(٣٣) ومع ذلك فمثل تلك المصادر قليلة ونادرة. وبصفة عامة حرص عز الدين بن شداد على إيراد أسماء الكتب ومؤلفيها بدقة ونادراً ما لجأ إلى المصادر المجهولة سواء كانت مكتوبة أو شفوية.

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد حرص على إيراد العديد من القصائد الشعرية ضمن تناوله للأحداث التاريخية المختلفة، ولذا من الممكن القول إن الشعر يعد أحد الجوانب المهمة في منهجية عز الدين بن شداد في كتابه الأعلام الخطيرة، ومن أمثلة ذلك إirاده لقصيدة أبي بكر الصنوبري في مدحه لمدينة حلب وذكره فيها المسجد الجامع^(٣٤). ويبدو أنه نفسه كان ذواقاً للشعر، دون أن نعرف أقرضه أم لا، بدليل كثرة الشواهد الشعرية في كتابه.

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الجغرافي والمؤرخ قد حرص على استغلال الجانب الوثائقي في كتابته نظراً لإدراكه لأهمية الوثائق في كتابة التاريخ، مع ملاحظة أن منهجيته ارتبطت بنوع من الكتابة توصف بأنها جغرافياً تاريخية لمناطق بلاد الشام والجزيرة، وفي هذا المجال، نجد أنه استعان ببعض الوثائق، ومن أمثلتها رسالة القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني؛ في فتح بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م^(٣٥)، وكذلك خطبة القاضي محيى الدين بن الزنكي حين تم فتح القدس من الناصر داود^(٣٦)، ثم نص إحدى الرسائل المرسلة إلى الخليفة المستنصر العباسي^(٣٧)، إلى غير ذلك من النصوص الوثائقية الهامة.

الصفة البارزة بالنسبة لكتابة عز الدين بن شداد أنه يوصف بالأمانة العلمية، والدقة في التحري، والتوثيق المصدري، إذ أنه عندما لا يجد ضالته في المصادر المتوافرة تحت

يديه؛ يعلن ذلك صراحة دونما مواربة، من ذلك أنه عندما تحدث عن طرابلس في مرحلة من مراحل تاريخها أشار إلى أن عدداً من ولاياتها «لم يتصل بي مدد إقامتهم في الولايات» (٢٨)، كذلك عندما كان يبحث عن تاريخ حصن من الحصون ولم يحالفه التوفيق في تتبع أصوله الأولى يصرح بأنه «لم أعثر له على ذكر في كتاب من كتب التواريخ المصنفة في صدر الإسلام» (٢٩).

وبصفة عامة، نجد أن عز الدين بن شداد قد تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام على نحو جعله ويحق واحداً من أهم الجغرافيين المسلمين في بلاد الشام على مدى القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر، والثالث عشر الميلادي.

ومن أمثلة ذلك تناوله لمدن الساحل الشامي المتعددة، ثم النشاط الاقتصادي في بلاد الشام من كافة جوانبه، وكذلك المعارك والعمائر الحربية في صورة القلاع والحصون، سواء الإسلامية أو الصليبية، ثم للزارات الدينية المختلفة، والخريطة المذهبية لبلاد الشام في ذلك العصر، ثم العمائر الدينية والتعليمية.

وقد احتل الساحل الشامي أهميته الخاصة الجديرة به، لدى عز الدين بن شداد، شأنه في ذلك شأن غيره من الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام أو الذين أنجبتهم أصلاً تلك البلاد، ومن للملاحظ هنا أن ذلك الجغرافي ظهرت بهجاء عاطفته الدينية خاصة عند تناوله للمدن التي كانت خاضعة لسيادة المسلمين السياسية ثم أخضعها الصليبيون من بعد ذلك، وظلت في قبضتهم، ومن ثم ظهرت عباراته الداعية إلى أن تعود ضمن ديار الإسلام من جديد، فعبر بذلك عن شعور إسلامي عام.

ونجد أنه تعرض لمدينة عكا فأشار إلى إتساع أرجائها، وكثرة ضياعها، وأن لها ميناء مأمونا^(٤٠)؛ وقد عبر تعبيراً دقيقاً عن أهميتها ومكائنها من خلال قوله أنها «قل بلاد الساحل وقصبتها ما فيه من الحصون والمعقل»^(٤١)، فإذا ما لاحظنا أن ذلك الجغرافي

يكتب تلك العبارات في سبعينات القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، أدر كنا أن تلك المدينة كقلب تجارى للكيان الصليبي ظلت تتمتع بتلك المكانة المتميزة دون أن تنازعها مدينة أخرى وذلك على امتداد تاريخ الوجود الصليبي فى بلاد الشام.

وعز الدين بن شداد جغرافى نتاج عصره، بأحاسيسه الدينية الجياشة، وتشوقه للجهاد، ويتضح ذلك بجلاء من خلال تناوله لمدينة عكا إذ يذكر أنها لاتزال فى قبضة الصليبيين وقت تأليفه لكتابه الأعلام الخطيرة، وينهى عبارته بقوله : «يسر الله فتحها، وسنى للملة الإسلامية، نجحها» (٤٢).

كذلك تعرض لعدد من المدن الشامية الساحلية بدرجات متفاوتة من الأهمية، من ذلك تناوله لمدينة صور وإشارته الضمنية لمناعتها التقليدية عندما ذكر أن البحر يحف بها بثلاث جهات (٤٣). وقد أشار إلى استمرار خضوعها للصليبيين وتمنى لها ذات الأمانة التى تمنى لها من قبل لعكا (٤٤).

وكامتداد لتناوله لحصانة صور، وجدناه يشير إلى مناعة وحصانة كل من يافا، وقيسارية، فوصف الأولى بأن لها سوراً محكم البناء (٤٥)، أما الثانية فوصفها بالمنعة (٤٦).

وبلاحظ أن ذلك الجغرافى الحلبى حريص على إبراز إتساع مظاهر العمران فى المدن الساحلية الشامية، من ذلك أنه عندما تعرض لمدينة صيدا بجنوب لبنان أشار إلى أن لها أربعة أقاليم وأنها متصلة بجبل لبنان واشتملت على نيف وستمائة ضيعة (٤٧)، وتفيد إشارته فى توضيح أن تلك المدن الساحلية لم تكن مراكز تجارية فقط بل أنها مثلت أهمية أخرى من خلال كونها مراكز عمرانية هامة ذات ثقل فى حجم كثافتها السكانية المرتفعة نسبياً كما هو متوقع.

وهناك ناحية هامة، أوردها عز الدين بن شداد بشأن الساحل الشامى، ألا وهى أن

مدنه علت موانع تصدير للمدن الشامية البرية الحبيسة، وهو أمر أوضحه من قبل في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م الإدريسي، وفي هذا الصدد أشار عز الدين بن شداد إلى أن حيفا، تعد في زمانه ميناء طبرية^(٤٨)، وهكذا أكد في القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. استمرار تلك الظاهرة الحيوية التي أعنى بها ارتباط المدن الشامية البرية والساحلية مع بعضها البعض من خلال المصالح المتبادلة المشتركة، وتكرر ذات الأمر من خلال أن بيروت علت ميناء دمشق^(٤٩) مثلما أوضح ذلك في الأعلام الخطيرة.

أما الزوايا الاقتصادية لدى ذلك الجغرافي فهي تعد قليلة ونادرة؛ إذا ما قارنا أمرها بالجوانب الأخرى التي فصل الحديث بشأنها، وإشاراته في هذا المجال توصف بأنها عرضية موجزة، من ذلك تناوله للنشاط الزراعي في طرابلس وذكره لزراعة قصب السكر في طرابلس^(٥٠)، ومن المعروف أن الصليبيين قد عرفوا قصب السكر في تلك المنطقة وأفادوا منه في تصنيع السكر. أما الثروة المعدنية فقد أشار إلى توافر معدن الحديد بالقرب من بيروت^(٥١) وهي إشارة تقليدية طالما تكررت في مصادر ذلك العصر الجغرافية.

أما على المستوى الصناعي فقد أشار إلى صناعة الزجاج في صور، وقد وصفه بأنه «محكم»^(٥٢)، وكذلك صناعة الفخار بها^(٥٣)، وهو أمر كان قد أشار إليه من قبل، ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وفيما يتصل بالزوايا التجارية نجد أنه أشار إلى ثراء بعض المدن الشامية الداخلية نتيجة اشتغال أهلها بالتجارة بالطبع ومن أمثلة ذلك معرة مصرين إذ وصفها أهلها بأنهم «ذوو يسار، وأموال، وأملاك»^(٥٤)، ومنطقي أن ذلك تأتي لهم من خلال اشتغالهم بالتجارة مع المدن الشامية الداخلية الأخرى.

زد على ذلك، أن عز الدين بن شداد، قد أشار ضمناً إلى تجارة معينة في صيدا في جنوب لبنان وهي خاصة بنوع الأسماك الذي يفيد في الناحية الجنسية^(٥٥)، ويكاد

نصه في هذا الصدد يتطابق مع نص الإدريسي، الذي أورده في نزهة المشتاق^(٥٦)، وهكذا فإن بعض المظاهر التي ردها الجغرافيون المسلمون في القرن السابق، على عصر عز الدين بن شداد ونعني به القرن السادس هـ / الثاني عشر م، وجعلناها تتأكد، وتكرر في القرن التالي، ونعني به القرن السابع هـ / الثالث عشر م؛ على نحو أكد شهرة ذلك النوع من الأسماك كسلعة تجارية أثبتت جودتها بشهادة الجغرافيين المسلمين وعلى مدى طويل.

وهكذا، جاءت إشارات عز الدين بن شداد للجوانب الاقتصادية محدودة، وإن لم تفقد الأهمية، خاصة أنها أكدت رؤية سابقة لجغرافيين مسلمين؛ قدموا إلى بلاد الشام في مرحلة سابقة على عصر ذلك الجغرافي المحلي.

أما إذا ما انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الهامة التي أوردها عز الدين بن شداد عن بلاد الشام، خلال ذلك العصر، فهناك الجانب الحربي، سواء ما اتصل بالمعارك الحربية، أو القلاع، والحصون لدى الجانبين الإسلامي، والصليبي.

وفي هذا الصدد نجد أن عز الدين بن شداد قد أورد عدداً من المواجهات الحربية بين المسلمين والصليبيين لاسيما خلال عهد السلطان نور الدين محمود ومواجهته للصليبيين.

ولعل أهم الأحداث الحربية التي أوردها في هذا الصدد تناول عز الدين بن شداد لمعركة أنب عام ٥٤٤ هـ / ١١٥٩ م^(٥٧)، وكذلك أسر الأمير الصليبي جوسلين الثاني عام ٥٤٥ هـ / ١١٦٠ م^(٥٨)، ثم معركة حارم عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م^(٥٩).

وبلاحظ أن تناول ذلك الجغرافي لتلك الأحداث قد اعتمد فيه على المصادر المعاصرة، ولنا قلم يورد إضافات جديدة تذكر عما قد ورد بشأنها، ومع ذلك من المهم أن نذكر أهم ملامحها لما لها من فائدة.

وتعد معركة أنبا^(٦٠) من المعارك الهامة في صراع السلطان نور الدين محمود ضد إمارة أنطاكية الصليبية، وقد جرت وقائعها في صفر عام ٥٤٤هـ / يونيو ١١٤٩م، وفيها تم النصر للمسلمين وهزم الصليبيون، وقتل راييموند دي بواتيه أمير أنطاكية، وعدد من كبار القادة الصليبيين^(٦١)، ومن الملاحظ أن نور الدين محمود قد تلقى دعماً عسكرياً من جانب دمشق، وإن وقفت عناصر الاسماعيلية النزارية إلى جانب الصليبيين، ولقى قائلهم علي بن وفاء مصرعه في ساحة للمعركة^(٦٢).

وجدير بالذكر، أن انتصار أنب يعد من أهم انتصارات ذلك القائد المسلم خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه، ويعد البعوض نقطة تحول في صراعه مع الصليبيين وقد أكسبه انتصاره حيناً كبيراً.

أما فيما يتصل بأسر أمير الرها جوسلين الثاني عام ٥٤٥هـ / ١١٦٠م، ومن المعروف أن تلك القيادة الصليبية كثيراً ما واجهت نور الدين محمود وأوجدت مقاومة صليبية ضد المسلمين، وقد وقع صدام حربي بين نور الدين وجوسلين الثاني عندما حاول الاستيلاء على أملاكه الصليبية وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين محمود عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، بل إنه أسر بعض قادة الجيش النوري، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لا تقدم إشارات كافية عن تلك الهزيمة على نحو يدعو للاعتقاد بأنها كانت فادحة.

وقد أدركت القيادة النورية خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثاني بأن يتم أسره، وبالفعل تم ذلك في نفس العام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٦٣)، وتم تسميل عينيه، وأودع السجن، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام، أدركته منيته بعدها عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٦٤).

ولا ريب، في أن أسر جوسلين الثاني يعد من الأحداث الهامة في صراع نور الدين

مع الإمارات الصليبية، حيث عرفت عنه البسالة في قتال المسلمين، وكانت النتيجة المباشرة لأسره هي سقوط أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب، واعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، ودلوك، ومرعش وغيرها من الأملاك^(٦٥). في قبضة الجيش النورى.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد المدة الزمنية التي استغرقها إسقاط قلاع وحصون وأملاك جوسلين الثانى، فذكر البعض أن ذلك حدث فى أيام يسيرة^(٦٦)، بينما تصور آخرون أنه حدث خلال عام^(٦٧)، وقرر ابن الوردي أنها مدة يسيرة^(٦٨) ولكن اعتماداً على نص صريح لابن العديم، أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات، ربما بلغت الخمس، يقول «فى ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح تل باشر، وتل خالد، وفتح عين تاب سنة خمسين، وفتح قورس والراوندان وبرج الرصاص...»^(٦٩) وما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلائسى والعماد الأصفهائى، لا يبرزان إلا سقوط عزاز عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٧٠)، مما يدل على أن القلاع والمناطق الأخرى سقطت - على الأرجح - بعد ذلك، ثم أن دلوك مثلاً استولى عليها نور الدين عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م^(٧١).

أما معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م^(٧٢)، فهي من أعنف المواجهات الحربية بين نور الدين محمود، والصليبيين، ومن حالفهم، وقد اشتركت فى مواجهة المسلمين، القوى الصليبية والبيزنطية، والأرمنية.

ومن الملاحظ أن اشتراك القوى الصليبية مرجعه الرغبة فى تخجيم خطر نور الدين الذى تزايد من خلال هجماته على إمارة أنطاكية، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد سعت إلى المشاركة فى مواجهة نور الدين نظراً لأطماعها بأنطاكية من قبل الغزو الصليبي للمنطقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وأراد الأرمن هم أيضاً، جنى ثمار مشاركتهم فى المعركة فى حالة الظفر.

وقد اغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عمورى الأول فى مصر لتنفيذ مشروعه الصليبي هناك، وهاجم إمارة أنطاكية^(٧٣)، وطبيعى أنها حرمت من العون العسكرى الكبير الذى كان من الممكن أن يقدمه لها، ويقال - وفقاً لرواية ابن عساكر وغيره - إن القوات المتحالفة بلغت ثلاثين ألفاً^(٧٤) - وعلى الرغم من طابع المبالغة الرقمية الذى اعتادته المصادر التاريخية خلال ذلك العصر، إلا أن ذلك الرقم عكس الأهمية التى علقها التحالف المسيحي على الصدام مع الدولة النورية حينذاك، وقد تلقى نور الدين دعماً قوياً من المناطق المجاورة، وبخاصة من جانب أخويه نصرة الدين وقطب الدين وكذلك من زيد الدين كوجك حاكم أربيل وحاكم سنجار وابن عم مجد الدين وسيف الدين صاحب فيج^(٧٥)، وقد كلل جهد الجيش النورى بالنجاح وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف^(٧٦)، ويقال إن الأسرى قد بلغوا ستة آلاف من كبارهم^(٧٧) ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث Bohemond III (١١٦٣-١٢٠١م / ٥٥٨-٥٩٧هـ) وأمير طرابلس ريموند الثالث Raymond III (١١٥٢-١١٨٧م / ٥٤٣-٥٨٣هـ) وأمير تل باشر جوسلين الثالث Joselin III، وأمير قليقية Cilicia قسطنطين كارلومان Constantine Carloman، وهيو دى لوزينيان^(٧٨)، بينما فر تورس الأرمني من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين، ولم ينصت الصليبيون إلى نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عمورى من مصر^(٧٩).

ولا نزاع فى أن موقعة حارم أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية - الأنطاكية، فقد مثلت انتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبي فى شمال الشام، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح، وسلبتها قيادات هامة، وحق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة^(٨٠)، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب، إذ استولى على حارم، وعمل على الإغارة على مناطق أنطاكية بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده، وبلغت قواته اللاذقية وسعى إلى اكتساب مغانم وفيرة من

أعدائه^(٨١)، وانتهاز فرصة غياب عمورى فى مصر واستولى على باتيلاس بعد ذلك بشهرين^(٨٢).

ومن جهة أخرى، تعرض عز الدين بن شداد لأمر القلاع سواء الصليبية أو الإسلامية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، وقد حرص على التعرض لتكوينها الأخرى، بالإضافة إلى تعاقب القوى السياسية المسيطرة عليها، وفى هذا المجال تجده يتميز بصورة واضحة عن غيره من الجغرافيين المسلمين فى بلاد الشام فى ذلك العصر، الذين قدموا مجرد إشارات موجزة، ونادرة، عن تلك القلاع، والحصون على الرغم من أهميتها المتزايدة فى ذلك العصر، وفى قضية المواجهة الحرة الإسلامية/ الصليبية.

والجدير بالذكر هنا، أن قيمة عز الدين بن شداد فى إبراد العمائر الحرة تجعله، لا يتفوق على الجغرافيين للمسلمين فى ذلك العصر، بل وحتى مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين قدموا إشارات بالغة الاقتضاب والندرة بشأن تلك القلاع، ولا ريب فى أن ذلك كله من شأنه أن يزيد من قيمة النصوص التى أوردها ذلك الجغرافى الحلبى بشأن تلك القلاع، والحصون؛ وعلى نحو يعكس أيضاً إدراكه الشخصى لأهمية دورها فى المواجهة بين المسلمين، والصليبيين فى ذلك العصر.

مهما يكن من أمر، فإن عز الدين بن شداد قد أورد تناولاً هاماً لأحد الحصون الصليبية البارزة، ونفى به حصن الأكراد Crac des chevaliers، وقد ذكر أمر حصاته بأن أشار إلى أن له ثلاثة أسوار وثلاث باشورات^(٨٣)، كما أوضح أن الفرغ كانوا فيه لا يكثرلون بالجيش مهما كان عددها، ومنه كانوا يشنون الغارات تلو الغارات، ويدركون الثأرات^(٨٤).

ومن المعروف أن حصن الأكراد قد وقع على طريق القوافل الواقعة فى الشمال من حمص، وحماة من جهة، وطرابلس وأنطرسوس من جهة أخرى^(٨٥)، وذلك فى وادى النهر الكبير^(٨٦)، ووقع على بعد مائتين وأربعين كيلو متراً من مدينة دمشق، ومائة

وأربعين كيلو متراً من طرابلس^(٨٧)، وأربعين كيلو متراً من حمص^(٨٨)، وبذلك احتل موقعا استراتيجيا ممتازا.

وهناك من يقرر أن حصن الأكراد سمي بتلك التسمية نسبة إلى صلاح الدين ورجاله وهم من الأكراد^(٨٩)، بيد أن هذا الرأي لا ينطبق على الواقع في شيء، إذ أن التسمية ذاتها كانت موجودة حتى من قبل العصر الأيوبي وتجدد في مصادر تاريخية سابقة زمنياً على ذلك العصر^(٩٠). ومن المرجح أنها وجدت منذ عهد المرداسيين عندما عهدوا بأمر ذلك الحصن لمجموعة من الأكراد فعرف بحصن الأكراد.

وقد اتصف حصن الأكراد بالحصانة والمنعة واحتوى على ثلاثة أسوار^(٩١)، وثلاث باشورات^(٩٢)، وقد استولى الصليبيون على الحصن المذكور في عام ١١١٠م/ ٥٠٣هـ^(٩٣)، الأمر الذي أدى إلى زيادة قوتهم في المنطقة التي وقع فيها ذلك الحصن.

وقد حصلت هيئة الاستبارية Hospitallers على حصن الأكراد في عام ١١٤٢م/ ٥٣٧هـ على الأرجح^(٩٤)، وحاول الأيوبيون إخضاعه دون جدوى، وكان سقوطه في قبضة المسلمين في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري وذلك في شعبان عام ٦٦٩هـ/ أبريل ١٢٧١م^(٩٥).

والجدير بالذكر أن عز الدين بن شداد يقدم لنا مادة تاريخية قيمة فيما يتصل بظروف سقوط حصن الإكراه، وذلك من خلال معاصرته لتلك الأحداث وارتباطه بالسلطان الظاهر بيبرس الذي خصه برعايته مثلما أسلفت الإشارة من قبل.

وقد ذكر أن السلطان الظاهر بيبرس نزل على الحصن المذكور، ونصب عليه المجانيق^(٩٦) وغيرها من أدوات الحصار وواصل مواجهة الصليبيين به إلى أن تمكن المسلمون من هدم الأسوار، ثم أعقب ذلك، سقوط الباشورات^(٩٧)، ويشير ذلك

الجغرافى إلى أن العساكر قد دخلوا الحصن بالسيف «وقتلوا من فيه من الاستيمار» (٩٨) وقام السلطان بالعفو عن عناصر الفلاحين وذلك من أجل القيام بإعادة تعمير المنطقة التى (٩٩) أصابها التخريب من خلال المواجهة الحربية بين المماليك والصليبيين.

وبالإضافة إلى ذلك، تناول ذلك الجغرافى أحد الحصون الصليبية الهامة فى جنوب مملكة بيت المقدس الصليبية ونعنى به حصن الكرك، وقد أوضح أنه كان ديراً للمسيحيين (١٠٠)، وأن الصليبيين زادوه تحصيناً، وتناول مناعته، وحصانته، وذكر أن له رضى عليه سور، وأن الحصن ورضه على جبل، ومن مظاهر مناعته أنه بينه وبين روضه خندق عميق يبلغ نحو ستين ذراعاً (١٠١)، كما ذكر خطورته من حيث أن الصليبيين فيه كانوا يشنون الغارات على ما دناهم من القرى والضياع المسلمة للقيام بعمليات السلب والنهب (١٠٢).

ومن المعروف أن حصن الكرك أو Krak de Montrial، قد وقع عند الطرف الجنوبى من البحر الميت، وذلك على بعد مائة وواحد وعشرين كيلو متراً جنوبى مدينة حماة، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح البحر ثلاثة آلاف ومائة من الأقدام، فى موقع حصين، وقد أحاطت به أجراف طبيعية من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، أما الجهة الشمالية، فقد أحاط به خندق اصطناعى ثم حفره فى الصخر الصلب (١٠٣).

ويلاحظ أن للحصن المذكور أربعة أبراج، يشرف كل برج منها على أحد المداخل التى كانت تؤدى إلى المدينة، وتآلف الحصن من قاعات، وغرف، وكذلك اسطبلات للخيل، وسجون وأماكن مخصصة للراحة (١٠٤).

وقد استولى الصليبيون على ذلك الحصن، وأضافوا إليه عدداً من التحصينات، فى عام ١١٤٢م / ٥٣٧هـ، وتولى ذلك الأمير باين ساقى الملك فولك آنجو Fulk of Anjou (١١٣١-١١٤٤م / ٥٢٦-٥٣٩هـ) ملك بيت المقدس الصليبية (١٠٥).

كذلك تعرض عز الدين بن شداد لقلعة تبنين أو Toron في المصادر التاريخية الصليبية، ووصفها بالمتعة والحصانة^(١٠٦).

والجدير بالذكر أن قلعة تبنين، وقعت على بعد سبعة عشر ميلاً من بانياس، الداخلية إلى الجنوب الشرقي منها في مواجهة ساحل صور^(١٠٧)، وقد تم بناء تلك القلعة في عام ١١٠٤م / ٤٩٨هـ من أجل القيام ببعض العمليات العسكرية الموجهة إلى مدينة صور، وذلك اعتماداً على ما أورده وليم الصوري William of Tyre^(١٠٨)، وقد حصل الاستبارة عليها في عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ عندما أعطاها لهم الأمير همفري أوف تبنين^(١٠٩) Humphry of Toron .

وقد امتازت قلعة تبنين بخصائصها، ومناعتها^(١١٠)، وتمكن المسلمون من إسقاطها عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(١١١)، وفيما بعد أعطاهما الصالح إسماعيل للصليبيين، وذلك في ظروف صراعه مع السلطان نجم الدين أيوب نظير مساعدتهم له ضد مصر وحلفائها^(١١٢)، وظلت في أيديهم إلى أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من استردادها في عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م^(١١٣).

ومن جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد، إلى حصن شقيف أرنون^(١١٤)، وهو من الحصون الصليبية المتينة.

وقد وقع الحصن المذكور على جبل عاملة في القسم الشمالي منه حيث يفصله نهر الليطاني شمالي فلسطين^(١١٥)، وقد هيا له موقعه، القيام بدور دفاعي عن أملاك الصليبيين في المنطقة المجاورة له، حيث وقع بالقرب من مدينة صيدا^(١١٦).

وقد احتوى حصن الشقيف على تكوينات معمارية هامة، جعلته واحداً من أحسن القلاع والحصون الصليبية في بلاد الشام، وكان شكله مثلث الزوايا، وبلغ طوله مائة وسبعين متراً أما عرضه فقد بلغ سبعين متراً وقد حفر عند صهاريج المياه من

أجل توفيرها للمدافعين، كما حفرت آبار في الصخور، بالإضافة إلى وجود آبار في داخل القلعة لتوفير المياه عن طريق الأمطار الساقطة، وفي جنوب الحصن؛ وجدت آثار خندق مخور ليعوق تقدم المهاجمين، كذلك كانت هناك حظائر للخيل ودواب الفرسان^(١١٧). وبالإضافة إلى كل ذلك، نعرف أن الحصن قد احتوى على عدة أبراج بارزة وعلى عنصر السقاطات عند الأسوار والأبراج، وبذلك تشابه مع وضع حصن الأكراد.

وتجدر الإشارة إلى أن حصن الشنيف قد سقط في قبضة المسلمين في أعقاب معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، بيد أنه عاد فيما بعد للسيطرة الصليبية، وإن أخضعه المسلمون نهائياً لهم في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م^(١١٨).

من جهة أخرى، أشار عز الدين بن شداد لقلعة صفد^(١١٩)، وتناول حصانتها، وسيطرة هيئة الدلاوة عليها، كما تناول تفاصيل استيلاء المسلمين بقيادة الظاهر بيبرس عليها.

وقد وقعت قلعة صفد على بعد ثمانية أميال من بحيرة طبرية، وهياً لها موقعها الإشراف على كافة الأراضي الواقعة في منطقة الجليل بشمال فلسطين، ثم أنها كانت في منطقة واقعة بين مدينة عكا على الساحل الفلسطيني، ودمشق^(١٢٠)، وقد هياً لها ذلك الموقع أهمية استراتيجية خاصة.

وقد وقع خلاف بين المؤرخين بشأن قلعة صفد، فعلى الرغم من أن المملكة اللاتينية قد عهدت بأمرها لهيئة الدلاوة إلا أن التحديد الزمني لذلك ثار بشأنه الخلاف، وقد أشار عز الدين بن شداد إلى أن قلعة صفد قد بناها الدلاوة عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م^(١٢١)، ونقل عنه العثماني تلك الرواية دونما تمحيص^(١٢٢). ولكن من

الواضح تماماً أن كلا منهما قد وقع فى الخطأ، إذ أن تنظيم الداوية لم يكن قد ظهر بعد إلى حيز الوجود حينذاك؛ لأن ذلك التنظيم قد تأسس عام ١١١٩م / ٥١٣هـ.

وقد اختلف الباحثون فى تاريخ حصول الداوية على قلعة صفد، فهناك من رأى أن ذلك قد وقع عام ١١٦٧م / ٥٦٣هـ (١٢٣)، أما برار، فقد رأى أن ذلك تم عام ١٢٤٠م / ٦٣٨هـ (١٢٤)، وفى تقديرى أن الرأى الأول هو الأصح، إذ أنه خلال ذلك الحين عهدت مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد الملك الصليبي عمورى بالعديد من القلاع والحصون لتلك الهيئات الحربية مثل الداوية والاستتارية، ومن المستبعد منطقياً أن تنتظر للمملكة حتى قرب منتصف القرن الثالث عشر للميلادى/ السابع الهجرى من أجل القيام بذلك، إذ أن احتياجاتها الأمنية الملحة خلال القرن الثانى عشر للميلادى/ السادس الهجرى من خلال اشتداد أمر حركة المقاومة الإسلامية، هى التى جعلتها تقوم بذلك خلال القرن المذكور.

والجدير بالذكر، أن السقوط النهائى لقلعة صفد فى قبضة المسلمين حدث فى عهد السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م (١٢٥).

أما القلاع الإسلامية، فقد أشار عز الدين بن شداد إلى قلعتى حلب والطور، وقدم تفاصيل هامة عنهما.

ويرتبط فى وصفه لقلعة حلب جانبان هاما هما الجانب الأثرى، والجانب التاريخى، ونجده يذكر التطورات المعمارية التى طرأت على القلعة مع تعاقب القوى السياسية؛ على حكم المدينة، وكل ذلك بتفاصيل ثرية لم نعهد لها فى كتابات الجغرافيين للمسلمين فى ذلك العصر، وتفوق فى هذا المجال على الإشارات التى قدمها ياقوت الحموى على الرغم من ارتباط الأخير بحلب.

وقد أشار إلى أن سيف الدولة الحمداني قد أقام بها بعض المواضع عندما قام ببناء سور المدينة (١٢٦)، كما أن المرداسيين أقاموا هم أيضاً بها دوراً وجددوا أسوارها (١٢٧)، بيد أن التطور البارز في أمر عمارة قلعة حلب ارتبط بعهد الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي، إذ أنه أقام جسراً ممتداً من القلعة إلى البلد وبنى برجين لم يتم بناء مثلهما من قبل، وأقام للقلعة كذلك ثلاثة أبواب حديدية. وأقام بها أماكن مخصصة للجنود وأرباب الدولة، وخصص فيها مكان لآلات الحرب، بالإضافة إلى أنه فتح في سورها باباً سماه باب الجبل (١٢٨).

وبالإضافة إلى كافة تلك التجديدات، نعرف من خلال ذلك الجغرافي الحلبي أن الملك الظاهر غازي أقام بالقلعة مصفاً كبيراً للماء وكذلك مخازن للغلال، وقام بسفح تل القلعة وبناء بحجر يسمى الهرقلي، وقام بتعليق بابها، وكان من قبل قريباً من أرض المدينة (١٢٩).

وهكذا قدم لنا عز الدين بن شداد عرضاً مهماً لتطور عمارة قلعة حلب، وكان من الطبيعي أن تنال منه اهتماماً خاصاً مع ارتباطه بتلك المدينة مولداً ونشأة. ومن الواضح كذلك أن عهد الملك الظاهر غازي يعد وبحق أهم مرحلة من مراحل تطور تلك القلعة الحصينة.

أما قلعة الطور، فقد أوضح أن الملك العادل أبو بكر قام ببنائها على جبل الطور، وكانت توصف بالحصانة، والمنعة، ثم خربها من بعد ذلك (١٣٠).

وهكذا، قدم عز الدين بن شداد، تناولاً هاماً للقلاع الصليبية والإسلامية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ومن الجلي البين أنه اهتم بعنصر القلاع اهتماماً خاصاً، ولا أدل على ذلك من أنها شملت قسماً كبيراً من كتابه وفصل أمرها، فجاء تناوله عرضاً عن الإشارات المقتضبة التي وجدناها لدى الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة التي تعرض لها ذلك الجغرافى هناك أيضاً جانب هام يتصل بالمزارات الدينية وقد أوضحها بالنسبة للأديان الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

ومن أمثلة المزارات اليهودية إشارته إلى وجود قبر يوشع بن نون فى مشهد هناك، وقد ذكر أن الملك الظاهر غازى قام بتجديد عمارته (١٣١).

أما المزارات المسيحية، فهناك، كنيسة القيامة والتي وصفها بأنها «الكنيسة العظمى»، وأشار إلى أنها من عجائب الدنيا من الناحية المعمارية (١٣٢). كذلك تعرض لكنيسة اليعاقبة بالقدس. وقد ذكر أنه يقال إن السيد المسيح عليه السلام قد اغتسل بها (١٣٣)، وكذلك عين سلوان التي شبه ماءها بماء زمزم (١٣٤). وكنيسة السليق التي أشار إلى أن السيد المسيح رفع منها إلى السماء (١٣٥)، ثم كنيسة صهيون التي ذكر أن المائدة نزلت على المسيح والحواريين بها (١٣٦)، أما وادى جهنم فقد أشار إلى أن به قبر السيدة مريم العذراء أم المسيح (١٣٧).

ومن الملاحظ بشأن المزارات التي أوردتها عز الدين بن شداد، وخاصة المزارات اليهودية، والمسيحية، أنه أوجز الحديث فيها، ولم يقدم وصفاً مفصلاً لأحد تلك المزارات، وذلك على عكس الإدريسي الذى قدم وصفاً مهماً لعدد من الكنائس المسيحية فى فلسطين فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

أما المزارات الإسلامية؛ فقد أشار إلى أن بمدينة غزة قبر هاشم بن عبدمناف (١٣٨)، وهو أمر كثيراً ما أشار إليه الجغرافيون المسلمون فى ذلك العصر. كما ذكر وجود مشهد يونس، ومشهد الحسين، ومشهد الثلج، وكذلك مقام إبراهيم، ومشهد الخضر فى حلب (١٣٩) وقد حرص على إبراد العديد من المشاهد والمقامات التي يقوم الأهليون بزيارتها تبركاً فى ذلك الحين، لاسيما فى حلب بشمال الشام حيث اهتم عز الدين ابن شداد بمزاراتها على نحو خاص.

وهناك ناحية جدية بالدراسة، تتعلق بموقف عز الدين بن شداد من تلك المزارات، ومدى تأييده لوجود بعضها وصحة ذلك من عدمه، وفي هذا المجال نجده يشير إلى الوضع الذي يتشكك أصلاً في صحته على اعتبار أنه «زعم»، ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنه عندما تناول قبر يوشع بن نون في معرة النعمان ذكر الأمر على أنه «فيما زعموا»^(١٤٠)، وتكرر الموقف عندما أشار إلى أحد المزارات الإسلامية في حلب ونعنى به مسجد الغوث إذ ذكر أن به كتابة «يزعم» البعض أنها من خط الإمام على بن أبي طالب^(١٤١).

ولم يقف الأمر عند ذلك الجغرافى إلى هذا الحد، بل إنه كان يصحح المعتقدات والآراء، ففي إشارته إلى وجود قبر مالك بن الأشتر النخعي في بعلبك ذكر ذلك ثم أشار مباشرة إلى أن «الأصح أنه بالمدينة»، وهو يتشابه في كل ذلك مع موقف ياقوت الحموى في معجم البلدان عندما اتجه إلى نقد مواضع بعض المزارات التي قصدها العامة، وعمل على تصحيح ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك المزارات العلاجية، وفي هذا المجال أشار إلى حمامات طبرية؛ ذات المياه الحارة، وذكر قدرتها العلاجية على علاج المجنومين وأصحاب العاهات^(١٤٢)، وتعتبر إشارته في هذا المجال أكثر تفصيلاً مما أورده الإدريسي، وبصفة عامة حظيت مياه حمامات طبرية بشهرة واسعة في ذلك العصر؛ على نحو جعل كافة الجغرافيين المسلمين يشيرون إليها بصور مختلفة بين الاقتضاب تارة والتفصيل تارة أخرى.

أما ما اتصل بالخريطة العقائدية لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ونجده قد أشار إلى عناصر الاسماعيلية النزارية وذكر دور بهرام الاستراباذى مقدم الاسماعيلية وقدرته على الاختفاء والاستقرار، واتصاله بظهر الدين طغتكين أتابك دمشق الذي سلمه باثياس^(١٤٣). كما تعرض لدور الاسماعيلية في الصلح الحربي مع عناصر الدروز وذلك

عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م^(١٤٤)، كما تعرض عز الدين بن شداد لمحاولة الاسماعيلية النزارية اغتيال السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في اعزاز عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(١٤٥)، وفشل تلك المحاولة.

والواقع أن بهرام الاستراباذي مثل أحد القيادات الاسماعيلية في بلاد الشام، لاسيما في مدينة دمشق، ويكاد يجمع المؤرخون على تمتعه بقدرة هائلة على التحرك والنشاط السري متخفياً بتغيير ثيابه، وملامحه، وتوافرت لديه القدرة على التستر^(١٤٦)، الأمر الذي جعله «يطوف البلاد والمعقل، ولا يعرف شخصه»^(١٤٧).

ومن الملاحظ أن أتابك ظهير الدين طغتكين - أتابك دمشق - تعاون مع بهرام ومثل معه نفس الدور الذي لعبه أتابك حلب رضوان بن تتش مع مقدم الاسماعيلية الحكيم المنجم الباطني، كما أن إحدى الشخصيات السياسية الهامة حينذاك وهو الوزير المزدقاني بلغت جهودها من أجل مساعدة الاسماعيلية النزارية^(١٤٨)، وأدى ذلك بدوره إلى ازدياد نفوذهم مما ترتب عليه زيادة السخط في نفوس المسلمين السنيين في دمشق^(١٤٩)، وأدركوا أن الباطنية يسيطرون على مقدرات الحياة السياسية في دمشق.

وعندما أدرك بهرام الاستراباذي تزايد السخط عليه وعلى أتباعه، أراد أن يجد له مركزاً هاماً محصناً ليكون بديلاً عن دمشق في حالة طرد الاسماعيلية منها، أو من أجل أن يوازن بين قوة أتباعه في دمشق وفي المركز الجديد، ولذا تجده قد طلب من طغتكين إعطاءه بانياس^(١٥٠)، ويبدو أنه أراد استغلال موقعها الاستراتيجي من أجل أن يقدمها للصليبيين كورقة رابحة من أجل أن يحصل على أية مكاسب سياسية من وراء ذلك. وبالفعل قدم له أتابك دمشق بانياس وذلك عام ٥٢٠هـ / ١١٢٥م^(١٥١).

وتزعم أحد المؤرخين الاسماعيليين المحدثين أن هدف الباطنية من الاستيلاء على بانياس، هو رغبتهم في إيجاد إمارة تقف في وجه الصليبيين^(١٥٢)، غير أن هذا القول لا يستند إلى أي أساس من الواقع التاريخي، لسبب بسيط، وهو أن الباطنية عندما

تعرضوا للضغوط الإسلامية السنية في منبحة دمشق - فيما بعد - سرعان ما قاموا بتسليم باتياس للصليبيين مما عكس حقيقة واضحة وهي أن الصليبيين في ذلك الحين لم يكن لهم أى وضع فى مخططات السياسة الإسماعيلية، ولم يفكر الإسماعيلية فى معاداتهم خلال تلك المرحلة.

أما فيما يتصل بالصدام الحربى بين الإسماعيلية، والدروز، عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م فقد كشف عن مواجهة عنيفة بينهما، وكان وادى التيم قد شهد نشاطاً واضحاً للعناصر الدرزية، ومن بين الأسرار الحاكمة حينذاك كانت أسرة درزية هامة وهى الأسرة الجندلية، وعلى رأسها الضحاك بن جندل البقاعى الذى اتهمته إليه رئاسة وادى التيم حيثئذ، وبسبب الصراع التقليدى على قضية الأخذ بالتأثر، تقسم بهرام الاستراباذى إلى هناك، فتصدى له الضحاك، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بعناصر الإسماعيلية، وعادت قلوب المنهزمين «على أقبح صورة» (١٥٣)، كما يصفهم ابن الأثير، وقد قتل بهرام فى أحداث المعركة (١٥٤)، ففقدت عناصر الإسماعيلية النزارية واحداً من كبار قياداتها.

وقد وقعت أحداث ذلك الصدام بين الإسماعيلية والدروز عام ٥٢٢هـ / ١١٢٧م، أى بعد حصول الإسماعيلية على باتياس، مما يدعم فكرتنا فى أن ازدياد نفوذ الإسماعيلية السياسى عقب حصولهم على باتياس شجعهم على محاولة فرض سيطرتهم على العناصر الدرزية فى وادى التيم.

أما فيما يتصل، بمحاولة الإسماعيلية اغتيال صلاح الدين الأيوبي فى اعزاز عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م (١٥٥)، فتعرف أن اعزاز كانت من أهم مراكز التواجد الإسماعيلى فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، وقد بذل الجيش الأيوبي مجهودات مضنية من أجل حصارها الذى استمر نحو ثمانية وثلاثين يوماً وفق ما قرره ابن واصل (١٥٦).

وكانت اعزاز عامرة بالمدافعين والأسلحة، وقد أظهرت عناصر الباطنية دفاعاً كبيراً عن مركزها، وتمكنت من إرسال الفداوية من أجل اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولكن قدر له النجاة، ولم يكن صلاح الدين يصدق أن خناجر الفداوية لم تصبه في مقتل (١٥٧).

وبقى زاوية أخيرة، حرص عز الدين بن شداد على أن يتعرض له ضمن تناوله للجغرافيا التاريخية لبلاد الشام في ذلك العصر، ونعني بها المؤسسات التعليمية والدينية، سواء للمدارس، أو للمساجد، والخانقوات، والربط.

والجدير بالذكر هنا، أن عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام قد شهد صحوة دينية إسلامية واضحة المعالم، من خلال المواجهة مع الصليبيين، ومن سمات تلك الصحوة، الاهتمام بحركة تشييد المدارس، والمساجد، والخانقوات، والربط، والزوايا إلى غيرها من العمارات الدينية، وكان من الطبيعي أن تجد ذلك الجغرافي الحلبي يحرص على إبراد تلك الظاهرة.

وقد تعرض عز الدين بن شداد للمدارس المقامة في بلاد الشام، وإن أعطى اهتماماً خاصاً لمدينة حلب، ونجده قد أورد مدارس الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنابلة. وفي هذا المجال من الواضح أنه خصص للمدارس قسماً هاماً من «الأعلاق»، وهكذا يمكن القول إن العمارات الحربية في صورة القلاع، والحصون، سواء لدى المسلمين أو الصليبيين، وكذلك العمارات التعليمية والدينية حظيت بأكبر قدر من اهتمام ذلك الجغرافي على نحو ميز منهجه في هذا الصدد.

ومن المدارس التي أشار إليها، نذكر على سبيل المثال، المدرسة الزجاجة التي أسسها بدر الدولة (١٥٨) أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبارين ارتعه عام ٥١٦هـ / ١١٢١م. ثم المدرسة النقريّة النورية، التي أقامها نور الدين محمود عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م (١٥٩).

أما المساجد، فنجدّه يشير إلى اللغات منها في حلب، وإن أعطى اهتماماً خاصاً بالمسجد الجامع فيها، وقد قرر أن موضعه كان في الأصل بستاناً للكنيسة العظمى في عهد البيزنطيين، وعندما فتح المسلمون حلب صالحوها أهلها من أجل أن يشيدوا ذلك المسجد في الموضع المذكور^(١٦٠)، وقد قرر أن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق من حيث أعمال الزخرفة، والفسيفساء^(١٦١)، وتكشف تلك العبارة حمسه لمدينته، وتصوره لجمال أبنيتها على نحو لا تقف أمامها منافسة المدن الأخرى حتى دمشق، عاصمة الشام التاريخية.

وقد أشار ذلك الجغرافي لبعض المراحل التاريخية التي مرت على المسجد الجامع في حلب، من ذلك أن عناصر الاسماعيلية قامت بإحراقه في عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م^(١٦٢). وكذلك قامت بإحراق الأسواق، فقام نور الدين محمود بإعادة بنائه واجتهد في عمارته، ولا أدل على ذلك من أنه نقل إليه أعمدة من قنشرين^(١٦٣)، كذلك عمل على توسعة الجامع المذكور على نحو جعله حسناً في أعين الناظرين^(١٦٤).

أما الخانات، فقد تناول العديد منها، وكانت مخصصة لعناصر المتصوفة، الذين ارتفع شأنهم بصورة كبيرة في ذلك العصر، ومن الخانات الحلبية. هناك خانقة العصر التي أقامها نور الدين محمود^(١٦٥) وسميت بذلك الاسم لأنها كانت مكان قصر بني من قبل تشييدها. وهناك أيضاً خانقة البلاط أنشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم^(١٦٦).

ومن الجوانب الهامة فيما أورده ذلك الجغرافي الحلبي أنه أشار إلى خواتق للنساء في حلب. ومن أمثلتها خانقة أنشأتها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل^(١٦٧)، وكذلك خانقة أقامتها ضيفة خاتون بنت الملك العادل^(١٦٨)، على نحو عكس حرص نساء البيوت المالكة على إقامة مثل تلك العمارات الدينية.

أما الربط، فنجد أنه ذكر بعضها في حلب، ومن أمثلة تلك العماير الدينية التي ارتبطت في بدايتها بأعمال المراقبة والجهاد، ثم تخلصت عن صفتها الحربية وصارت ذات صفة دينية، هناك رباط أقامه الأمير سيف الدين على علم الدين (١٦٩)، ثم رباط آخر يعرف برباط الخوام، وصفه بأنه تحت قلعة حلب (١٧٠)، ثم رباط ثالث، وصفه عز الدين بن شداد بأنه قريب من مدرسة النفري (١٧١). ولم يحدده بأكثر من ذلك.

وهكذا، قدم لنا ذلك الجغرافى الحلبى تصورات هامة بشأن مدن بلاد الشام المتعددة والعماير التى بها سواء الحربية أو التعليمية أو الدينية، واحتوى تناوله على العديد من الجوانب الاقتصادية والحربية، والسياسية، والملهية، على نحو ضمن له مكانة متميزة من بين الجغرافيين المسلمين؛ فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى والثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة عز الدين بن شلاد أنظر :

اليوناني البعلبكي، ذيل مرآة الزمان، حـ ٤، ص ٢٧٠-٢٧١، الذهبي، العبر، حـ ٥، ص ٣٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، حـ ١٣، ص ١٣٠٥، الصفدي، الوافي بالوفيات، حـ ٤، باعتناء ديدريخ، ط. فسياد ١٩٥٩م، ص ١٨٩-١٩٠، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، حـ ٨، تحقيق فجلاد عز الدين رزيق، ط. بيروت ١٩٣٩م، ص ١٣٣، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، حـ ٥، ص ٣٨٨، عبدالله نيهان، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شلاد، عالم الكتب، م (١٣)، العدد (١٤)، المحرم - صفر ١٤١٣هـ / يوليو - أغسطس ١٩٩٢م، ص ٣٩٦، أحمد حطوط، سيرة الظاهر بيبرس لعز الدين محمد بن علي بن شلاد، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٧، حبيب الزيات، في تاريخ مملكة حلب، للشرق، العدد (٣٢)، عام ١٩٣٤م، ص ٥٠٥-٥٠٩.

Brockelmann, Geschichte de Arabischen Literature, T.I, p. 482, S., II, p. 1042; Cahen, "La Djazira au milieu du Treizieme siecle d'après Izz ad-Din Ibn Chaddad", R.E.I., Année 1934, p. 109-128.

(٢) كراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٠١، أحمد حطوط، للرجع السابق، ص ١٧.

(٣) كراشكوفسكي، للرجع السابق، ص ٤٠١.

(٤) عبدالله نيهان، للرجع السابق، ص ٣٩٧، أحمد حطوط، للرجع السابق، ص ١٧.

(٥) عبدالله نيهان، للرجع السابق، ص ٣٩٧.

(٦) ابن شلاد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حـ ١/ق ١، تحقيق يحيى زكريا عبارة ط. دمشق ١٩٩١م، ص ٣٠.

(٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة، وللباحث اللبناني أحمد حطوط دراسة هامة عن ذلك الكتاب أشرت إليها في الهوامش السابقة.

(٨) ابن شلاد، للمصدر السابق، ص ٣٠-٣١، أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٢٩.

(٩) ابن شلاد، للمصدر السابق، ص ٣١.

(١٠) عن الجهود التحقيقية التي قام بها الباحثون الفرنسيون والسوريون، حيال ذلك الكتاب الهام، نعرف أن المستشرق الفرنسي دومنيك سورديل D. Sourdel قام بتحقيق القسم الأول من كتاب الأعلام الخطيرة المخصص لتاريخ حلب؛ وصدر عمله من جانب المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣م، ثم قام الباحث السوري سامي الدمان بتحقيق الجزء الأول من الكتاب الخاص بدمشق، وصدر عمله من جانب نفس المعهد المذكور في جزئين، الأول عام ١٩٥٦م، والثاني عام ١٩٦٤م، ومن بعد ذلك قام باحث سوري آخر على جانب كبير من المهارة في مجال تحقيق التراث، ونعني به يحيى زكريا عبارة بتحقيق الجزء الخاص بتاريخ الجزيرة والموصل، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية بدمشق عام ١٩٧٨م، كما أنه حقق الأعلام في صورة الجزء الأول، القسم الأول والجزء الأول، القسم الثاني، وصدر عمله من جانب وزارة الثقافة السورية أيضاً في دمشق عام ١٩٩١م. وفي هذا الفصل أفادت بصورة واضحة من جهود كل من سامي الدمان ويحيى زكريا، مع عدم إغفال جهد دومنيك سورديل الريادي في هذا الصدد. عن الجهود التحقيقية للأعلام الخطيرة أنظر :

ابن شداد، للمصدر السابق، حـ١/ق١، تحقيق يحيى زكريا، مقدمة التحقيق؛ عبدالله نبهان، المرجع السابق، ص٣٩٨.

(١١) ابن شداد، للمصدر السابق، حـ١/ق١، ص٣٧. من مقدمة التحقيق.

وبلاحظ أن كراشكوفسكي يقرر أن ابن شداد قد انتهى من الجزء الأول الذي خصصه لشمال الشام، في عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، أما الجزء الثاني فقد جعله منصبا على جنوب الشام، وقد انتهى عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م. أنظر، كراشكوفسكي، المرجع السابق، ص٤٠٢.

(١٢) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموي.

(١٣) ابن رسته، هو أبو علي أحمد بن عمر، عالم عربي من أصل فارسي، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث هـ / التاسع للميلاد، ومن المعروف أنه عاش في أصفهان، وقام بالحج إلى بيت الله الحرام وذلك في عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م، ثم أبعده إلى المدينة المنورة، ويقال إنه ألف كتابه الأعلام النفيسة حوالي ذلك العام، وبلاحظ أنه لم يصل إلينا من كتابه إلا الجزء السابع فقط، وهو الذي عمل دي جوه على تحقيقه، عن ابن رسته أنظر :

تقديم وتحقيق دي جوه لكتاب الأعلام النفيسة، دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن رسته، حـ١، ص٢٨٥.

(١٤) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلي، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٢١٥.

(١٥) بهاء الدين بن شداد، هو بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن رافع بن تميم اشتهر بابن شداد، لأن شداد جده لأمه، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير وقد تكفل بتربيته أخواله بنو شداد ولما فقد نسب إليهم، وقد ولد ابن شداد في الموصل عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، وقد تلقى علومه الأولى في الموصل ودرس العلوم الدينية على نحر خاص، وقد توطدت علاقته بالسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي حتى جعله قاضياً لمسكره وللقنس الشريف، وظل ابن شداد ملازماً له لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركته وفاته، ويلاحظ أنه كان مقيماً إلى جوار السلطان الأيوبي ومعه القاضي الفاضل حتى في أيام مرضه الأخير، ومن بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي لعب ابن شداد دوراً بارزاً في التقريب بين أبنائه من أجل العمل على تماسك الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، وقد ألف ابن شداد عدداً من المؤلفات مثل دلائل الأحكام، ومبدأ الحطام عند التباس الأحكام، ودروس في الحديث، وكتاب العصا (للقصود موسى وفرعون) وفضائل الجهاد، وأسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي، والنوادر السلطانية والحاسن اليوسفية. عن بهاء الدين بن شداد أنظر :

تقديم جمال الدين الشيال، لكتاب النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٣-١٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٧، تحقيق إحسان عباس، ص ٨٤.

(١٦) من الباحثين الذين خلطوا بين بهاء الدين بن شداده (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٩م)، وعز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص ٢٧١؛ علي أحمد، الأنطلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص ٣٢٨؛ السعيد الورقي، مصادر التراث العربي، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٥٦. والأخير يقول إن بهاء الدين بن شداد له مؤلف الأعلام الخطيرة في تاريخ الجزيرة، فأخطأ بالتالي في نسبة المؤلف إلى كتابه وكذلك في عنوان الكتاب الذي هو الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

(١٧) اليعقوبي، هو أحمد بن أبي يعقوب جغرافي ومؤرخ عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، قام بعدة رحلات إلى مناطق أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، وقد ألف كتابه البلدان، وكتب فيه ملاحظاته على للناطق التي قام بمشاهدتها كما أن له كتاباً في مجال التاريخ يعرف بتاريخ اليعقوبي عنه أنظر :

تقديم تاريخ العقوى، ط. بيروت ب-ت، الموسوعة العربية للموسوعة، بإشراف شفيق غزال، ط. القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٩٨٣. أنظر : الإفادة منه في الأعلام، ح ١/ق ١ ص ٣٧-٣٨.

(١٨) البيروني، هو أبو الريحان محمد بن أحمد، مؤلف عربي من أصل فارسي، وقد ولد في ذي الحجة عام ٣٦٢هـ / سبتمبر ١٩٧٣م، بنواحي خوارزم، وقد درس الرياضيات والفلك والطب، والتقويم والتاريخ، وألف البيروني للعديد من المؤلفات كشفت عن موسوعة تكوينه العلمي، منها الآثار الباقية من القرون الخالية، وكتاب تعريف ما للهند من مقولة، مقبولة للعقل أو مردولة أو تاريخ الهند، وكتاب القاتون السعدي في الهيئة والنجوم كما أن له رسالة بعنوان التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، وقد توفي البيروني في ٣ رجب ٤٤٨هـ / ١٣ ديسمبر ١٠٤٨م. عنه أنظر :

دائرة المعارف الإسلامية، (مادة البيروني)، ح ٩، ص ٢-٥؛ محمد جمال الدين الفندي، من العطاء العلمي للإسلام، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص ٦٥-٧٠. أنظر الاستعانة به في الأعلام. ح ١/ق ١، ص ٤٤.

(١٩) للمهلي، هو علي بن أحمد للمهلي، كان إماماً في النحو واللغة ورولية الأخبار، وقد عاصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وطلب منه الأخير تأليف كتاب جغرافي، فكان كتابه العزيز الذي وصف فيه السودان وصفاً دقيقاً، ووصف بأنه كان رائد المؤلفات في مجاله، وتجد أن عدداً من الجغرافيين المسلمين الذين كانوا من بعده قد أخذوا منه، عن المهلي وكتابه أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، ح ١١، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ خضر أحمد عطا الله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ٣٢٠؛ علي عبدالله الدفاح، رواد علم الجغرافيا، ص ١٢٢-١٢٣؛ سليمان الخطيب، منهج صاعد. الأتلس في دراسة الحضارات، بحث مقدم لحواليات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٢م، ص ١٢؛ علي حسني الخربوطلي، العزيز بالله الفاطمي، ط. القاهرة، ص ١٢١؛ ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، الأعلام، ح ١/ق ١، ص ٣٢٩.

(٢٠) عن الهروي، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به في الأعلام، ح ١/ق ١، ص ١٦٩.

(٢١) عن ابن جبير، أنظر الفصل الخاص به. أنظر، الاستعانة به في الأعلام، ح ١/ق ١، ص ٤١٢.

(٢٢) محبوب بن قسطنطين، هو محبوب بن قسطنطين الرومي للنيجي، وقد حقق فاسيليف كتابه ونشره فرسان بطرسبرج عام ١٩٠٨م، من ذلك أنظر :

ابن شداد، المصدر السابق، حـ/١/١، ص ١٢٩، حاشية (١). ومن أمثلة الاستعانة به أنظر، ص ١٢٩.

(٢٣) البلاذري، هو أحمد بن يحيى بن جابر بن طلوع، وقد اختلف في كنيته، فهناك من قال إنها جعفر، وهناك من ذكر أنها أبا الحسن، وقد ولد في بغداد، في حوالي مطلع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث كانت تزدهر فيها الحياة العلمية والأدبية بوصفها عاصمة الخلافة العباسية. وقد قام البلاذري بزيارات لمناطق في بلاد الشام مثل دمشق، وحمص، وأنطاكية، واستمع إلى عدد من العلماء المعاصرين له مثل محمد بن سعيد، والمدايني، ومصعب الزبيري، وغيرهم، ووصف البلاذري بأنه كان مقرباً من الخليفة المتوكل، كما أنه كان صاحب موهبة شعرية، وقد توفي البلاذري عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م. عنه أنظر :

البلاذري، فخر البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٦-١٦؛ ابن النديم، الفهرست، ط. بيروت ب-٢، ص ١٦٤؛ ابن تغري يردى، النجوم الزاهرة، ح-٣، ص ٨٣؛ ابن كثير المصدر السابق، ح-١١، ص ٦٥-٦٦؛ إحصان صدقي العمدة، البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ط. الكويت ١٩٧٨، (رسالة دكتوراه هامة للغاية عن ذلك للورخ)؛ محمد جاسم المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ط. مكة المكرمة ١٩٨٦م؛ عبدالستار فراج، البلاذري، مجلة العربي، العدد (٩٩)، الكويت، فبراير ١٩٦٧م، ص ٤٥-٤٩؛ فؤاد مزكين، تاريخ التراث العربي، م (١)، ت. محمود فهمي حجازي وفهمي أبو الفضل، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٥١٣-٥١٤؛ صلاح الدين المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ص ١٧؛ حمد الجاسر، أنساب الأشراف للبلاذري، الفيصل، العدد (٢٠٢)، ربيع الآخر ١٤١٤هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٣م، ص ٤٤؛ عبد الأمير حيد دكش، الخلافة الأموية (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م)، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ١٠.

Sauvaget, Les Historiens Arabes, paris 1946, pp. 12-17.

ومن أمثلة الإفادة من مؤلفات البلاذري أنظر : الأعلام، ح-١/ ق ١، ص ٤٢، ٥٥، ٦٦، ٦٧ وغيرها كثير.

(٢٤) العظيمي، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد العظيمي التنوخي الحطبي، ولد في عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، وقد نشأ في أسرة كبيرة امتدت جذورها إلى قبيلة تنوخ العربية، وهناك من يقرر أنه من بيت شارك في الأحداث السياسية التي مرت بها مدينة حلب بشمال الشام في المرحلة السلجوقية، وقد اختار أن يقوم بتعليم الصبيان فصارت مهنته، ويرع في الشعر، وعندما وثق في

موهبته الشعرية سافر إلى دمشق وامتدح حكامها، كما أنه امتدح الأرافقة، وفيما بعد اختص بالأتابك عماد الدين زنكي في حلب، حيث صار شاعراً ضمن حاشيته. وقد ألف العظمى عدة مؤلفات في مجال التاريخ، تمثل في تاريخ العظمى، وهو تاريخ عام يتلب عليه طابع الاختصار وجعله على الأساس الحولي، ثم كتاب تاريخ حلب، ويبدو أنه كان يقع في مجلدين، ثم كتاب للموصل على الأصل الموصل وهو من كتب التراجم، وقد توفي العظمى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م. عنه أنظر :

ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، القسم الخاص بالأمراء السلاجقة، تحقيق على سويم، ط. أنقرة ١٩٧٦م، ص ١٠٨-١٢٨؛ عباس العصيمي، الدولة البورية وعلاقتها بالصليبيين (٤٩٧-٥٤٩هـ / ١١٠٢-١١٥٤م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام، الرياض ١٩٨٧م، ص ٥٥، من المقدمة.

Cahen, "La Chronique A Breyée d'Al. Azimi" J.A., 1938, p. 354, Savin, Azimi Tarihi, Ankara 1988, p. 1 - X.

محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبي العظمى (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) حياته، ومنهجه في الكتابة التاريخية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م. ومن أمثلة الإفادة من العظمى أنظر، الأعلام، ج ١، ق ١، ص ١٢٢.

(٢٥) ابن عساكر، هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، ولد عام ٤٩٩هـ / ١٠٠٥، وبعد إمام أهل الحديث في زمانه، وجمع بين معركة الأساتيد وللتون، وقد طاف بالعديد من أقطار العالم الإسلامي لاسيما بلدان الشرق الإسلامي، طلباً للعلم ولقاء العلماء، ومن بعد ذلك رجع إلى دمشق عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م، وبلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم ما يزيد على ألف ومائتين شيخ بالإضافة إلى ثمانين امرأة، وقد ألف عدداً كبيراً من المؤلفات مثل التاريخ الكبير في ثمانين مجلد، وبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، كما ألف كتاباً في الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وقد توفي عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م. عن ابن عساكر أنظر :

ياقوت، معجم الأدباء، ج ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٣٩-١٤٦، مجموعة من الباحثين، ابن عساكر، وقائع المؤتمر الذي عقد في دمشق عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م، أحمد رمضان، المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء في تاريخ ابن عساكر،

للدارة، العدد (٤)، السنة (٥) عام ١٩٨٠م، ص ٩٣-١١٤؛ صلاح الدين للنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٨٨-١٥٧؛ مرجليوث، للتورخون العرب، ت. حسين نصار، ط. بيروت ب-ت، ص ١٦٦؛ كردعلى، الشاميون والتاريخ، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (١٧)، ح (٣)، ح (٤)، ص ٩٩-١٠٠؛ محمود ماضي، الإمام ابن عساكر، عالم الفكر، م (١٥)، العدد (٤)، محرم - صفر ١٩٩٤م، ص ٣٦٩-٣٧٢.

Elisseeff, La Description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959, pp. XVII - XXVIII

ومن أمثلة الإفادة من ابن عساكر وتاريخه أنظر : الأعلام، ح-١ / ق ١، ص ١٩-٢٢.

(٢٦) ابن العديم الحلبي، هو كمال الدين بن العديم، ينتمي إلى أسرة حلبيّة عريقة، وقد درس العلوم الدينية منذ حداثة عمره، وبرع في التاريخ على نحو خاص، وتعددت مؤلفاته فيه، وفي غيره من العلوم والمعارف، وألف عدة مؤلفات، مثل بنية الطلب في تاريخ حلب، وزينة الحلب من تاريخ حلب، وكتاب النراري في النراري، وكتاب نفح الطيب في ذكر الطيبات والطوبى، وقد توفي ابن العديم في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م. عن ابن العديم أنظر :

ابن العديم، بنية الطلب في تاريخ حلب، ح-١، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص ٩-١٢؛ باقوت، معجم الأدباء، ح-٦، ط. القاهرة، ص ١٥؛ ابن تفرى يردى، النجوم الزاهرة، ح-٧، ط. القاهرة، ص ٢٠٨؛ اليونيني البعلبكي، للصبر السابق، ح-١، ص ١٥١٠؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ح-٤، ط. حيدر آباد الدكن عام ١٣٤٨هـ، ص ١٥٨؛ ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، ح-٣، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص ١٢٦-١٢٩؛ السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والتورخون العرب، ص ١٢٢-١٢٣؛ محمد مؤنس أحمد عوض، مصادر تاريخ الزلازل في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلادي، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، سلسلة دراسات من الشرق الأوسط، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٠-٣١. ومن أمثلة الاستعانة بما ألفه ابن العديم أنظر :

الأعلام، ح-١ / ق ١، ص ٢٦، ٤٢، ٥٤، ١٠٨، ١١١ وغيرها كثير وبعد من أكثر للتورخين الذين أفاد منهم عز الدين بن شداد في تأليفه للأعلام.

(٢٧) ابن أبي طي، هو يحيى بن أبي طي، التجار الغساني الحلبي، ولد في عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م، كان والده رئيساً لإحدى النقابات في مدينة حلب، وأحد الزعامات الشعبية بها. وقد عارض السلطان للملك العادل نور الدين محمود معارضة أدت إلى إبعاده عن حلب في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، كذلك تم نفيه إلى حران عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م. وقد ألف ابن أبي طي العديد من

المؤلفات التاريخية منها كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين وكتاب معدن الذهب في تاريخ حلب، وذيله، وكتاب سيرة ملوك حلب وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، عنه أنظر :

ابن شاکر الکتبی، فوات الوفیات، ح ٤، تحقیق إحسان عباس، ط. بیروت ١٩٧٣م، ص ٢٦٩-٢٧٠، حسین عاصی، أبو شامة وکتابه الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ط. بیروت ١٩٩١م، ص ١٧٤-١٧٥، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ح ١، ط. بیروت ب-ت، ص ٥٥٥، حاشية (١)

Caben, "Une Chronique chrite au Temps des croisades", comptes rendus de L'academie des inscriptions et belles lettres, Paris 1935, pp. 253-269.

ومن نماذج الإفادة بما ألفه ابن أبي طي أنظر : الأعلام، ح ١، ق ١، ص ١١٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٢، ٣٥٧.

وتعد استعانة عز الدين بن شداد بما ألفه ابن أبي طي هامة على اعتبار فقه مؤلفات ذلك المؤرخ الحلبي الشيعي، وعدم وصولها إلينا إلا من خلال تقول بعض المؤرخين الشاميين مثل ابن شداد، وكذلك أبي شامة المقدسي، الذي أكثر من الاستعانة بما أورده ابن أبي طي وضمنه كتابه الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية.

(٢٨) ابن الأثير، هو أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجفري، للملقب عز الدين، ولد عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، بجزيرة عمر الواقعة على نهر الفرات، حيث كان والده يعمل بوظيفة هامة، ورحلت أسرته إلى الموصل في خدمة أمراء البيت الزنكي، ونشأ ابن الأثير نشأة علمية لرستقراطية اقطاعية، في ظل حكم الزنكيين وأهم مؤلفاته الكامل في التاريخ والباهر في الدولة الانليكية، والباب في تهذيب الأنساب، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، وقد توفي ابن الأثير، عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م. عن ابن الأثير أنظر :

أبو الفداء، المختصر، ح ٤، ط. بیروت، ص ٢٨٩، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ح ٥، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٢٧، عبد القادر طليمات، للمؤرخ ابن الأثير، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٦٧م، فيصل السامر، ابن الأثير، ط. بغداد ١٩٨٦م، نظير حسان سعداوي، المؤرخون للمعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ص ٦-١٣، محمد عبدالله الحمدان، ابن الأثير، الفرسان الثلاثة، ط. الرياض ١٩٧٤م، ص ٦٣-٦٧.

ومن أمثلة الإفادة من ابن الأثير أنظر : الأعلام، ح ١ / ق ١، ص ٣٢٠.

- (٢٩) للرجع السابق، ص ٤٠٣.
- (٣٠) أنظر : الأعلام، ج ١ / ق ١، ص ٢٩٨.
- (٣١) نفسه، ص ١١٣.
- (٣٢) نفسه، ص ٤١، ٥٠، ١٠٣، ١١١، وقد أنقاد عز الدين بن شداد عدة مرات من بهاء الدين الخشاب الحلبي.
- (٣٣) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٢٧٤.
- (٣٤) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٤٥.
- (٣٥) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ١٧٣.
- (٣٦) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ١٤١.
- (٣٧) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ١١٨-١٢٠، وكذلك أنظر ص ١٦١، ٣٣١-٣٣٨، ٣٦٥-٤٠٦.
- (٣٨) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٢٠٤-٢١٠.
- (٣٩) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٢١١-٢١٩.
- (٤٠) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٢٢٦-٢٣٣.
- (٤١) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ١٠٧.
- (٤٢) نفسه، ج ١ / ق ١، ص ٦٩-٨٠.
- (٤٣) ابن شداد، الأعلام، تحقيق سامي الدغاني، ص ١٧٢.
- (٤٤) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.
- (٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٣.
- (٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧١.
- (٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.
- (٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٠.
- (٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٩٨.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٧.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠١.

(٥٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٤.

عن زراعة قصب السكر في طرابلس في عصر الحروب الصليبية، نعرف أن الصليبيين عملوا على الاهتمام بزراعته، ولا أدل على ذلك من أنهم قاموا بإعفائه من الضريبة المفروضة على إنتاجه على نحو أدى إلى اتساع المساحة للزراعة به من طرابلس إلى صور، عن ذلك أنظر :

زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ١٧٦.

.. (٥٤) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٠١.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٢.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة

(٥٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٥٠.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٩٨.

(٥٩) أنظر : الفصل الأول، حاشية () .

(٦٠) ابن شداد، للمصدر السابق، ح ١ / ق ٢، ص ٢٩٧.

(٦١) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٥.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٥٨.

(٦٣) وقعت أناب ضمن أعمال عزاز في شمال الشام، عنها أنظر :

كرد علي، خطط الشام، ح ٢، ط. دمشق ١٩٢٥م، ص ٢٢؛ ولورد حسين مؤنس التسمية على أنها أناب وهي تسمية لم ترد في أي من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة على هذا النحو، أنظر : حسين مؤنس، صور من البطولة، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٧٣.

(٦٤) عن تفاصيلها أنظر :

ابن القلانسي، قبل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ط.
القاهرة ١٣١٨ هـ، ص ٢٠٧؛ ابن الأثير، الباهر، ص ٩٨-٩٩؛ الكامل، ح ١١، ص ٥٨-٥٩؛
ابن واصل، مفرج الكروب، ح ١، ص ١٢٠-١٢١.

Elisseeff, Nur A-Din, un prince musulman au Temps des croisades, T. II, Damas 19 , p. 430-432; Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 515; Stevenson, The Crusaders, p. 165.

أفتوني بردج، الحروب الصليبية، ت. سبانو وزميله، ط. دمشق ١٩٨٥ م، ص ١٥٩؛ العروسي
للطوى، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤ م، ص ٤٨.

(٦٥) ابن القلانسي، للصبر السابق، ص ١٣٠٤؛ ابن العدين. زبدة الحطب، ح ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٦٦) ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٤؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٧؛ ابن العديم، للصبر
السابق، ح ٢، ص ١٣٠١؛ ابن واصل، للصبر السابق، ح ١، ص ١٢٣.

(٦٧) انحلت المصادر والمراجع بشأن تاريخ أسر جوسلين الثاني، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام
٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، ومن أصحاب ذلك الرأي سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ح ٢/١،
ص ٢٠٢.

ابن ليك الدواداري، الدرة المضنية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين النجد،
ط. القاهرة ١٩٦١ م، ص ٥٥٥؛ واليسيف Elisseeff, Nur Al-Din, T. II, p. 453-454 .

وهناك اتجاه آخر يرى ذلك عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م، وهو الأرجح في تقديري، وقد وجد
تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلانسي، قبل تاريخ دمشق، ص ٣١٠؛ العماد
الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٠٧؛ وكذلك، ابن الأثير، الكامل، ح ٨،
ص ٦٢-٦٣؛ ابن العديم، بدة الحطب، ح ٢، ص ١٣٠٢؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية،
ص ١٣٦-١٣٧.

وتأييد للمؤرخين المعاصرين تجعلنا نؤيد تاريخ عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م؛ وقد أيد بعض
المؤرخين المحليين وحدوه بصورة أدق في ٥ محرم ٥٤٥ هـ / ٥ مايو ١١٥٠ م. أنظر : عاشور،
الحركة الصليبية، ح ٢، ص ٦٤٢.

عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط.
الاسكندرية ١٩٨١ م، ص ١٧٩.

Stevenson, The Crusaders, p. 167.

وعن لمره أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 302; William of Tyre, Vol. II, p. 201.

(٦٨) وعن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 201, note (26); Stevenson, The Crusaders, p. 181.

(٦٩) ابن العبري، للمصدر السابق، ص ٢٠٨، ابن العديم، للمصدر السابق، ح ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣؛ ابن واصل للمصدر السابق، ح ١، ص ١١٤؛ سبط بن الجوزي، للمصدر السابق، ص ١٢٠٢، ابن الشحنة، روضة الناظر في تاريخ الأوائل والأواخر، بهامش الكامل لابن الأثير، ص ٥٥٠.

(٧٠) كردعلى، المرجع السابق، ح ٢، ص ٣٧.

(٧١) Stevenson, Op. Cit., p. 148.

(٧٢) تامة المختصر، ص ٥٠.

(٧٣) المصدر السابق، ح ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٧٤) ابن القلانسي، للمصدر السابق، ص ٢١٠، العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٧٥) ابن واصل، للمصدر السابق، ح ١، ص ١٢٥.

(٧٦) وقعت حارم ضمن حدود إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها، وهي حالياً من مناطق محافظة لولبا في شمال سوريا، وتبعد عن لولبا بمسافة ٥٣ كيلو متر مربع. عنها أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

عمران، للرجع السابق، ص ٢٨٥. وعن معركة حارم بالتفصيل أنظر :

Anonymous Syriae chronicle, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 306-308; Jacques de Vitry, p. 94.

ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٤، العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٢٥، العلوي، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٤٠؛ عمران معركة حارم، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٨)، عام ١٩٧٧م، ص ٩٠-١١٢.

(٧٧) Jacques de Vitry, p. 94.

(٧٨) ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكي، تحقيق : B.E.O., T. Année 19، ص ١٢٨.

(٧٩) Anonymous syriae chronicle, p. 303.

ابن واصل، للمصدر السابق، ح ١، ص ١٤٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١٢، ص ٢٤٨.

- (٨٠) ابن العديم، للمصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٠؛ ابن واصل، للمصدر السابق، ج١، ص ١٤٥.
- (٨١) سبط بن الجوزي، للمصدر السابق، ج٨/١، ص ٢٤٧؛ أبو الفداء، المختصر، م (٢)، ج (٥)، ص ٥٦.
- (٨٢) Anonymous Syriac Chronicle, p. 304; William of Tyre, Vol. II, p. .
الفتح البنداري، منا البرق الشامي، ص ١٩؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢/١، ص ٣٣٩؛
ابن واصل، للمصدر السابق، ج١، ص ١٤٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤،
ص ١٨٦.
- (٨٣) Anonymous syriac Chronicle, p. 204; William of Tyre, Vol. II, p. 308.
- (٨٤) Chen, La Syrie du nord à L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 204.
يقول عنها : " Le desastre de Harim " .
- (٨٥) ابن الأثير، الجاهز، ص ١٢٥، ابن العديم، للمصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٠.
- (٨٦) William of Tyre, Vol. II, p. 308-310، ابن العديم، للمصدر السابق، ص ٣٢١.
- (٨٧) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ١١٦.
- (٨٨) نفسه، نفس المصدر والمصنف.
- (٨٩) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ثقافية، تجارية، صليبية،
ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥٤.
- وبلاحظ أن كلمة كراك Crac، تحريف للفظه الأكراد، وتختلف عن كلمة Crac، الواردة
في Crac des Moabites ، Crac de Montrial ، وهاتين الإسمين تحريف للفظه آرامية هما
«كرخا» ومعناها مدينة، عن ذلك أنظر :
- فيليب حتى، لبنان في التاريخ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ٣٤٦.
- (٩٠) هنري لامنس، دولة العلويين، المشرق، العبدان (٨)، (٩)، م (٢٧)، عام ١٩٢٩م، ص ١٦٨.
- (٩١) عبدالرحمن زكي، العمارة العسكرية في العصور الوسطى، المجلة التاريخية للصربية، م (٧)، عام
١٩٥٨م، ص ١٢٨، حاشية (٣).
- (٩٢) يوسف سمارة، جولة في الإقليم الشمالي، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٦٢.

(٩٣) عبدالله عنان، قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان، مجلة الهلال، حـ (٥)، السنة (٤٢) عام ١٩٣٣م، ص ٥٥٤.

(٩٤) ابن القلاسي، المصدر السابق، تحقيق أميدروز، ص ١٦٢.

(٩٥) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه P.O., T. XII ط. باريس، ص ٥٢٨.

King, "The Taking of Le krak des chevaliers in 1271", Antiquity, Vol. XXIII, (٩٦) p. 89; Lawrence, Crusader Castles, Vol. I, London 1936, p. 47.

King, The Taking, p. 39. (٩٧)

Riley, Smith, A History of The Order of the knights of St. John of Jerusalem, (٩٨) London 1967, p. 37; Fedden, Crusader Castles, p. 50.

(٩٩) المقرئ، السلوك لمعركة دول الملوك، حـ ١ / ق ١، تحقيق مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ص ٥٩١.
عبدالقادر المغربي، الظاهر بيبرس، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٢١)، حـ (٥)، حـ (٦)، عام ١٩٤٦م، ص ٢٣٥.

King, The knight, Hospitallers in the Holy Land, London 1930, p. 270.

وعن حصن الأكراد بصفة عامة أنظر :

مرفت محمد سعيد، حصن الأكران ودوره في الصراع الصليبي/ الإسلامي (٥٨٩-٦٩٨هـ / ١١٩٣-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م؛ سميل، الحروب الصليبية، ت. سامي هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٢٥٧، نقولا زيادة، صور من التاريخ العربي، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص ١٠٥، جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس في مصر، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٨١-٨٢، عبدالعزيز عبدالنديم، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عم ١٩٧١م، ص ٤١.

Rchard, Le Conte de Tripoli sous le Dynastie Toulousaine (1102-1187), Paris 1945, p. 2; Deschamps, Les chateaux des croisés, Crac des chevaliers, Paris 1934; Ribaoui, Le Crac des chevaliers, Guide Touristique et Archacologique, Damas 1975.

(١٠٠) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧.

(١٠١) نفسه، نفس المصدر، ص ١١٧.

- (١٠٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (١٠٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (١٠٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٦٩.
- (١٠٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (١٠٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٧٠.
- (١٠٧) ابن شداد، للمصدر السابق، ح ٢، ص ٦٩، النابلس، رحلتان إلى لبنان، تحقيق صلاح الدين المنجد واسطفان فيلد، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ١٧٢، يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر للملوكي، ط. عمان ١٩٨٢، ص ٢٥٩، إمارة الكرك الأيوبية، ط. عمان ١٩٨٢م، ص ١٥٥، لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ت. سليمان موسى، ط. عمان ١٩٦٥م، ص ١٠٤-١٠٧.
- (١٠٨) حمود القشاشي، الآثار في شمال الحجاز، ح ١، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٧٦.
- (١٠٩) يوسف درويش غوانمه، التاريخ الحضاري، ص ٢٦٣.
- (١١٠) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ١٥٢.
- (١١١) عن موقع قلعة تبين أنظر :
- ياقوت، معجم البلدان، ح ١، تحقيق وستفيلد، ط. ليزج ١٨٨٩م، ص ٨٢٠، العثماني، تاريخ صفة، ص ٤٨٢.
- Jipejian, Sidon, Through the ages, Beirut 19 , p. 104.
- (١١٢) William of Tyre, Vol. i, p. 449. , أنظر أيضاً :
- Rey, Les colonices Franques, p. 499.
- (١١٣) Riley-Smith, Op. Cit., p 37 .
- (١١٤) ابن الأثير، الكامل، ح ١١، ص ٥٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٣، ص ١٧٧، الفتح البندري، سنا البرق الشامي، ص ٣٠٤.
- Ernoul, p. 51.
- (١١٥) ابن شداد، النواجر السلطانية، ص ٨٠، ابن خلكان، للمصدر السابق، ح ٧، ص ١٧٧، ابن الأثير، لمصدر السابق، ح ١، ص ٥٤٢، الفتح البندري، للمصدر السابق، ص ٣٠٤.

- (١١٦) ابن شداد، للمصدر السابق، ح-٢، ص ١٥٣.
- (١١٧) نفسه، نفس المصدر، ح-٢، ص ١٥٣؛ حامد غنيم، للجهة الإسلامية، ح-٣، ص ١٤٣.
- (١١٨) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٥٤.
- (١١٩) سليمان مظهر، قلعة شقيف أرثون، مجلة الجمع العلمي بدمشق، عدد عام ١٩٤٤م، ص ٤٢٤.
- (١٢٠) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٥/ ح ١، تحقيق الشماخ، ط. البصرة ١٩٨٩م، ص ٢٢١، حاشية (٩٠٠)، حتى، المرجع السابق، ص ٣٥٨.
- (٢١) سليمان مظهر، المرجع السابق، ص ٤٣٠.
- (١٢٢) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ٣٢٥.
- ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٨.
- Rubricht, E Tude Sur Les derniers Temps de Royaume de Jerusalem, Les combates de Sultan Bibars contre les chretiens en Syrie, A.O.L., T. II, p. 390-391.
- (١٢٣) ابن شداد، للمصدر السابق، ح-٢، ص ١٤٦.
- (١٢٤) عاشور، الحركة الصليبية، ح-٢، ص ٦٠٠-٦٠١، الطرلونة، مملكة صفة، ص ٨٦.
- (١٢٥) ابن شداد، للمصدر السابق، ح-٢، ص ١٤٦؛ وقليل الطرلونة، المرجع السابق، ص ٨٥.
- (١٢٦) العثماني، للمصدر السابق، ص ٤٧٩.
- (١٢٧) عاشور، المرجع السابق، ح-٢، ص ٦٩٣.
- (١٢٨) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 260.
- (١٢٩) ابن عبدالظاهر، للمصدر السابق، ص ٢٦١؛ مفضل ابن أبي الفضائل، المصدر السابق، ص ٤٩٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ح-١٣، ص ٢٤٧؛ ابن الشحنة، للمصدر السابق، ص ١٣٢؛ المقرئ، للمصدر السابق، ح-١/ق ١، ص ٥٤٣.
- (١٣٠) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ٨٠.
- (١٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٢.
- (١٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٢.

(١٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

ويوشع بن نون هو الذى تولى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، وهناك سفر خاص به يحمل اسمه فى العهد القديم، وهو سفر يشوع، ويمكن تقسيم حياة يشوع أو يوشع إلى قسمين، الأول ويطلق عليه مرحلة الصحراء، وفيها تجده بمثابة مساعد ومعين للنبي موسى عليه السلام، أما القسم الثانى فيتمثل فى دوره فى قيادة بنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وفى المجال الآخر تجده يرتبط ارتباطاً وثيقاً باتجاههم نحو غزو أرض كنعان Canaan والاستقرار فيها، وقد تمكن من عبور الأردن والنزول بفلسطين، وتم الاستيلاء على أرض Jericho، وأعقب ذلك ملوحة كبرى قتل فيها كل من وجده فيها تقريباً من السكان. ويقرر البعض أن يوشع قد جعل مبدأه قانون القوة، فصور أن أكثر الناس سفكاً للدماء، هو الذى يبقى على قيد الحياة. عن يوشع بن نون أنظر : سفر يشوع، من ١ : ٣.

Petachia of Ratisbon, Tour du Monde, Ou voyage de Rabbi petachia, ed. Carmoly, J.a., T. VIII, Paris 1831, p. 391; U.J.E., Joshua, Vol. VI, New York 1969, pp. 202-206; E.B., Joshua, Vol. VIII, U.S.A., p. 153; C.E., Joshua, Vol. VIII, London 1973, p. 140; D.E.q., "Joshua", T. II, Paris, 1953, p. 3027.

عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ٤٤-٤٥، أحمد شلبي، اليهودية، ط. القاهرة

١٩٨٤ م ص ٦٩.

(١٣٦) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩٩.

(١٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٧.

(١٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٤١) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ووادى جهنم، وقع شرق بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل صهيون غرباً، وخلال العصور الوسطى، أطلق عليه المؤرخون أسماء متعددة مثل : وادى مريم، أو وادى التار،

أو وادي سلوان، أو وادي يوسفات. ويلاحظ أن هناك إشارات متعددة عن ذلك الوادي في مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر للميلاد/ السادس الهجري وفيما بعد، وقد احتوى وادي جهنم خلال تلك المرحلة على العديد من التناك الذين أقاموا فيه. عن وادي جهنم أنظر :

William of Tyre, Vol. I, p. 341; John of Wurzburg, p. 50-51; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p. 69, p. 71; Ludolph Von Suchem, Description of the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, Vol. XII, London 1895, p. 97, p. 110; Felix Fabri, The wanderings of Felix Fabri, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, Part II, London 1893, p. 458.

سعيد البشاري، للممتلكات الكنسية، ص ١٢٢.

(١٤٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(١٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٣، ١٥٦-١٥٧، وغيرها.

(١٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

(١٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٣١.

(١٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٢٩-١٣٠.

(١٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٠.

(١٤٨) نفسه، نفس المصدر، ح ١/ق ١، والصفحة.

(١٤٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٥٠) ابن القلانسي، للمصدر السابق، ص ٢١٥، مبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ح ٨/ق ١،

ص ١١٨، ابن شداد، للمصدر السابق، ح ٢، ص ١٤٠.

(١٥١) ابن القلانسي، للمصدر السابق، ص ٢١٥، ابن شداد، للمصدر السابق، ح ٢، ص ١٤٠.

(١٥٢) ابن القلانسي، للمصدر السابق، ص ٢١٥.

ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص ٩٥.

(١٥٣) باتياس، تقع إلى جهة الغرب مع ميل إلى الجنوب من دمشق، وكانت تطل على إقليم يعرف

بإقليم الحولة الذي اشتمل على مائتي قرية على حد قول ابن شاهين وتعرف أحياناً بالصبيبة،

وقد يخلط بينها وبين باتياس الواقعة على الساحل الشامي. عن باتياس أنظر :

أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٢٨-٢٢٩؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤٦، الخالدي، للمقصد الرفيع للنشأ، ورقة (٨٨)، عمر كمال توفيق، مقدمات المدون الصليبي، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٩٤-١٩٥.

(١٥٥) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٢٥، ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص ٩١، العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٢٠.

(١٥٦) مصطفى غالب، أعلام الاسماعيلية، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص ١٧٢.

(١٥٧) الكامل، ح ١٠، ص ٢٥٠.

(١٥٨) أنظر عن أحداث الصلح بين الدروز والاسماعيلية؛ ابن القلائسي، المصدر السابق، ص ٢٢١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ح ١٠، ص ٥٠، العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٤١؛ ابن شداد، المصدر السابق، ح ٢، ص ٤٠، ونسيمان، الحروب الصليبية، ح ٢، ص ٢٨٦.

Cahen, Op. Cit., p. 347.

(١٥٩) اعزاز، ويقال عزاز، بلدة تقع بشمال حلب على بعد مرحلة منها، عنها أنظر : أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(١٦٠) مفرج الكروب، ح ٢، ص ٤٥.

(١٦١) أبو شامة، الروضتين، ح ١ / ق ٢، ص ٦٦٠، سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ح ٨ / ق ١، ص ٢٣٥. وعن محاولة الاغتيال أنظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٢، العماد الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٤١.

Runciman, The Crusades, p. 409; Stevenson, The Crusaders, p. 212.

(١٦٢) ابن شداد، المصدر السابق، ح ١ / ق ١، ص .

(١٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص .

(١٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٣.

(١٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٤.

(١٦٦) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. وعن إحراق المجد الجامع في حلب من جانب الاسماعيلية التزارية أنظر :

بيشوف، تحفة الأنبياء بتاريخ حلب الشهباء، ط. بيروت ١٨٨٥م، ص ١٢٧. وعن ذلك
للمسجد الجامع :

ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٠، ابن بطوطة، الرحلة، ص ٧٠ أحمد رمضان، العمائر الدينية
في بلاد الشام في العصورين الأيوبي والملوكي، ضمن كتاب الاحتفال الخمسيني لكلية
الآثار، جامعة القاهرة، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٣٢-١٣٣.

(١٦٧) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ١٠٤.

(١٦٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٠٧.

(١٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(١٧٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة. عنها أنظر أيضاً :

ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم
(٨٣٨) تاريخ تيمور، حامد زيان، حلب في العصر الزنكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب،
جامعة القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص ٧٣، أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ط.
دمشق ١٩٥٦م، ص ٢٥١.

(١٧١) ابن شداد، للمصدر السابق، ص ٢٣٦.

(١٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٧.

(١٧٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(١٧٥) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

٥ - ابن سعيد المغربي

(ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الجغرافيين المسلمين الأندلسيين، الذين عاصروا القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وتناولوا بلاد الشام، وهو ابن سعيد المغربي^(١) (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، وقد احتلت بلاد الشام أهمية متميزة في مؤلفات ذلك الجغرافي ومن ثم سلط الأضواء الكاشفة على العديد من جوانب حياتها خلال عصر الحروب الصليبية ولاسيما خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وابن سعيد المغربي؛ هو أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك^(٢)، ولد في ليلة عيد الفطر من عام ٦١٠هـ / ١٢١٤م، في قلعة يحصب Alcala La Real الواقعة على بعد ٥٢ كم من غرناطة بالأندلس^(٣)، وانتسب إلى أسرة عريقة، اتصل أفرادها بعدد من الملوك، والأمراء، كما أن صفة العلم، والأدب، لازمت العديد من أفراد تلك الأسرة.

وتجدر الإشارة إلى أن جده لوالده أهدى ولاءه للدولة المرابطية، على نحو آثار غضب وحقد أهل الأندلس عليه وعلى أسرته عام ٥٦٩هـ / ١٩٧٣م، فاضطر إلى اللجوء إلى قلعة يحصب المذكورة، ثم اتجه نحو تأييد الموحدين من بعد ذلك^(٤)، أما والده أبو موسى؛ فكان عالماً بارعاً في العديد من الفنون لا سيما فنون الأدب.

وهناك من يرى أن ابن سعيد المغربي قد خرج إلى المشرق في رحلتين، وفي الرحلة الأولى اتجه صوب مصر والشام، والعراق، وأرمينية، وتجول في تلك المناطق، وذلك على

مدى أكثر من عشر سنوات كاملة^(٥)، وذلك قبل توجهه إلى جزيرة العرب من أجل تأدية فريضة الحج، وذلك قبل العودة إلى تونس، وفي الرحلة الثانية، خرج ابن سعيد صوب مصر، وأرمينية، وإيران، وتجول في تلك المناطق، على مدى ثلاث سنوات. وذلك قبل أن يعاوده الحنين إلى تونس فذهب إليها مرة أخرى^(٦).

وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكان وفاة ابن سعيد المغربي وزمانها، فهناك من يرى أنه توفي بدمشق في عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م^(٧)، كما أن هناك من يرى أنه توفي بعد ذلك في عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م^(٨)، في تونس، غير أن هذه الناحية لا تزال موضع اختلاف بين الباحثين وليس من اليسير ترجيح أحد الرأيين.

وقد ألف ابن سعيد العديد من المؤلفات في مجال الجغرافيا، والرحلات، والأدب، والتاريخ، على نحو عكس ارتفاع شأنه في تلك العلوم، والفنون، ومن تلك المؤلفات للذة الأعلام في تاريخ الأمم الأعجام، وريحانة الأدب، نتائج القرائح في مختار المراتي والملائح، والشهب الشافية في الأنصاف من المشاركة والمغاربة، الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد، والنفحة المسكية في الرحلة المكية، ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب. والقدح الملقى، والمرزومة في الفوائد الأدبية والإخبارية، وكذلك المشرق في حلى المشرق، والمغرب في حلى المغرب^(٩)، وكتاب الجغرافية، وكتاب بسط الأرض في الطول والعرض.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من اعتقد أن كتاب بسط الأرض في الطول والعرض؛ هو كتاب الجغرافيا^(١٠)، غير أن إسماعيل العربي قد أثبت أن الكتابين مختلفان، وأن بسط الأرض يمثل اختصاراً لكتاب الجغرافيا^(١١).

وتجدر الإشارة، إلى أن كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، قد حققه خوان خنيس، وصدر في تطوان عام ١٩٥٨م أما كتاب الجغرافيا فقد حققه إسماعيل العربي؛ وصدر في بيروت عام ١٩٧٠م، ويخلط أحد الباحثين بين الأمرين حيث يتصور أن خوان خنيس قد حقق كتاب الجغرافيا^(١٢).

وهناك ناحية هامة، تتمثل في المصادر التي اعتمد عليها ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا، ويرى البعض أن جغرافية ابن سعيد تعتمد إلى حد كبير على الإدريسي في مادتها الأساسية^(١٣). ومع ذلك فلا يمكن أن نعتبر الإدريسي هو المصدر الوحيد لأن هناك مصادر أخرى مثل المشاهدة الشخصية، بالإضافة إلى المعارف الجغرافية اليونانية مثل ما ألفه بطليموس القلوزي (ق ٣٢) تحت عنوان المجسطي Al Mageste^(١٤) والذي ترجمه حنين بن اسحاق في العصر العباسي الأول، ومثل أحد أهم مصادر العلماء الجغرافيين العرب على مدى العصور الوسطى.

أضف إلى ذلك، اعتماده على أحد الرحالة الذين فقدت مؤلفاتهم وهو ابن قاطمة، خاصة فيما يتصل برحلاته في جنوب الساحل المراكشي^(١٥).

أما بالنسبة لبلاد الشام، فمن المرجح أن ابن سعيد قد أفاد من مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسي وغيره بالإضافة إلى المشاهدات الشخصية، التي تركت بصماتها على رؤيته لبلاد الشام وإن جاءت في صور مقتضبة.

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل القول بأن ابن سعيد في «الجغرافيا» قد اعتمد إلى حد كبير على الإدريسي، لوجود اختلافات بين منهجي كل من الجغرافيين المسلمين الكبيرين، ومن أمثلتها ثراء الإشارات التي يقدمها الإدريسي عن بلاد الشام، إذا ما قورنت بما أورده ابن سعيد، بالإضافة إلى أن الإدريسي يهتم بدرجة كبيرة بذكر المزارات الدينية المسيحية في فلسطين، بينما نجد أن ابن سعيد لا يعتنى بها، ولا يبرزها البتة، وفي حالة اقتراض اعتماده بصورة كبيرة على مؤلف نزهة المشتاق لتأثر به في تلك النواحي، الأمر الذي لم يحدث، وأغلب الاحتمال أن ابن سعيد اعتمد على الإدريسي مثل اعتماده على المصادر الجغرافية الأخرى، مع علم إغفال رؤيته الشخصية، وهي التي تحتل أهميتها فيما يتصل بوصفه لبلاد الشام، على الرغم من طابع الإيجاز الغالب على ذلك الوصف.

أما إذا نظرنا إلى رؤية ابن سعيد للمغربى لبلاد الشام، فنجد أنه قد حرص على إبراز الأطوال، والأبعاد بين مدن الشام دون أن يقدم التفاصيل المتوقعة منه في هذا المجال. ونجد مثالا دالا على ذلك عند تناوله لمدن قيسارية، وطرابلس، واللاذقية، حيث اكتفى بتحديد المسافات بينها، ولم يتحدث عنها بأية إشارة.

يبد أنه لم يستمر على ذلك المنهج، إذ أنه عندما تناول عكا وصفها بأنها «ركاب الفرخ ومجمع تجارتهم وحجاجهم»^(١٦) ومن الواضح أنه أجمل بذلك تناول الخاص بها، من حيث أهميتها التجارية، ومكانتها بوصفها ميناء للحج، مع ملاحظة أن ميناء يافا مثل هو الآخر ميناء يصل إليه الحجاج المسيحيون من أجل الوصول بعد ذلك إلى المواضع المقدسة في فلسطين، مع ملاحظة أن إشارته بشأن عكا تظل مختصرة للغاية، ولا تتناسب مع مكانة تلك المدينة الهامة والحيوية والتي مثلت يوماً ما القلب التجارى للوجود الصليبي في بلاد الشام.

أما فيما يتصل بمدينة صور فنجد أنه يشير إلى حصاتها ومناعتها. وقد ذكر أنها لا تلام من ناحية البر، كما أن الصليبيين أداروا البحر حولها. من أجل إحكام حصاتها^(١٧). أما بيروت فقد قدم إشارة هامة عنها عندما قرر أنها ميناء دمشق^(١٨)، وهذا يوضح كيف أن المدن الشامية الداخلية البرية اعتمدت على مدن ساحلية من أجل تصريف منتجاتها وتجاريتها. وعندما تناول يافا، فإنه لم يقدم عنها إلا القليل النادر، وذكر أنها من الفرض المشهورة. وفي إشارته لغزة نجد أنه لا يقدم إلا عبارة أن بينها وبين البحر، أكوام من الرمال^(١٩).

ومن الواضح الجلى، أن إشارات ابن سعيد لمدن الساحل الشامى، إشارات محدودة ليست ذات ثقل، وتقل بكثير في أهميتها عما ورد بشأن نفس المنطقة الهامة، لدى مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام خلال ذلك العصر.

أما النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام، والذي تعرض إليه ابن سعيد المغربى، فنجد من خلال زاويتين، الأولى الزراعة والثانية التجارة، أما الزراعة، فنجد أنه يقرر اشتهار حارم بإنتاج نوع جيد من الرمان يمتاز بكثرة المياه^(٢٠)، أما معرة النعمان فنجد أنه يقرر اشتهارها بزراعة الزيتون والتين والفسق^(٢١) وغيرها من المنتجات، وبالنسبة لحلب نجد أنه يقرر أنها تنتج القطن، وكذلك الفستق الكبير^(٢٢)، ومن الواضح أهمية إشارته بشأن القطن، على اعتبار أنه يدخل فى صناعة المنسوجات.

أما التجارة فنجد أنه يشير إلى أن القطن الذى ينتج فى حلب يدخل فى نطاق تجارة البحر المتوسط فيصل إلى سبته بالمغرب الأقصى^(٢٣)، ويبدو أن حلب اعتمدت على ميناء السويدية، أو غيره من الموانئ على الساحل الشرقى للبحر المتوسط من أجل تصريف منتجاتها، مع ملاحظة أن عالم البحر المتوسط فى عصر الحروب الصليبية كان بمثابة منطقة تجارية واحدة ومشاركة بين قسميه الشرقى والغربى، ولعل مقولة ابن سعيد بشأن قطن حلب خير شاهد على ذلك.

ومن جهة أخرى، نجد أنه عندما يذكر مدينة الباب الواقعة فى وادى بطنان، شمال شرق حلب، نجد أنه يذكر دورها فى حركة التجارة ويقرر أن بها نشاط تجارى للبرازين أى تجار الأقمشة وكذلك العطارين^(٢٤)، وتجدر الإشارة إلى أن أنواع العطارة قد تزايدت فى بلاد الشام بشكل واضح فى ذلك العصر، وفى القرن السابق على زيارة ابن سعيد المغربى لبلاد الشام ونعنى به القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، عند ابن القلانسى^(٢٥) نحو ثلاثمائة وثمانين صنفاً من أصناف العطارة لدى أحد العطارين بمدينة دمشق^(٢٦)، حقيقة أن أسواق الباب، لا يمكن أن تقارن بأسواق دمشق المزدهرة تجارياً، لكن من المنطقى تصور أن الازدهار التجارى قد أصاب أسواق تلك المدينة وإن كان بصورة أقل بالطبع.

أما إذا ما اتجهنا إلى وجهة أخرى، ونعنى بها مصادر المياه فتجد أن ابن سعيد قد اهتم بها، وأورد عدداً من أنهار بلاد الشام، بل وتتبع مسار بعضها، ومن أمثلة ذلك نهر الأردن، وقد أشار إلى أنه يخرج من بحيرة طبرية، ويمر بالنور إلى أن يصب في البحيرة الميتة (٢٧). أما نهر قويق، فقد ذكر أنه يأتي من جهة عزاز (٢٨)، أما نهر العاصي فإنه يقرر أنه ينزل من جهة بعلبك، ويعنى بذلك أنه ينبع من هناك، ويمر على شمالى حمص، وحماة، وشيزر، ثم يسير إلى الشرق من أنطاكية، وشماليتها (٢٩) إلى أن يصل إلى البحر المتوسط.

ومن الطبيعى أن نلاحظ اهتمام ابن سعيد بمسألة المياه خاصة أنهار الشام بحكم أهميتها لمظاهر الحياة المتعددة، غير أنه لم يظهر تبين أقاليم بلاد الشام فى الرى بمياه الأمطار والعيون والينابيع ومياه الأنهار الأمر الذى وجدناه لدى الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الإدريسي وياقوت والقزويني.

أما المزارات الدينية والعلاجية، فقد أشار إليها ابن سعيد بإيجاز، ومن أمثلة النوع الأول، أنه تناول بالحديث وجود جعفر الطيار فى مؤتة، وكذلك قبور أصحابه (٣٠)، ويبدو أنه لم يعترض على ذلك، ولم يشك فيه، أما فى غزة فتجده يقرر أن هناك من يزعم بأن جد النبى عليه السلام مدفون بها، ومن الواضح علم اقتناعه بذلك بدليل إشارته للأمر على أساس أنه زعم (٣١) ولا يدخل فى نطاق الحقائق المؤكدة، وإن لم تتوافر لدى ابن سعيد المغربى ذات الشجاعة التى كانت لدى ياقوت الحموى.

وفيما يتصل بالمزارات العلاجية تجد أنه يقرر أمر عيون طبرية الساخنة، ويبدو أنه لم يدرك دورها العلاجى، واعتبرها بديلاً عن الحمامات (٣٢)، ولعل ابن سعيد يكاد يكون من الجغرافيين المسلمين القلائل فى ذلك العصر الذين لم يشيروا إلى الخاصية العلاجية لعيون طبرية.

أما الخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فنجد أن ابن سعيد قد ألقى الضوء على العناصر الشيعية؛ ولاسيما الإسماعيلية والنصيرية، فبالنسبة للإسماعيلية أشار إلى أنه يتصل بجبل الإسماعيلية، وعلى نفس منسوبهم العقائدي جبل السماق وتكثر به العناصر الإسماعيلية، وقد عبر عن تلك الكثافة السكانية لأصحاب ذلك المذهب بقوله «هو ملآن بالإسماعيلية» (٣٣)، ومن ناحية أخرى، عندما تعرض لمدينة سلمية، لم يفته أن يذكر تاريخها ودورها في بداية الدعوة الإسماعيلية، فقد ذكر أنه خرج منها عبدالله المهدي فأقام دعوتهم في بلاد المغرب ثم توالى أمرهم إلى أن أزال دولتهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (٣٤).

والى جانب الإسماعيلية، نجد أن ابن سعيد المغربي قد سلط الضوء على النصيرية، وعمل على تحديد موقعهم الجغرافي. إذ أنه أشار إلى جبل النصيرية الذي يظهر قائماً على جبلية واللاذقية. وقد أوضح أنهم ينسبون إلى نصير مولى الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كما أنه تعرض لبعض عقائدهم الباطلة مثل تصورهم أن الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون، وأنهم غالوا في تأليهه. وقد قدم إشارة هامة لتوزيعهم الجغرافي، عندما أوضح أنهم يوجدون أيضاً في جزيرة عانا، من طرف الجزيرة التي تلي العراق على حد تحديده. أي أن وجودهم الجغرافي تجاوز الشام، واشتمل على مناطق في العراق أيضاً (٣٥).

وتجدر الإشارة، إلى أن إشارات للمصادر العربية المعاصرة لعصر الحروب الصليبية في بلاد الشام، أشارت إلى الإسماعيلية إشارات هامة وواقية إذا ما قارناها بتناولها لعناصر النصيرية. ومن ثم تأتي أهمية ما أورده ابن سعيد المغربي في هذا الصدد.

وهكذا، أفادت إشارات ابن سعيد المغربي من خلال تناوله بلاد الشام، أفادت في إلقاء الضوء على جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. على نحو كشفت عنه الصفحات السابقة.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن سعيد المغربي أنظر :

ابن سعيد المغربي، للمقتطف من أواخر الطرف، تحقيق سيد حنفى حسنين، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ١١٦، للقرى، نفع الطوب في غصن الأتلس الرطوب، ح ٢، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص ٢٧١، محسن العبادي، ابن سعيد الأتلسي، حياته وتراثه الفكري والأدبي (٦١٠-٦٨٥هـ / ١٢١٤-١٢٩٤م)، ط. القاهرة، ١٩٧٢م، عبدالرحمن زكي، أعلام العرب في الجغرافيا، المجلة العربية، السنة (٣)، العدد (١) ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٥٢، عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٤٨٩-٤٩١، على عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٨٨، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ١٨٩، محمد أحمد العقيلي، جهود الجغرافيين للمسلمين في رسم الخرائط، ص ١٦٨، بالثيا، تاريخ الفكر الأتلسي، ص ٢٤٤.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. I, p. 410.

وعن أسرة بني سعيد بصفة عامة، أنظر هذه الدراسة الهامة :

Potiron, elements de Biographie et de geneologie des Banu, Sa' id, R.E.A., T. XII, Année 1965, pp. 78-91.

(٢) للقرى، للصبر السابق، ح ٢، ص ٢٧٠، على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٣) للقرى، للصبر السابق، ح ٢، ص ٢٧٠، على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٤) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٥) صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي مسرة ومسيرة، ص ٢٦١.

(٦) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٧) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٩٠.

(٨) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩٧، بالثيا، المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٩) للقرى، للصبر السابق، ح ٢، ص ٢٧١، على عبدالله الدفاع، المرجع السابق، ص ١٩٠-١٩١.

عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص ٥٢، عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٣٩٧.

(١٠) على عبدالله الدفاح، ابن سعيد للفرى، مجلة الدفاح، العدد (٣٧)، السنة (٢٨)، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ / يناير ١٩٩٠م، ص ١٠٣. أنظر أيضاً : محمد المنوفى، الجزيرة العربية فى الجغرافيات والرحلات للفرى، ص ١٦٦.

وعلى سبيل المثال نجد الباحث الأخير يقرر عن كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض ما معناه أنه نشر مرتين مرة بتحقيق خوان خنيس، معهد مولاى الحسن تطوان ١٩٥٨م، والثانية فى بيروت ١٩٧٠م، بتحقيق إسماعيل العربى.

(١١) أنظر : مقدمة تحقيق إسماعيل العربى للكتاب الجغرافيا، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص ٢٥.

(١٢) على عبدالله الدفاح، رواد علم الجغرافيا، ص ١٩٠.

(١٣) عبدالرحمن حميدة، المرجع السابق، ص ٤٩١.

(١٤) محسن العبادى، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

وطليميوس هو بطليموس القلوذى Claudius Ptolemaeus، ويعد أكبر شخصية جغرافية فى العصر الرومانى، عاش فيما بين ٨٧-١٦٥م وكان عالماً رياضياً فلكياً، ويعد من علماء الاسكندرية فى القرن الثانى للميلادى، ويلاحظ أنه لم يكن رومانى الأصل بل كان مثل استرابون Strabo افرقياً، وأهم أعمال بطليموس رسالة فى الفلك تقع فى ١٣ مقالة تعرف باسم الجسطى Al Mageste كذلك كتاب المرشد إلى الجغرافى أو للدخول إلى الجغرافيا، وتعد جهوده أهم محاولة قديمة من أجل وضع دراسة الجغرافيا على أساس علمى، وهناك من يقرر أن كتابات بطليموس، كانت أدق من كتابات استرابون فى موضوعها، كما أنه رسم أفضل خرائط ذلك العصر، ويلاحظ أن للمسلمين عمالوا على تصويب الأخطاء التى وقع فيها بطليموس فى كتابه الجسطى وألفوا مؤلفات للرد عليه، عن بطليموس القلوذى أنظر :

Fisher, Geogrophy of Claudius Ptolemy, Trans. by Stevenson, New York 1932.

شريف محمد شريف، تطور الفكر الجغرافى، ح ١، العصور القديمة. ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٣٩١-٣٩٣ وود، الارتداد والكشف الجغرافى، ت. شاكر خصباك، ط. صيدا ب-ت، ص ١٧-٣١ دولت صادق والبنوا امبابى، أسس الجغرافيا العامة. ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص ٨؛ البشير صقر، الجغرافيا عند العرب، نشأتها وتطورها، ت. جماد الساعلى، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ١٨-١٩ ضياء الدين علوى، الجغرافيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر للميلاديين (الثالث والرابع للهجرين)، ت. عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، ط. جدة ١٩٨٤م،

ص ٢٢-١٣٣، على عبدالله الدففاع، لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ط. الرياض ١٩٨١م، ص ١٩١، جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ت. يعقوب بكر، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨٧، محمد عبدالرحمن مرجعا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٣٨.

(١٥) محسن العبادي، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

وابن فاطمة، رحالة من أهل السودان الغربي، ومن المحتمل أن يكون أصله ما يعرف اليوم بالسفاح أو ما يليه جنوباً، وربما كان من أهل غانة الإسلامية، على اعتبار أن نسبة الناس إلى أمها كان شائعاً في تلك النواحي على نحو خاص، ولدينا أمثلة على ذلك في صورة ابن الصحراوية، وابن غانية، وابن عائشة، وابن فو بنت يوسف بن تاشفين وجميعها تتشابه مع اسم ابن فاطمة، وقد عاصر ذلك الرحالة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على ما هو مرجح، وقام برحلة بحرية جنوب مراكش، بيد أن سفينته غرقت عند الرأس الأبيض (جنوب ساقية الذهب، رهودو أور) وذلك بعد أن توغل في كشف الساحل الأفريقي الغربي إلى أبعد ما كان يعرفه الأوروبيون حينذاك عن تلك المنطقة، وهناك من يقرر أن ما ألفه ابن فاطمة بعد أفضل ما ألفه المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ويلاحظ أن كتابات ذلك الرحالة قللت يد أن قسماً مهماً منها، أورد ابن سعيد المغربي في مؤلفاته.

والجنير بالذكر، أن حسين مؤنس قد اعتقد أن ابن فاطمة قد توفي عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م (أنظر : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٩)، وفي موضع آخر يذكر أن ذلك الرحالة كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أي أنه من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في الأغلب، (أنظر : ص ٥٠٧)، والواقع أن التحديد الذي ذكره والخاص بعام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م لا يمكن قبوله البتة، لأن ابن سعيد المغربي توفي عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، ومن المستحيل أن يعتمد على ما ألفه ابن فاطمة بمثل التصور السابق، والأرجح أنه كان معاصراً لرحلة زمنية قبل عصر ابن سعيد - بلليل استعانة الأخير بما ألفه - ومن المحتمل أن ذلك كان خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأمام الاعتبارات السابقة، أجنني أخالف ما ذهب إليه د. حسين مؤنس بشأن وفاة ابن فاطمة عام ٧٣١هـ/ ١٣٣١م. عن ابن فاطمة أنظر :

عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ١٤٩٠، حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥٠٦-٥٠٧، ٥١٦، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٧٦.

(١٦) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٣.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤، وعن زراعة القطن في حلب أنظر : ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٤، ط. القاهرة ١٢٩١هـ، ص ١١، ٢٤.

(٢٣) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

والباب، بلدة صغيرة، وقعت في شمال الشام، وبالتحديد في وادي بعلتان الواقع بحدوده في شمال شرق حلب، وقد وصفت الباب بأنها ذات سوق، وحمام، ومسجد جامع، ووجدت فيها بساتين عديدة، ومن للملاحظ أن بعض مصنوعات الباب، تم إرسالها إلى أنحاء الشام الأخرى، وكذلك مصر مما عكس جودتها بحيث دخلت في مجال التجارة الخارجية. عن الباب أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٩٦-٢٩٧، ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٢٤-٢٢٥، ابن عبدالحق البغدادي، مرآة الإطلاع، ج ١، ص ١٤٢، شيخ الرهوة، نخبه الدرر، ص ٢٨.

(٢٥) ابن القلانسي، هو حمزة بن أسد المعروف بأبي يعلى، وقد انتمى إلى أسرة دمشقية عريقة انحدرت في نسبها إلى قبيلة تميم العربية، وتلقى تعليمه منذ حداثة عمره لاسيما العلوم الدينية، وصارت لديه خلفية فكرية متسعة، في مجال علوم الفقه، والشريعة، والتحق بالعمل في ديوان الرسائل، وتقدم فيه حتى صار عميداً للديوان. كذلك، فإنه تولى منصباً هاماً، ألا وهو رئيس مدينة دمشق، وقد ألف كتابه ذيل تاريخ دمشق الذي جعله بمثابة ذيل على ما ألفه ابن هلال الصابي، وهو الأثر الأدبي الوحيد الذي قام بتأليفه كما يلاحظ هاملتون جب Hamilton Gibb، وقد تولى ابن القلانسي في عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، عنه أنظر :

ياقوت، معجم الأدياء، حـ ٤، ص ١٤٥، أبو شامة، الليل على الروضتين، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٣٥، ابن تفرى يردى، للتهل الصافى للمستوفى بعد الوافى، حـ ١، تحقيق أحمد يوسف نجاشى، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٣٦. النجوم الزاهرة، حـ ٥، ص ٢٣٢، لويس شيخو، تاريخ دمشق لابن القلاسى، للشرق، عدد (٨) عام ١٩٠٨م، ص ٦١٩، هاملتون جب، تاريخ دمشق، ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي، دراسة فى التاريخ الاسلامى، ت. يوسف أبوس، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص ٤٠، صلاح الدين للتجد، المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة، مجلة معهد المخطوطات العربية، م (٢)، حـ ١، عدد مايو ١٩٥٦م، ص ٨٠، معجم للمؤرخين الدمشقيين، ط. بيروت ١٩٧٤، ص ٣٤، روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ت. صالح العلى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٢٠٢، يسرى عبدالقنى عبدالله، معجم للمؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى، ط. بيروت ١٩٩١م، ١٤٠-١٤١، محمد على مسيرى، أبو الحسن الخرجى وآثاره التاريخية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، علم ١٩٨٦م، ص ٢٨٥.

Cahen, La Syrie du nord à L'epoque de croisades, p. 39-40.

(٢٦) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميلروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ٣١٩، محمد مؤنس أحمد عوض، الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية، الدارة، السنة (١٦)، العدد (٢) عام ١٤١١هـ، ص ٧٧.

(٢٧) ابن سعد، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٤.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥١.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥١.

(٣٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٣.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٦ - أبو الفداء

(ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

يتعرض هذا الفصل بالدراسة لأحد الجغرافيين الشاميين البارزين، وهو أبو الفداء^(١) (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، وأهم ما ورد في كتاباته عن أوضاع بلاد الشام لاسيما خلال عصر الحروب الصليبية، وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وأبو الفداء؛ هو إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي^(٢)، وينتمي إلى البيت الأيوبي، وقد ولد في دمشق عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م، حيث كان قد فر أبوه للملك الأفضل، أخو أمير حماة الملك المنصور من وجه القوات المغولية^(٣)، ويلاحظ أن أسرته استردت مجدها في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الذي قام بتعيين أبا الفداء حاكماً عام ٧١٠هـ / ١٣١٢م. ثم صار ملكاً عام ٧١٢هـ / ١٣١٤م، وفيما بعد صار سلطاناً لمملكة حماة، وتم تلقيبه بالملك المؤيد، في عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن أبا الفداء اهتم بتحصيل العلم، فوصف بأنه كان جامعاً لأشتات العلوم، والمعارف في عصره، وقد درس علوم الفقه، والتفسير، والنحو، والعروض، وعلم الميقات، والمنطق، والطب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، بالإضافة إلى براعته وموهبته في مجال الشعر^(٥).

وقد ألف أبو الفداء عدة مؤلفات في مجال الجغرافيا متمثلة في كتاب رسم الربع

المعمور^(٦)، وكتاب الطول والعرض^(٧)، وكتاب تقويم البلدان^(٨)، ونفيدنا في المقام الأول الكتاب الأخير لاحتوائه على مادة تاريخية وجغرافية هامة عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

ومن الجوانب الهامة في دراسة أبي الفداء، معرفة المصادر التي استقى منه مادته الجغرافية عن العديد من الأقطار الإسلامية وكذلك بلاد الشام، وفي هذا المجال نعرف أنه اعتمد على ثلاثة مصادر ألا وهي المشاهدة والمعاينة وكذلك مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين، بالإضافة إلى المصادر الشفهية.

وأول المصادر التي اعتمد عليها أبو الفداء، هي المشاهدة^(٩) والمعاينة، إذ أنه بحكم شاميته وارتباطه ببلاد الشام مولداً ونشأة، مثلت المشاهدة، والمعاينة، أحد مصادر كتابه الهامة. خاصة إذا ما لاحظنا أنه طاف في مناطق متعددة في أنحاء بلاد الشام. وهو في ذلك يتشابه مع جغرافي شامي سابق ونعني به عز الدين بن شداد الحلبي الذي ارتبط ببلاد الشام ولم يكن وافداً عليها.

أما ثلثي المصادر؛ فتتمثل في ما ألف من جانب الجغرافيين المسلمين؛ الذين وجدوا من قبله وتركوا مؤلفات هامة في هذا المجال^(١٠)، وفي هذا المقام نذكر أنه استفاد مما ألفه ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك، وكذلك الإدريسي في صورة كتابه نزهة المشتاق^(١١)، وابن سعيد ومؤلفه الجغرافيا^(١٢)، والبلاذري وكتابته فتوح البلدان، وياقوت الحموي خاصة كتابه المشترك وضعاً والمفترق صقماً^(١٣).

وإذا كانت المصادر الجغرافية السابقة قد وصلت إلينا فإن أبا الفداء اعتمد أيضاً على مصدر جغرافي هام فقد، ومعرفتنا به صارت متمثلة في النقول التي أوردها في كتابه تقويم البلدان، ونعني بذلك ما ألفه المهلبى (ق ٤هـ / ١٠م) تحت عنوان كتاب المسالك والممالك أو كتاب العزيزى الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز بالله فى عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م^(١٤).

ومن الملاحظ أن أبا الفداء يكثر من الاستعانة بما أورده المهلبى فى كتابه المذكور^(١٥)، على نحو يعطى كتابه قيمة خاصة إضافة إلى قيمته الأصلية.

أما ثالث المصادر فهى المصادر الشفوية، إذ أنه كان يسأل التجار والرحالة عما رأوه فى البلدان التى قاموا بزيارتها^(١٦)، ولا نزاع فى أن المصادر الشفوية أفادت أبا الفداء فائدة كبيرة، بالإضافة إلى المصادر السابقة، وجعلت أمامه مادة علمية غزيرة، مكتته من أن يؤلف كتابه البارز تقويم البلدان.

ومن الأمور الهامة ملاحظة أن ذلك الجغرافى، قد جعل عنوان كتابه تقويم البلدان متأكراً فى لك بأحد الأطباء العراقيين ألا وهو ابن جزلة^(١٧) (ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، الذى وضع كتاباً فى الطب، أسماه تقويم الأبدان، وجعل فيه الأمراض، وأعراضها، وعلاجها فى صورة جداول، وقد أقر أبو الفداء نفسه، هذا التأثير فى مقدمة كتابه المذكور.

ويلاحظ أن أبا الفداء قد رغب من وراء كتابه هذا فى أن يصحح بعض الأخطاء المذهبية التى وقع فيها الجغرافيون المسلمون السابقون، وقد تقدم موضعاً أن ابن حوقل، وابن خرداذبه، والإدريسى قد كتبوا مؤلفاتهم، ولم يحققوا الأسماء، وغيرهم لم يحققوا الأطوال، أما هو فقد جمع بين تحقيق الأسماء، والأطوال^(١٨). وكل ذلك من خلال أسلوب الجداول، وهناك من يقرر أنه يعد أول من اتبع طريقة الجداول فى علم الجغرافيا^(١٩). ومن خلال الجداول نجد أن المؤلف قد جعلها تحتوى أسماء الأماكن، والمصادر، والطول، والعرض، وخلاصة وصفية للمكان^(٢٠).

وجدير بالذكر أن أبا الفداء، حرص على تناول العديد من الجوانب المتصلة ببلاد الشام، ومن ثم أفرد لها قسمًا هاماً فيما ألفه عن البلدان المختلفة، من ذلك تناوله للساحل الشامى بملته للمتعددة، ومدى ما أصابها من تخریب فى وقته، وكذلك العمائر الحربية هناك سواء الإسلامية أو الصليبية، ثم تعرض للجوانب الاقتصادية سواء مصاد

الثروة المائية أو النشاط الحرفي والتجاري، وبالإضافة إلى ذلك تعرض للخريطة العقائدية لبلاد الشام في عصره، ثم العمارات الدينية الإسلامية والمسيحية، وكذلك المزارات الدينية هناك.

مهما يكن من أمر، فإن أبا الفداء، تناول أمر الساحل الشامي، وهي منطقة لقيت اهتماماً تقليدياً من جانب الجغرافيين والرحالة للمسلمين وكذلك الرحالة الأوروبيين، وقد اختلفت طريقة تناوله لمدن ذلك الساحل، فأحياناً تعرض لمدن بإيجاز، وأحياناً أخرى تناول بعضها بمادة ثرية. ومن الواضح أن تحليل ذلك يرجع إلى مدى أهمية كل مدينة أو علم ذلك، وخاصة على الصعيد الاقتصادي التجاري، وخاصة إذا كانت المدينة التي يتناولها بمثابة ميناء التصدير لمدن داخلية برية حيصة ليست لها منافذ بحرية. كذلك فإن الوضع القائم الذي كانت عليه بعض المدن الشامية الساحلية في وقت أبي الفداء، أدت إلى أن تناولها المختلف من جانب تفصيلاً وإيجازاً.

ومن ناحية أخرى تفيد الإشارات التي قدمها لنا أبو الفداء في تقويم البلدان، في توضيح مظاهر التخريب الذي لحق ببعض المدن الساحلية الشامية من خلال الصراع الإسلامي/ الصليبي. وبعد أن تجمع المسلمون في عهد دولة المماليك البحرية من طرد بقايا الصليبيين من آخر معاقلهم في الساحل وخاصة عكا - للمقل الأخير - وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م (٢١).

ونجد أنه يتناول مدينة بيروت فيوضح أنها على ساحل البحر، وأنها ذات برجين، ويشير إلى امتلاكها ميناء جليل (٢٢)، أما عسقلان، وهي التي وصفت من قبل بأنها فريدة بين مدن الشام أحياناً وعروس الشام أحياناً أخرى، نجده يذكر عندها أنها في زمانه خراب خالية من السكان (٢٣).

ومن الواضح أن إشارته تفيد في توضيح أن مدن الساحل الشامي، لم تكن دائماً الازدهار، وأن منها ما ترواح بين الازدهار تارة والأفول تارة أخرى، ومن الأمثلة الواضحة

الدالة على ذلك مثال عسقلان السالف الذكر، وهكذا يمكن أن نلاحظ أن أبا الفداء يعد الجغرافى المسلم الذى كان شاهد عيان على أقول عدد من مدن ذلك النطاق الساحلى التى ازدهرت من قبل ازدهاراً كبيراً شهدت به نصوص مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين والأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال عصر الحروب الصليبية فيما قبل عصر أبا الفداء.

ومن المحتمل - دون أن نستطيع التأكيد - أن التخريب الذى تعرضت له عسقلان فى آخريات القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر للميلادى فى ختام الحملة الصليبية الثالثة قد أثر بدوره - وإلى حد ما - فى حجم الخراب الذى حل بها، ولم تتناولها يد التعمير فى المرحلة التالية على نحو جعل أبا الفداء يصفها بذلك الوصف؛ فى معرض حديثه عن مدن الساحل الشامى بالإضافة إلى ما شهدته المنطقة من عمليات حربية لطرد الصليبيين من المنطقة.

أما مدينة يافا، فهى عتده مزدهرة اقتصادياً ولاسيما على الصعيد التجارى، ولذا فإنه أشار إلى أسواقها العامرة، وإلى الوكلاء التجاريين الذين يقومون بأمر حركة تجارة الصادرات والواردات، وقد أشار إلى أنها مقر ميناء كبير فيه مرسى للمراكب الواردة إلى فلسطين^(٢٤)، وهذا وضع منطقى من خلال ملاحظة أن يافا على مدى عصر الحروب الصليبية وصفت باستمرار بأنها ميناء بيت المقدس، وفى ذلك العصر كان الحجاج يقدمون إلى ذلك الميناء من أجل الوصول إلى المدينة المقدسة للقيام بالحج هناك.

فإذا نظرنا إلى تناوله لمدينتى قيسارية^(٢٥) وكذلك أرسوف^(٢٦)، نجد أنه يشير إلى أنهما تجاريتان، شأنهما فى ذلك شأن عسقلان، ولم يفته أن يذكر أن قيسارية كانت من أمهات المدن العظام^(٢٧)، وأن أرسوف كانت من قبل مسكونة^(٢٨)، على نحو عكس تغير أوضاع تلك المدن ازدهاراً واضمحلالاً.

أما تعرضه لطرابلس، فنجد أنه يشير إلى ثروتها الزراعية مثل البساتين، والأشجار، وزراعة قصب السكر بها، ولا يقدم تناولاً لدور الميناء نفسه في الحركة التجارية ويكتفى بأن يقول عنها عبارة «لها ثمر»^(٢٩)، وعندما تناول أنطربطوس، أشار إلى أنها ثمر لأهل حمص^(٣٠)، وبالتالي عمق فكرة أن للمدن الساحلية الشامية كانت منافذ للمدن الداخلية الحبيسة وأنها لعبت دوراً هاماً في تصريف منتجاتها المتعددة. وهو أمر أورده من قبل جغرافيون مسلمون زاروا بلاد الشام من قبل مثل الإدريسي.

أما مدينة عكا، وهي القلب التجاري للوجود الصليبي في مملكة بيت المقدس الصليبية، فنجد أن أبا الفداء يذكر أنها مدينة كبيرة على ساحل الشام^(٣١)، ويهتم بإيراد الأطوال والأبعاد بينها وبين المدن الأخرى مثل طبرية وصور على سبيل المثال، ولا يقدم لنا وصفاً لدورها التجاري، وكشافات السكان بها، كما لاحظنا ذلك لدى الإدريسي^(٣٢) أو ابن حبير^(٣٣)، وتعليل ذلك واضح وهو أن أبا الفداء يشير صراحة إلى أنها خراب^(٣٤)، وهي بالتالي تكون قد شاركت عسقلان، وقيسارية، وأرسوف ذات المصير التخريري.

وإشارة ذلك الجغرافي، لها أهميتها الخاصة، وتعليل ذلك يرجع إلى أنه اشترك بصورة فعلية، في قتال الصليبيين بها وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م^(٣٥)، وكان من شهود العيان للأحداث الحربية العنيفة والمقاومة الكبيرة التي أبدتها الاستبارية Hospitallers، والناوية Templars^(٣٦) لقوات الأشرف خليل بن قلاوون عندما حاصرت المدينة، فهو بذلك يشبه بيبرس اللواتاري، صاحب كتاب زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، الذي كان شاهد عيان معاصر لتلك الأحداث، بيد أن أبا الفداء لم يفصل في أمر عكا في كتابه تقويم البلدان، وإنما ذكر تفاصيل الأحداث التي شاهدها، وشارك فيها في كتابه التاريخي.. المختصر في أخبار البشر.

وكل ذلك يعني أن مدينة عكا، تلك المدينة التي وصف ازدهارها الرحالة للمسلمون

وكذلك الأوروبيون الذين زاروها على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م، تعرضت لمرحلة من انخفاض ذلك الازدهار، وهو ما كان عليه أبو الفداء شاهداً، وجاء ذلك بالطبع من خلال أحداث الصراع بين للمماليك وبقايا الصليبيين في بلاد الشام.

أما إذا ما اتجهنا إلى رؤية أبي الفداء لإحدى المدن الساحلية اللبنانية ونعني بها مدينة صور، فنجد أنه يقرر صراحة أنها «أحصن الحصون على ساحل البحر» (٣٧) ومن المعروف أن تلك المدينة الحصينة، وصفت بنات الصفة من جانب كافة الجغرافيين المسلمين الذين وصفوها من خلال مقدمهم ووجودهم في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م.

وبلاحظ أنه يذكر أنه كان يصور مرسى للسفن، وأن عليه سلسلة من أجل منع السفن من الدخول (٣٨)، وهو بذلك لا يختلف عن وصف الجغرافيين السابقين، لأمر ذلك المرسى، والاحتياطات الأمنية المتوافرة فيه.

ومن ناحية أخرى يشير أبو الفداء إلى ناحية تاريخية تتصل باستيلاء المماليك على صور، وذلك في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، أي في نفس العام الذي شهد سقوط مدينة عكا، وأضاف ناحية هامة ألا وهي أن صفة الخراب لحقت بها (٣٩)، وبالتالي يمكن القول إن مدن عسقلان، وأرسوف، وقيسارية، وعكا، وصور، عندما وصفها أبو الفداء وجدها على جانب من الخراب.

وهناك ملاحظة خاصة بوصف أبي الفداء لصور، إذ أنه لا يكتفى بتصويراته الشخصية أو مشاهداته وإنما تجده يستعين بمؤلفات جغرافيين سابقين مثل ابن سعيد، وكذلك المهلبى، وربما هنا يدل على أنه على الرغم من إدراكه العام لكافة مناطق بلاد الشام، إلا أنه يسعى إلى تدعيم رؤيته من خلال مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين السابقين وهو أمر كانت له أهميته الواضحة خاصة في حالة استعانتهم بمؤلفات مفقودة حالياً للباحثين.

وهكذا، أفادت إشارات أبي الفداء في توضيح الوضع العمراني والنشاط التجاري للمدن الساحلية الشامية بعد أن خاضت معركة التخلص من الوجود الصليبي الدخيل، وهو وضع كان متردياً كما تكشف عن ذلك نصوص تقويم البلدان.

وإذا كان مؤلف تقويم البلدان قد أورد إشارات هامة، عن الخراب الذي لحق بالمدن الساحلية الشامية، فهذا مرجعه إلى الصراع الإسلامي / الصليبي من جهة، ثم الكوارث الطبيعية التي كانت تحدث بين الحين والآخر مثل الزلازل التي نكبت بها بلاد الشام، ولم تنج من آثارها تلك المدن الساحلية الكبيرة، وإن لم يشر أبو الفداء صراحة إلى دور الهزات الزلزالية، في ذلك الدور التخريبي، وإن كنا نفهمه ضمناً من خلال نصوص المصادر التاريخية الأصلية المعاصرة، واللاحقة، وكذلك الدراسات التاريخية الحديثة المتخصصة^(٤٠).

أما إذا نحينا جانباً زاوية الساحل الشامي، فإننا نجد أن أبا الفداء اهتم بإيراد أمر القلاع المتناثرة في بلاد الشام، والتي كان جزء هام وكبير منها تابعاً للسيادة الصليبية، واسترده المسلمون في عهد دولة للماليك البحرية. وفي هذا المجال تجده يذكر أمر حصن الكرك ويقرر أنه على للكان وهو أحد المعاقل القوية في بلاد الشام التي لا ترام^(٤١)، كما أن قلعة الشوبك على طرف الشام من جهة الحجاز، وهي مبنية بالحجر الأبيض، وتقع على تل مرتفع^(٤٢)، وتجده يقرر أن قلعة صهيون حصينة لا ترام وهي من القلاع المشهورة في بلاد الشام^(٤٣)، أما قلعة المرقب فهي قلعة حصينة حسنة البناء وأشار إلى إشرافها على البحر المتوسط^(٤٤). ونجد أنه يقرر أن قلعتي بغراس^(٤٥) ودريساك^(٤٦) قلعتان مرتفعتان، وبالنسبة لحصن الأكراد نراه يقرر أمر حصاته ويحدد موقعه بأنه مقابل حمص من غربها^(٤٧).

ثم أنه أوضح أن الصيية قلعة بانباس، وأنها تعد من الحصون المنيع^(٤٨)، أما قلعة صغد فقد أوضح أنها ذات بناء متين، وأشرفت على بحيرة طبرية. وأن السلطان الظاهر

بيبرس بعد إخضاعها وانتزاعها من قبضة الصليبيين جعلها مركز الجيش الذي يقوم بحفظ المدن الساحلية التي تشرف القلعة عليها^(٤٩).

كما تناول أمر القلاع الإسلامية، وفي هذا الصدد أشار إلى قلعة حلب وذكر ارتفاعها وحصانة بنائها وتشبيدها على تل على نحو صارت معه لا ترام من جانب أعدائها^(٥٠)، كذلك تعرض لقلعة شيزر، ولم يزد عن وصفها بالحصانة^(٥١)، مع ملاحظة أنه أغفل ذكر الزلزال للروع الذي دمر شيزر، وأثر على قلعتها، والذي وقع في عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م^(٥٢). وبالإضافة إلى ذلك تعرض لإحدى قلاع الاسماعيلية النزارية في بلاد الشام ألا وهي قلعة مصيف. والتي كانت مركز دعوتهم هناك^(٥٣) مع عدم إغفال أهمية قلاع الدعوة الأخرى هناك.

ومن جهة أخرى، اهتم أبو الفداء بتناول الجوانب الاقتصادية سواء الثروة المائية أو النشاط الحرفي والتجاري، وفي هذا المجال عمل على التعرض لمصادر المياه المتعددة في بلاد الشام واختلاف أوضاع كل منطقة حيال تلك الناحية، فهو يلاحظ مثلاً أن بيت المقدس ليست فيها مياه جارية إلا العيون، وهي لا تتسع لأمر المزروعات وردها^(٥٤)، وهو يقرر - بصورة عامة - أن فلسطين ماؤها يتمثل في الأمطار^(٥٥)، وذات الأمر مجده في سمرين؛ التي حرص أهلها على تخزين مياه الأمطار عن طريق الصهارية^(٥٦)، أما إذا ما اتجهنا إلى معرة النعمان؛ فنجدته يقرر أن أهلها يعتمدون على مياه الآبار، وليست الأمطار أو الأنهار^(٥٧).

وإذا كانت المدن السابقة عند أبي الفداء اعتمدت على مياه الأمطار أو الآبار، فإن هناك عدداً من المدن اعتمد على مياه الأنهار، ومن أمثلتها مدينة حمص التي تروى من نهر العاصي^(٥٨)، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة حماة التي يقرر أن العاصي يستلزم على أغلبها من الجهتين الشرقية، والغربية^(٥٩).

وقد حرص ذلك الجغرافى، على إبراد وسائل الرى بالنسبة للمدن التى تستفيد من مياه الأنهار، ومن أمثلة ذلك أنه أشار إلى النواعير وقد ذكر أنها توجد بكثرة فى كل من حماة (٦٠) وشيزر (٦١) وذلك دون غيرها من مدن بلاد الشام الأخرى.

أما إذا ما اتجهنا إلى الناحية الاقتصادية، ولاسيما النشاط الحرفى والصنعى، نجد أن أبى الفداء لا يقدم مادة غزيرة فى هذا المجال، فباستثناء إشاراته عن أسواق عدد قليل من مدن الساحل الشامى، التى أسلفت الإشارة إليها، نجد أنه أورد إشارات خاصة بصناعة القنور الخزفية فى كفر طاب (٦٢) وأنه يتم تصديرها إلى المناطق الأخرى التى تحتاجها، كما أنه أشار بصورة مقتضبة إلى أسواق مدينة سرمين (٦٣). ثم أنه عندما أورد ذكر مدينة الباب، أشار إليها أيضاً من خلال أن لها سوقها (٦٤)، كما أنه عندما تناول مدينة البيرت، على حافة نهر الفرات، أشار إلى سوقها كذلك (٦٥) وحرص أبى الفداء على إبراد أسواق تلك المدن أمر لا يخلو من دلالة لأنها - على ما هو متوقع - كانت بمثابة مراكز هامة للنشاط الاقتصادى التجارى بين بلاد الشام والعراق، ومن ثم تناولها بمثل ذلك الإلحاح الملحوظ، خاصة أنه لم يلحق بها التخريب الذى لحق بالمدن الشامية الساحلية الأخرى.

ومن ناحية أخرى احتوت إشارات أبى الفداء على جوانب هامة، فيما يتصل بالخريطة للمهنية والمقاتلية لبلاد الشام، ويستفاد مما أوردته بشأن السامرة وارتباطهم بنابلس، وأنهم يحجون إلى جبل صغير بظاهر نابلس قاتها (٦٦)، ومن الملاحظ أن تلك الإشارة كانت تردت من قبل لدى عدد من الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد الشام من قبل عصر أبى الفداء، وإن كانت قيمة روايته فى هذا الشأن فتتمثل فى استمرارية تلك الناحية حتى ذلك الحين. وهكذا فإن ارتباط السامرة بنابلس، والذى تصور الإديسى من قبل أنه مجرد زعم، تؤكد على مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى. وجاءت إشارة أبى الفداء لتوضح أن السامرة ارتبطوا بذلك الوضع حتى بعد إتصرلم عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام.

ومن جهة أخرى، تناول أبو الفداء، عناصر الصابئة؛ وأشار إليهم في معرض حديثه عن مدينة بعلبك، وقد ذكر أن بها مذهباً يقولون أنه من بيوتهم، وأنه معظم لديهم بدرجة كبيرة للغاية (٦٧).

والواقع أن قيمة تلك الرواية تتمثل في أن الصابئة ندر الاهتمام بهم من جانب الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر، وحتى عندما تناولوا مدينة بعلبك في سهل البقاع بلبنان، لم يذكروا عنها إلا أبنيتها الضخمة العجيبة العديمة النظير ولم يعنوا بتناول التوزيعات العقائدية بها، كما يلاحظ أن عبارات أبي الفداء حيال الصابئة تدل على تسامح المسلمين حيالهم، وعدم وجود أية مواقف عدائية تجاههم.

وجدير بالذكر، أن ذكر أبي الفداء لوجود كيان محلي للصابئة في بعلبك يجعلنا نرجح احتمال أنهم وجئوا في ذلك الوضع من قبل عصر أبي الفداء بزمان طويل، إذ أن تلك التكوينات العقائدية؛ حافظت على أماكن توزيعاتها لأمد طويل، خاصة إذا لم نجد قرى مناوئة ومتصارعة معها مذهبياً، ويصدق ذلك على عناصر الصابئة.

مهما يكن من أمر، فعلى الرغم من أن ذلك الجغرافي الشامي تناول توزيعات السامرة، والصابئة، إلا أنه لم يقدم إشارات هامة فيما يتعلق بالتوزيعات الإسلامية السنية والشيعة في بلاد الشام في عصر، وبالتالي لم يساعدنا على معرفة حجم توزيعات العناصر الشيعية بالذات، وهل حافظت على نفس مواقعها القديمة التقليدية أم أن تغييراً ما لحق بها، وفي حالة إirاده لذلك، لتزايدت قيمة ما أورده في تقويم البلدان فيما يتعلق بالخريطة المذهبية، والعقائدية في بلاد الشام، في ذلك العصر. ومع ذلك؛ فإن ذلك النقص، يمكن معالجته من خلال المصادر التاريخية للمعاصرة الأخرى، بطبيعة الحال.

والى جانب الزوايا السابقة، نجد أن أبا الفداء قد عنى بإيراد مواضع الزيارات الدينية في ذلك العصر، سواء لدى المسلمين أو المسيحيين، وهو أمر اهتم به كافة الجغرافيين

والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام في ذلك العصر، معبرين عن ظاهرة دينية عامة سيطرت على عقول وقلوب المعاصرين، على اختلاف دياناتهم، مع ملاحظة أنهم أنفسهم لم ينفصلوا عن ذلك العصر ومن ثم عبرت أقلامهم عن ظواهره العامة المشتركة.

وفيما يتصل بمزارات المسلمين، نجد أنه تعرض لذكر قبر هاشم بن عبد مناف في غزة (٦٨)، كما ذكر وجود قبر لعقيل بن أبي طالب (٦٩) في بزاغة في شمال شرق حلب، أما في المدينة الأخيرة؛ فقد أورد وجود مقام لإبراهيم الخليل بها (٧٠)، كذلك أورد قبر إبراهيم بن آدم في مدينة جبلة (٧١)، كما لم يفته أن يشير إلى وجود قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، في صف واحد وكذلك نسائهم في صف آخر، في مدينة بيت جبرين (٧٢).

ومن للملاحظ أن أبا الفداء، أقر السلامة. مثلما حدث بالنسبة لعدد من الجغرافيين المسلمين السابق دراستهم - فيما يتصل باعتقادات العامة بشأن تلك القبور، والأضرحة. ولم يحاول نقلها، على عكس ما اتجه إليه ياقوت الحموي، من قبل.

وكامتداد لما سبق، نجد أبا الفداء يتناول المزارات والعمائر الدينية الإسلامية الشهيرة، كعرضه للمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وتعرض لوصفها بتفصيل (٧٣) يفوق المزارات الأخرى بطبيعة الحال. وإن لم يقم في هذا المجال أكثر مما زاد باستمرار في ذلك العصر عن تلك العمائر الدينية الإسلامية، وفي المقابل، تعرض للمزارات، والعمائر الدينية المسيحية، من ذلك تناوله لكنيسة القيامة، وذكره تعظيم المسيحيين لها (٧٤)، وهي كنيسة حظيت باهتمام الجغرافيين المسلمين منذ وقت مبكر، وتعرض لها حتى جغرافيو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

وزيادة على ذلك، تعرض ذلك الجغرافى الشامى للمزارات الاستشفائية التى قدم إليها المعاصرون للعلاج ولذلك تناول مزارات طبرية العلاجية^(٧٥) والتى طالما تردت فى مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر منذ عصر الإدريسى.

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن أبى الفداء قدم لنا العديد من الجوانب الهامة عن بلاد الشام فى عصره، وقد تناول أوضاع المدن الساحلية الشامية، والجوانب الاقتصادية وكذلك القلاع والمزارات الدينية والخريطة العقائدية والمذهبية لتلك المنطقة الهامة والحيوية.

ومع ذلك، هناك أوجه النقد التى يمكن أن توجه إلى عمل أبى الفداء، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : على الرغم من أنه نقد الجغرافيين، والرحالة المسلمين السابقين؛ إلا أنه لم يقدم لنا رؤية تفوقهم أو تميزه عنهم، وذلك باستثناء الجانب التنظيمى، الذى أخذ على عاتقه تبنيه فى صورة الجداول. ولذلك فليس من اليسير أن تقبل ما قال به أحد كبار الباحثين فى مجال الرحلات والجغرافيا الإسلامية فى العصور الوسطى، عندما رأى أن كتاب أبى الفداء يصح أن يعتبر تاريخاً اقتصادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى)^(٧٦) لأن الطبيعة النقدية لم تتوافر فى داخل الكتاب ذاته؛ وإنما وجدت فى صدره فقط تقريباً، ولذلك من الممكن أن أؤكد ما ذهب إليه باحث آخر عندما رأى فيه أنه لم يكن من المجددين^(٧٧)، باستثناء الجانب التنظيمى السالف الذكر.

ثانياً : إن طابع الإيجاز، والاختصار الذى أخذ به أبى الفداء؛ جعله لا يقدم التفاصيل المسهبة التى تشفى غليل الباحث، ثم أنه عندما كان يكثر من الاستعانة بالمصادر الجغرافية الأخرى السابقة عليه، أعاق تقديم رؤيته نفسه كشاهد عيان لتلك

المناطق الجغرافية. وكان من المتوقع أن يقدم لنا مادة جغرافية، وتاريخية أكثر ثراء مما قدم ولكن ذلك لم يحدث.

ثالثاً : على الرغم من تأخر أبي الفداء الزمنى إلا أنه لم يفق بعمل «تقويم البلدان» عمل السابقين، وإذا ما قارنا بين أبي الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) وأحد الجغرافيين للمسلمين السابقين عليه، ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، نجد أن ياقوت الحموى قد تفوق على أبي الفداء، على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين العلمين الجغرافيين الذى يبلغ حوالى قرن كامل من الزمان، ونجد أن ياقوتاً فى معجم البلدان يمتاز بالتفاصيل الثرية، بينما نجد طابع الاختصار بمثابة السمة الغالبة على تقويم البلدان، وإضافة إلى ذلك امتاز معجم البلدان، بثناء مادته الجغرافية، والتاريخية، والأدبية، والفلكلورية (٧٨)، بينما لا نجد ذلك لدى ما ألفه أبو الفداء.

وما ذكرناه، يدل دلالة واضحة، على أن ياقوتاً بعد قرن كامل من تأليفه لكتابه، لم يستطع أبو الفداء - على الرغم من طموحاته الواضحة فى مقدمة كتابه - أن يتفوق عليه، وقد يرى البعض أن الظروف التاريخية التى واكبت كل علم من العلمين تباينت، وأن ياقوتاً قد أفاد من خزائن الكتب التى عمر بها المشرق الإسلامى، على نحو لا نعلم أنه توافر لأبى الفداء، الذى لم يذهب صوب تلك المناطق، كما أن الطبيعة التجارية لياقوت أفادته، وهو ما لم يتوافر لدى أبى الفداء. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن جهد ياقوت كان متوافراً لدى أبى الفداء، بل إنه استفاد منه، غير أنه لم يتمكن من أن يزيد عليه، إلا الجانب التنظيمى الذى اتبعه من خلال أسلوب الجداول، الذى يعد الإسهام الحقيقى لأبى الفداء، والذى تميز به - بحق - عن الجغرافيين للمسلمين السابقين.

لما كان الأمر، فعلى الرغم من النقاط الانتقادية السابقة، يظل إسهام أبى الفداء يجعله يحتل مكانة هامة من بين الجغرافيين للمسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ولاسيما خلال القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن أبي الفداء، أنظر للمصادر والمراجع التالية :

ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٤، ص ١٥٨، ابن تعزى بردى، النجوم الزاهرة، ح-٩، ص ٢٩٢-٢٩٣، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ح-١، ص ٢٧٢، التزيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق صلاح الدين للنجد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٤٧، ابن العماد الحنبلي، شرات الذهب، ح-٦، ص ١٩٨، نفيس أحمد، الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ت. فتحي عثمان ط. الكويت ١٩٧٨م، ص ١١١-١١٢، محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص ١٩٤، عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص ٥٦٣، صلاح الدين للنجد، أعلام التاريخ والجغرافيين عند العرب، ح-٢، ص ١٧، علي عبدالله الدقاع، الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، ص ٤٥، حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين للعاصرين لها، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢٠-٢١، أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط. بيروت ب-٢، ص ٤٠٨-٤٠٩، علي إبراهيم حسن، استغلال المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ للمصري الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ١٥٨-١٦١، محمود عاصم الميداني، المعجمات الجغرافية العربية ودورها الثقافي، مجلة التوادع، السنة (٤)، العدد (١٢)، الرياض ربيع الأول ١٤١٢هـ / أكتوبر ١٩٩١م، ص ١١٥، صلاح الدين الشامي، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ص ١٣٠، عبدالفتاح وهبة، جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص ١٥، نوفل الطرابلسي، صناعة الطرب في تقدمات العرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٤٣٣.

De Slane, Autobiographie d'Aboul Feda, Extraite de sa chronique, R.H.C., T. I, p. 169-186; Reinaud et de Slane, Geographie d'Aboulfeda, Paris 1848, pp. VVI - XL VIII; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, Vol. II, p55.

(٢) نفيس أحمد، للرجع السابق، ص ١١١-١١٢.

(٣) نفسه، نفس للرجع، ص ١١٢.

(٤) أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ١٩٧، جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالى، ص ٤٠٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٢.

(٦) علي عبدالله الدقاع، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٨) تجدر الإشارة إلى أن كتاب تقويم البلدان قد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وظهرت هذه الترجمة في عام ١٧٧١م، على يد ريسكه Reiske، كما أنه نشر كاملاً على يد رينو، ودي سلان Renaud et de Slan، وذلك في باريس عام ١٨٤٨م، وعنوان تحقيقهما هو :

Geographie d'Aboul Feda, Texte Arabe publie d'Après Les manuscrits de Paris et de Leyde aux Frais de La societe Asiatique par M. Reinaud et M. le B. Mac Guckin de Slan, Paris M.D. CCCXL (1848).

ومن الواضح أن عملهما قد اعتمد على مخطوطات باريس وليدن، ويلاحظ أن صلاح الدين للنجد رأى أن هذه الطبعة، لم تعد صالحة الآن، على اعتبار ظهور نحو (١٦) أصل مخطوط في مكتبات العالم، من تقويم البلدان، وأنه من الضرورة بمكان، أن يتم تحقيق الكتاب مرة أخرى.

ويلاحظ أنني اعتمد على التحقيق المذكور للكتاب على اعتبار عدم وجود تحقيق آخر له، وفي تقديري للتواضع أن جهد رينو، ودي سلان، كان قيماً عندما ظهر في منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، وبالتحديد في عام ١٨٤٨م، وأن هذه كانت إمكانيات الاستعراق الفرنسي في ذلك الوقت، أما الحاجة إلى عمل تحقيق جديد آخر لذلك الكتاب، فهي ضرورية في ضوء إشارة صلاح الدين للنجد، وهو من كبار المحققين العرب، إلى وجود ذلك العدد الكبير من النسخ المخطوطة في مكتبات العالم، والأمل معقود في أن يظهر مثل ذلك التحقيق من جانب أحد مراكز الأبحاث العلمية في الوطن العربي، بدلاً من أن يكون ذلك الفضل للباحثين الغربيين الذين قاموا بدور كبير في تحقيق مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين في العصور الوسطى. عن رأي صلاح الدين للنجد أنظر :

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، ج٣، ص ٥٠.

(٩) صلاح الدين للنجد، المرجع السابق، ص ٤١.

(١٠) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان، ط. باريس ١٨٤٨م، ص ٢٤٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٨.

(١٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص١٦.

(١٥) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢٢٧، ٢٥٥.

(١٦) صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص٤٢.

(١٧) ابن جزلة، هو يحيى بن عيسى بن علي، وكنيته أبو علي، أحد نصارى بغداد خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، وقد عاصر عهد الخليفة المقتدى بالله العباسي (٤٦٨-٤٨٧هـ / ١٠٨٣-١٠٩٢م). واعتنق الاسلام وذلك على يدى استاذه علي بن الوليد الحنظلي، وذلك حوالي عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، ويلاحظ أن ابن جزلة، كان يطيب أهل محطته، وسائر معارفه احتساباً لوجه الله تعالى. بل إنه كان يحمل اليهم الأدوية بغير عوض، وقد ألف ابن جزلة عدة مؤلفات في مجال الطب، وكذلك في الرد على النصارى، منها كتاب تقويم الأبدان، وقد ألفه للخليفة المقتدى بالله. واستعمل فيه أسلوب الجداول من أجل شرح الحالة المرضية، وأعراضها، وتشخيصها، والعلاج المحدد لها، ويفيد ابن جزلة لأول من ابتكر أسلوب الجداول في هذا الصدد، ثم أنه ألف كتاب منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، وكتاب الإشارة في تلخيص العبارة، فيما يستعمل من القوانين الطبية، وتلخيص الصحة، وحفظ البدن. ورسالة في فضائل الطب وموافقته للشرع، والرد على من طعن فيه، ويضاف إلى تلك المؤلفات الطبية، هناك كتابه في الرد على النصارى، ويقال إنه كتبه لإلحاق القس، ويلاحظ أن ابن جزلة قد توفى في عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م. عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جزلة أنظر :

ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج٦، ص٢٦٧-٢٦٨، القفطي، تاريخ الحكماء، ط. بيروت
ب-ت، ص٣٦٥، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا،
ط. بيروت ١٩٦٥م، ص٣٤٣، كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربى، ج١،
ط. بغداد ١٩٨٤م، ص٢٧٨، ٥٨٢، حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ط. بيروت
١٩٨٨م، ص١، محمد حسين الزبيدي، ملامح من النهضة العلمية في العراق في
القرنين الرابع والخامس الهجريين، ط. بغداد ١٩٨٠م، ص٩١-٩٢، محمود الحاج
قاسم، تاريخ طب الأطفال عند العرب، ط. جدة ١٩٨٣م، ص٦٤٠.

Sarton, An Introduction to History of Science, Vol. I, Washington 194 ,
p.722; Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, S., Vol. I, p. 887;
Chompbell, Arabian Medicine, London 1926, p. 82.

(١٨) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٣.

عن ابن حوقل، أنظر الفصل الأول، حاشية (٢٣) :

ابن خردادقة، هو أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خردادقة، وقد اعتنق حبه الإسلام، وعمل والده عام ٢٠١هـ / ٨١٦م والياً على طبرستان تشاً في بغداد، ودرس للموسيقى والأدب على يد إسحاق اللوصلي (ت ٢٣٥هـ / ٨١٩م) وتولى فيما بعد البريد في نواحي الجبل خلال الرحلة من ٢٣٠-٢٣٤هـ / ٨٤٤-٨٤٨م، وقد عاصر عهد الخليفة العباسي المعتضد، كما شهد ثورة الزنج وغيرها من الأحداث التاريخية. وقد استفاد ابن خردادقة من صلاته القوية بولاية الأمر، فحصل على العديد من الوثائق الرسمية التي استخدمها في مؤلفاته، وقد ألف ابن خردادقة كتابه الشهير للمسالك والممالك، ويقدم فيه ملخصاً للطرق الرئيسية للتجارة في أنحاء العالم الإسلامي، وتطرق للأقاليم الثانية مثل الصين، وكوريا، واليابان، كما قدم عرضاً مفصلاً لبعض البلدان الإسلامية الهامة مثل الجبال، والعراق، والجزيرة (شمال العراق)، ومع ذلك يأخذ بعض الباحثين عليه خلطه بين الحقيقة، والخيال، والشائعات فيما ألفه، وهو أمر نجده في مؤلفات ألفكر الجغرافي العربي بنسب متفاوتة طوال مرحلة العصور الوسطى. عن ابن خردادقة أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، حـ ٢ / ١، ص ١٦٦٤؛ حسين مؤنس، مكان المسلمين في التاريخ العام لعلم الجغرافيا، ص ٢٤٢؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، حـ ٤، ص ٢٢٤؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، حـ ٢، ص ٧؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون ص ٥٥؛ علي عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص ٧٥؛ نفيس أحمد، الفكر الجغرافي، ص ٥٧؛ ضياء الدين علوي، الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، ص ٦٢؛ عصام الدين عبدالرزوف، المحاضرات الإسلامية الكبرى، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٨٣.

(١٩) محمود حاصم اللباني، المرجع السابق، ص ١١٥.

(٢٠) أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٢١) عن ذلك أنظر : بيرس النواصري، التحفة للوركية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٨٧، ص ١٢٦-١٢٧؛ زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطاء، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م، ص ٢٢٥؛ مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه P.O., T. XII، ص ٥٤٧.

(٢٢) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وقيسارية، تكتب قيسرية أو قيسارية، وتقع على الساحل الفلسطيني، وتبعد عن يافا من الناحية الشمالية نحو ثلاثين ميلاً، وهي على بعد اثنين وستين ميلاً من شمال غرب بيت المقدس. وهناك مدينة أخرى باسم قيسارية ولكن في كبادوكيا Capadocia، في آسيا الصغرى، Asia Minor، وتجدر الإشارة إلى أن قيسارية فلسطين - التي نحن مهتمون بتناولها - استولى عليها الصليبيون في عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ. عن قيسارية أنظر :

ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٥، أبو الفداء، للمصدر السابق، ص ٢٣٨.

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 87; Fulcher of Chartres, p.153-154; William of Tyre, vol. I, p. 435-436.

حسن عبدالوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الاسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م،
أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي / الاسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٨١م،
ص ١٠٠، حاشية (٥).

(٢٦) أبو الفداء، للمصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٩.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٣٢) أنظر الفصل الخاص بالإدريس.

(٣٣) أنظر الفصل الخاص بابن جبير.

(٣٤) للمصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣٥) وفي ذلك يقول أبو الفداء «و حضرت فتوحها وحصل لي فيها الغزاة. أنظر : للمصدر السابق، ص ٢٤٣، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٢٦.

(٣٦) عن ذلك أنظر هذه الوثيقة :

John de Villiers, A Letter of John de Villiers Master of Hospital describing the Fall of Acre in King, The knights Hospitallers in the Holy Land, London 1930, pp. 301-303.

والاستبارية Hospitallers هم فرسان المستشفى، وقد أسس تلك المستشفى الأمافيون أهل مدينة أمالفي Amalfi، وهي إحدى المدن التجارية الإيطالية الهامة في عالم البحر المتوسط، في مدينة بيت المقدس من قبل مقم الصليبيين إلى المنطقة، وعند مقدمهم إلى بيت المقدس كان يدير للمستشفى رجل يسمى جيرارد Gerard، وأهتمت المستشفى المذكورة بعلاج المرضى والجرحى، وقامت بدور كبير في هذا المجال، ومع مضي الوقت تحولت هيئة الاستبارية إلى أن تكون هيئة حرية إلى جانب قيامها بدورها العلاجي، ويعتقد بعض الباحثين أن ذلك تم حوالي عام ١١٢٧م عندما عهدت ملكة بيت المقدس الصليبية بأمر قلعة بيت جبرين، والدفاع عنها، وعن المنطقة المجاورة لها، وفيما بعد سيطرت هيئة الاستبارية على عدد كبير من القلاع الصليبية تباينت على مدى امتداد طول للملكة وعرضها، كذلك شاركت في العديد من المعارك الحربية التي خاض ضمارها الصليبيون ضد المسلمين سواء في بلاد الشام، أو في مصر، وتزايدت الهبات والمطالب التي قدمت للهيئة المذكورة. وقد ظلت تلك الهيئة تدعم الوجود الصليبي حتى اللحظات الأخيرة خلال حصار للملك المدينة عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ. عن مدينة أمالفي الإيطالية التي أسس تجار منها مستشفى الاستبارية في بيت المقدس أنظر:

Pirenne, Mohammed and Charlemagne, London 1954, p. 152; Citarello, "The relations of Amalfi with the Arab world before the crusades, Speculum, Vol. XVII, pp. 299-312; Krueger, The Italian cities and The Arabs before 1095, in setton, A History of the Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 52.

أرشيد لويس، القرى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٣٢٩-٣٤٠، عمر كمال توفيق، ملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٩٣، راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٢٨. وعن هيئة الاستبارية أنظر :

William of Tyre, Vol. II, p. 82; King, The Knights Hospitallers in The Holy Land, London 1930; Riley-Smith, A History of the Hospital of St. John of Jerusalem, London 1967.

سامي سلطان سعد، الاستبارية في رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، محمد مؤنس أحمد عوض، التطورات الدينية، ص ٣٥٤-٣٧٣، رابلي سموت، ما هي الحروب الصليبية، ت. فتحي الشاعر. ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص ٧٤. ومن أمثلة

الهيئات والطلبات التي قدمت لهيئة الاستبارة أنظر ،

Delaville Le Roux, "Trois Chartres de XII siecle concernant L'Ordre de St. Jean de Jerusalem, A.O.L., T. I, Année 1893, "Inventaire de pieces Terre de L'Ordre de L'Hospital", R.O.L., T. II, Année 1895.

(٣٧) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) عن مصادر ومراجع الزلازل الشامية في عصر الحروب الصليبية أنظر :

ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٥١٥، ٥١٨، ٥٢٥، ٥٢٦، الاصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، ص ١٢٨، عبداللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور للمشاهدة والحوادث للعناية بأرض مصر، تحقيق غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٣م، ص ٩٩، ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص ١٢٠، ابن الرهيب، تاريخه، تحقيق مركيس، ط. بيروت ١٩٠٧م، ص ٧٤.

Fulcher of Chartres, p. 208, 210; Anonymous Syriac Chronicle, Trans. by Tritton, J.R.A.S., April 1933, Part II, p. 303; William of Tyre, Vol. II, p. 370; Gibb, "The Career of Nur Al-Din", in Setton, A History of The Crusades, Vol. I, pennsylvania 1958, p. 520; Mayer, Two unpublished letters about the earthquake of 1202", Historisches Seminar des Universitate Kiel, in Medieval and near eastern studies, Ledien 1972, pp. 295-310.

مصطفى أنور، نصوص تاريخية لمؤرخين دمشقية عن زلازل القرن الثاني عشر، B.E.O., T.XXVIII Année 1974، ص ٥٥، أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط، ص ٢٨١.

(٤١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٧.

(٤٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٧.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٥١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٥٢) عن ذلك أنظر :

ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص ٥٢٦، ابن قاضي شهبه، الكواكب
النيرة في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ١٥٣، ابن الفرات، تاريخ
الدول والملوك، م ٣ / ١، تحقيق حمدي أنور السيد، ص ١٧٣، السيوطي، كشف الصلصلة
عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ١٨٨.

Tsugitako, The Syrian coastal Twon of Jabala, its history and present
situation, Toky, 1988, p. 47.

محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة
١٩٤٦م، ص ١٢، ٦٨-٦٩، عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٨، حسن
عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ط. الاسكندرية ١٩٧٩م، ص ٤٣.

(٥٣) أبو الفداء، للملح السابق، ص ٢٣٠. عن قلعة مصياف أنظر، الفصل الأول، الباب الأول، حاشية
رقم (٧٥).

(٥٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٥٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٥.

(٥٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٥٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

ومن المقرر أن حملة، اشتهرت بأنها مدينة التواهير، وهناك من يذكر أن اسم الناصرة،

مشتق من تعيرها، وهو مأخوذ من نعت اللبنة إذا صهوت، وفكرة الناعورة فكرة موزلة في القدم، ويقال إن أقدم مصدر تاريخي لها هو لوح من الفسيفساء تم العثور عليه، أثناء عملية تنقيب أخرى في مدينة ألامية السورية، ويعود ذلك اللوح إلى القرن الخامس الميلادي، ويشاهد عليه صورة لناعورة تشابه إلى حد كبير مع الناعورة الحالية، ويوجد ذلك اللوح في المتحف الوطني بدمشق. ومن الملاحظ أن مثل تلك النواعير وجدت في مدن أخرى من بلاد الشام مثل شيزر في الرحلة موضوع دراستنا، وكان يتم الاشتراط لإقامتها أن توضع على مكان مرتفع حتى تتمكن من أن تسقى كافة المناطق الأخرى، ووجدت أنواع من النواعير تقوم بحمل ثمانين من لواتي حمل للمياه، وكل إناء حمل خمسة عشر رطلا، أي أنها حملت ألف ومائتي رطل من المياه. عن النواعير وتاريخها ووجودها في حماة أنظر :

ابن منظور، لسان العرب، ج٦، تحقيق يوسف خياط، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٦٧٠، ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٣، أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٦٧، شيخ الرهوة، نخبة النحر، ص ٢٠٦، أحمد الكيلاني، حماة مدينة النواعير، ط. حماة ب-ت، ص ٣-٦، عبدالرزاق زقروق، النواعير أهم وسائل الري القديمة، ط. دمشق ١٩٩٢م، هشام عثرة، النواعير في حماة، المنهل، العدد (٥١٢)، م (٥٥)، شعبان ١٤١٤هـ / يناير - فبراير ١٩٩٤، ص ٩٦-١٠٣، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ١٠٧.

Cahen, "Le service de irrigation en Iraq sur debut du XI Siecle", B.E.O., T. XIII, Années 1949-1951, p. 118.

(٦١) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٦٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٦٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٥.

(٦٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٦٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٩.

من المقرر أن هناك عدة مواقع حملت اسم البيرة، فهناك البيرة على بعد ١٦ كيلو متر إلى الشمال من القدس، على الطريق المؤدى إلى مدينة نابلس، وقد شملت سهلا فسيحا، وامتازت بتوافر الينابيع، وخصوبة تربتها الزراعية، وهناك البيرة الواقعة قرب سمبساط بين حلب والشغور البيزنطية، وقد وصلت بأنها قلعة حصينة، ثم هناك موضع آخر على شط الفرات بين أعمال الجزيرة، فوق جسر منبج، وبالإضافة إلى ذلك، توجد البيرة وهي الواقعة في الأندلس، وتكتب

أيضاً لبيرة، أو بليرة، وكانت العاصمة القديمة للكورة التي سميت فيما بعد بفرناطة، وفي أصلها بلدة أنشأها الإيبيريون القدماء وذلك من قبل الرومان، واسمها هو *Eliberri, Iliberi*، وهو مكون مقطعين : *il* : مدينة و *berri* بمعنى قديمة. لم قام الرومان بتعميرها وجعلوا منها قاعدة لمجلس بلدى، وعندما فتح المسلمون الأندلس، سكن البيرة العديد من الجند الشاميين، وموالى بنى أمية، ومن أمثلة القبائل العربية التي سكنت فى البيرة؛ قبائل قضاعة، وذيان، وربيعة. عن البيرة الواقعة بين بيت المقدس ونابلس أنظر :

John of Wurzburg, p. 14, note (3); Theoderich, p. 60.

وعن المواقع المتعددة التي حملت اسم البيرة أنظر :

ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفه والآلاف، تحقيق الطاهر مكى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٦٢، حاشية (١)، أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٦٨-٢٧٩، ياقوت، معجم البلدان، ح ١، ص ٢٨٧؛ القزوينى، آثار البلاد، ص ١٥٠٢؛ شيخ الرهوة الدمشقى، المصدر السابق، ص ٢٨٧؛ ابن ناظر الجيش، تحقيق التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلى، ط. للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ٩٩-١٠١؛ ابن عبد الحق البغدادي، مرصود الاطلاع، ح ٣، ص ٣٤٠-٣٤١؛ عبد الواحد خنون طه، الفتح والاستقرار العربى الاسلامى فى شمال أفريقيا والأندلس، ط. بغداد ١٩٨٢م، ص ٢١٧-٢٢٠، ٢٤٨، مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ح ٨ / ق ٢، ص ٢٥٦-٢٥٧، مرمجى الدومنيكى، بلدانية فلسطين العربية، ص ٧٢، ١٧٦؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥٥٦، حاشية (١)، رحلة الأندلس، حديث الفردوس للوعود، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٦٦، شكيب أرسلان، للحل السننسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، ح ١، ط. بيروت ب-ت، ص ١٨٠.

(٦٦) أبو الفداء، المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

وبعلبك، تقع فوق هضبة البقاع بلبنان، ويقوم بربها ينبوع رأس العين الكبير، الذى ينبع من سلسلة جبال لبنان الشرقية، وقد سمي الرومان بعلبك باسم *Heliopolis*، أى مدينة الشمس *Colonia Julia Augusta Heliopolis*، والجزء الأول من اسم بعلبك هو *B'el* يعنى صاحب أو ملك لأورب، والثانى وهو بك ويقال أنه يعنى اسم صنم، ويلاحظ أنه فى بعلبك وجدت قلعة كبيرة أشار إليها الجغرافيون المسلمون واعتبروها من عجائب للمعمار، على مر العصور. عن بعلبك أنظر :

ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٢٦، العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوروثيا كرافو لسكى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص ١٩١-١٩٢، قاسم رفاعى، بعلبك فى التاريخ، دراسة شاملة لتاريخها ومساجدها ومدارسها وعلمائها، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٧، أنيس فريجة، أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص ٢٧.

Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et medievale, Paris 1927, p. 403-404; Le Strange, palestine, p. 295-298.

(٦٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩.

(٦٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٧٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤١.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٧.

(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٧٦) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٤.

(٧٧) أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٠٠، ويتفق مع نفس الرؤية عبدالفتاح وهيب إذ يقول «اعتبر مقدمته نقداً للفكر الجغرافى العربى، إلا أن الكتاب فى حد ذاته ليس به من جديد، فقد اعتمد أبو الفداء فى كتابه على آثار السلف». أنظر : جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص ١٧.

(٧٨) أنظر الفصل الخاص بياقوت الحموى.

القسم الثانى

**الرحالة المسلمون فى بلاد الشام
فى عصر الحروب الصليبية**

١ - السمعاني

(ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أحد الرحالة المشاركة الذين وفدوا على بلاد الشام ونعني به السمعاني^(١) (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م)، وقد ارتحل إلى هناك، وقدم لنا مادة مفيدة عن أوضاع بلاد الشام من كافة الجوانب، الأمر الذي سأتناوله مفصلاً على مدى الصفحات التالية.

والسمعاني هو عبدالكريم بن محمد بن المتصور التميمي ويلقب بالمروزي، ولد في مدينة مرو عام ٥٠٦هـ / ١١١٧م، من بيت علم وأدب، ويلاحظ أن والده سعد السمعاني؛ كان محدثاً وفقهاء^(٢)، ومن جهة أخرى نعرف أنه انتسب إلى إحدى كبريات القبائل العربية، وتعني بها قبيلة تميم، ولذا عرف باسم التميمي^(٣).

وقد ارتحل السمعاني إلى العديد من مدن المشرق من أجل أن يتلقى العلم على أيدي العلماء، والشيوخ، ومن أمثلة ذلك أنه ارتحل إلى بلاد ما وراء النهر، وخراسان، وقوس والري، وهمدان، وأصبهان، وبلاد الجبل، والحجاز، والموصل، والجزيرة، والشام^(٤). وهذا الارتحال والانتقال إلى مناطق متعددة من أجل طلب العلم، كان بمثابة الصفة الغالبة على العديد من رجال العلم في ذلك العصر، وقد توفي السمعاني في عام (٥٦٢هـ / ١١٦٧م)^(٥).

وتجدر الإشارة إلى أن السمعاني قد ألف العدد الوفير من المؤلفات، ومن أمثلتها كتاب تاريخ مرو؛ وكان يقع في ٢٠ مجلداً^(٦)، وتحفة المسافر، أدب الإملاء

والاستملاء، وفيل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والدعوات النبوية، والرسائل والمسائل، وسلوة الأحباب وترجمة الأصحاب، وطرار الذهب في أدب الطلب، الأخطار في ركوب البحار، قرط الغرام إلى ساكني الشام^(٧)، ويعكس الكتاب الأخير أهمية بلاد الشام في فكر السمعاني على نحو جعله يؤلف كتاباً خاصاً عنها مثلما فعل من قبل مع مسقط رأسه مرو.

يبد أن أشهر ما ألفه السمعاني كتابه «الأنساب»^(٨) وقد وقع في ثمانية مجلدات، ووصف بأنه كان غزير المقال، ولما اتجه للمؤرخ ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) إلى اختصاره في صورة كتاب اللباب في تهذيب الأنساب، وقد فاق التهذيب الأصل في الشهرة^(٩)، ومن بعد ذلك اختصره السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) في صورة كتاب لب الألباب في تحرير الأنساب^(١٠).

وتجدر الإشارة إلى أن السعي إلى تهذيب الكتاب واختصاره على مدى المرحلة منذ عصر ابن الأثير، وحتى عصر السيوطي، يعكس بالضرورة أهمية ورغبة المعاصرين، واللاحقين في الإفادة منه في صورة مبسرة.

ولعل أوضح ما تميز به كتاب الأنساب - وهو الذي اعتمد عليه بصورة أساسية في هذا الفصل - تلك التراجم التي قام السمعاني بجمعها على حروف المعجم، والتي اهتم فيها بنسبة كل واحد منها إلى بلد، أو قبيلة، أو صناعة، أو تجارة، هذا بالإضافة إلى الحوادث الهامة التي جرت في المواقع التي ترجم لأصحابها في كتابه^(١١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن السمعاني قد أورد العديد من الإشارات الجغرافية الهامة، وكذلك نتاج رحلاته، على نحو يجعله أحد الرحالة للمسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وقد مر بالعديد من المدن في وقت الاحتلال الصليبي لعدد كبير منها، وقدم وصفاً - وإن غلب عليه طابع الإيجاز - لها على نحو أفاد في العديد من الجوانب المتعلقة بتاريخ بلاد الشام حينذاك.

وتثار ناحية هامة، وهى المصادر التى اعتمد عليها السمعاني فى كتابه، وخاصة القسم الخاص بالانساب إلى المدن الشامية، والواقع أن رؤية متأنية لتلك الزاوية، تكشف أنه اعتمد فى المقام الأول على مشاهداته الشخصية، وفى أحيان كثيرة يقرر أنه أمضى فى المدينة التى يشير إليها، مدة زمنية معينة، قد تكون يوماً (١٢)، أو يومين (١٣)، أو عشرة (١٤) أيام، وربما طالت لتكون أكثر من ذلك، وفق مقتضيات الحال، ثم هناك أيضاً المصادر التى ألفها الجغرافيون والرحالة المسلمون السابقون على عصر السمعاني، وإن لم يشر صراحة إلى الاستعانة بهم فيما يتعلق بتناوله لمدينة الشام، وإن كنت أتصور أن مثل تلك المؤلفات كانت من المصادر التقليدية التى اعتمد عليها الرحالة المسلمون على اعتبار تواصل المعرفة الجغرافية الإسلامية وعلم انقطاعها أو انفصالها. وهكذا، فإن عنصر للمشاهدة والمعاينة لم يكن هو المصدر الوحيد الذى استقى منه السمعاني مادته العلمية عن مدن الشام المتعددة.

وجدير بالذكر، أن السمعاني فى أحيان نادرة، تجده يذكر صراحة أنه لم ير المدينة التى يتناولها، ومن أمثلة ذلك مدينة بعلبك فى سهل البقاع بלבنا، التى يقرر صراحة أنه «لم يتفق له دخولها» (١٥)، بيد أن هناك مدناً أخرى، من الواضح أنه لم يمر عليها، ولم يقم بها، وقاته أن يذكر ذلك، أو أن الأمر اختلط عليه من كثرة ما مر بالمدينة الشامية، أو أنه لم يسجل من فوره ملاحظاته عنها، ومن ثم وقع فى الخطأ، ومن أمثلة ذلك ذكره لموقع بفراس على اعتبار أنها على الساحل (١٦)، بينما الواقع الجغرافى خلاف ذلك.

ومع ذلك، فمن الطبعى ألا نتوقع أن السمعاني يقدم لنا مادة جغرافية وتاريخية مفصلة عن المدن الشامية التى انتسب إليها أولئك الذين أشار إليهم فى كتابه، إذ أن حرصه على إبراز الأنساب شغله - على ما يبدو - عن الاهتمام بإيراد معلومات إضافية عن تلك المدن الشامية. بالإضافة إلى أنه جعل من تلك الزاوية الجغرافية والتاريخية للوجزة مقدمة للدخول فى موضوعه الأصلى فيما يتعلق بالأنساب وذكر أشهر الأعلام الذين انتسبوا إلى المدن التى تناولها.

مهما يكن من أمر، فإن السمعاتى تناول العديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام فى ذلك العصر، مثل تعرضه لمدن الساحل الشامى المتعددة، ومراكز الإمارات الصليبية، والحوضر الشامية الكبرى الداخلية الخاضعة للسيادة الإسلامية، ثم العمائر الدينية بالإضافة إلى الخريطة المذهبية لبلاد الشام والنشاط الاقتصادى؛ سواء الزراعى أو التجارى، ثم المزارات الدينية والعلاجية.

وإذا نظرنا إلى تناول السمعاتى لمنطقة الساحل الشامى، نجد أنه يقدم لنا مادة موجزة عن عدد من المدن الساحلية هناك، وعلى سبيل المثال تجده يقرر أن عسقلان على حد مصر، وأنها تسمى عسقلان الشام^(١٧)، كما أن هناك مدينة أخرى تحمل نفس الاسم عند بلغ من مدن المشرق^(١٨)، وقد أوضح أن الإثنين يطلق عليهما العروسان نظراً لحسنهما، وأضاف أن الانتساب إلى عسقلان الشام هو الأكثر شيوعاً^(١٩).

أما مدينة عكا، فلا يوضح عنها إلا أنها على الساحل، وأنه دخلها وهى تحت السيطرة الصليبية، وأشار إلى أنه نزل فى جامعها^(٢٠)، ولا يقدم أية إشارات أخرى عنها سواء من الناحية الاقتصادية التجارية أو من خلال تفصيل أوضاع المسلمين الخاضعين للسيادة الصليبية. ومن المحتمل أن قصر مدة إقامته فى عكا وقف حائلاً دون أن يقدم لنا المزيد من التفاصيل بشأنها، ومن ثم أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة على الرغم من أهميتها التقليدية لدى كافة الجغرافيين والرحالة للمسلمين فى ذلك العصر.

ومن جهة أخرى، تفيد إشارته الموجزة فى توضيح أن المسلمين كانت أوضاعهم فى عكا سيئة، ولعل ذلك من أسباب إحجام السمعاتى عن أن يفصل الحديث عنها، الأمر الذى كشف النقاب عنه بصورة أكثر تفصيلاً رحالة من الأندلس هو ابن جبير^(٢١). وهكذا، فإن ما أوجزه ذلك الرحالة للمشرقى فصله من بعده رحالة من الغرب الإسلامى.

ولا تغفل ناحية هامة أخرى، وهي أن السمعاني قد أشار إلى أنه ذهب إلى جامع عكا وأقام فيه بعض الوقت (٢٢) في مدينة أقام فيها أصلاً بعض يوم، على نحو يكشف بجلاء أن للمسجد كان بمثابة مركز تلاقى للمسلمين وخاصة الغرباء الذين يقدمون على مدينة ليس لهم فيها أهل ولا أصحاب وخاضعة لاحتلال أجنبي.

فإذا ما ذهبنا إلى مدينة أخرى، وهي يافا، نجد أن السمعاني يشير إلى يافا إشارة جد موجزة، ويقرر أن النسبة إليها يافوني (٢٣)، أما أرسوف، فلا يشير السمعاني بشأنها سوى أنها مدينة على ساحل بحر الشام، وظهر منها عدد من العلماء، والمرابطين (٢٤)، أما إذا انتقلنا إلى مدينة أخرى من مدن الساحل الشامي وهي اللاذقية نجده يذكر أنها على الساحل المذكور ويوضح «استولى عليها الفرغ الساعه» (٢٥). وذلك كجزء من مخططهم الاستراتيجي الرامي إلى إخضاع تلك المنطقة الهامة تجارياً واستراتيجياً من أجل خلق القوى الإسلامية الداخلية، وجعلها قوى برية حيصة، تحتاج إلى التعامل مع الصليبيين، الذين صاروا بذلك يملكون دور الوسيط التجاري بكل الشراء الكبير الذي نالوه من جراء ذلك، على نحو دعم وجودهم في بلاد الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ومن المعروف أن الصليبيين تمكنوا من السيطرة على اللاذقية ذات الموقع الاستراتيجي الحيوي الذي من خلاله يمكنهم الإشراف على كل وادي نهر العاصي، في عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م (٢٦)، ومن هنا تثار ناحية هامة. ألا وهي إشارة السمعاني بأن الفرغ استولوا عليها الساعه. إذ أنه في موضع آخر يذكر صراحة أن المسلمين قد استولوا على مدينة الرها وذلك في عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، وفهم من ذلك بالطبع أنه قلم إلى بلاد الشام بعد التاريخ المذكور، ومن ثم فإن إشارته إلى اللاذقية، وتاريخ سقوطها في قبضة الصليبيين، لا يمثل تحديداً زمنياً دقيقاً، لأن إخضاعها لقبضتهم تم قبل مقدم السمعاني للمنطقة بعدة عقود من السنين دون إمكانية التحديد الزمني بدقة نظراً لصمت المصادر التاريخية فيما يتصل بتوقيت زيارته لبلاد الشام.

وبالنسبة لمدينة بيروت، نجد أن السمعاتي يشير إلى موقعها الساحلي ويقرر أنها في يد الإفرنج (٢٧)، أما بغراس، فقد ظن ذلك الرحالة أنها على الساحل، بينما الواقع عكس ذلك لأنها من مدن الشام الداخلية البرية، ومثلت هي ودرساك، وحجر شغلن، مراكز دفاعية هامة بالنسبة لإمارة أنطاكية الصليبية.

ويضاف إلى المدن الشامية الساحلية السابقة. نجد رحالتنا السمعاتي يشير إلى مدينة لبنانية حظيت باهتمام الجغرافيين والرحالة المسلمين على مدى عصر الحروب الصليبية ونعني بها صور، وقد أورد بشأنها عبارة موجزة مؤداها أنها كبيرة وأن الفرنج استولوا عليها بعد عام ٥١٠هـ / ١١١٦م (٢٨)، ومن المعروف أن تلك المدينة قد سقطت في أيديهم في وقت متأخر بالمقارنة بالمدن الشامية الساحلية الأخرى نظراً لمناعتها وحصانتها، وقد حدث ذلك في عام ٥٢١هـ / ١١٢٦م، في عهد الملك الصليبي بلدوين الثاني Baldwin II (١١١٧-١١٣١م / ٥١١-٥٢٥هـ).

ومن الممكن القول، إن المثالين الخاصين باللاذقية، وصور، يدلان على أن السمعاتي لم يكن دقيقاً بالدرجة الكافية فيما يتصل بالتحديد الزمني لسقوط بعض مدن الساحل الشامي في قبضة الصليبيين.

وفي تقليدي أن السمعاتي لم يدخل مدينة صور لعدة اعتبارات، أولاً أنه أوجز الحديث عنها بمثل هذه الصورة، بالإضافة إلى أنه لم يقرر صراحة أنه دخل فيها وأقام بها مدة زمنية مثلما حدث مع المدن الأخرى التي ذكر مدة إقامتها بها، سواء كانت طويلة أم قصيرة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يشر إلى حقيقة تكاد تكون بديهية عن تلك المدينة، وكثيراً ما ترددت لدى مؤلفات الرحالة المسلمين، وكذلك الأوروبيين الذين زاروها، ونعني بها حصانتها البالغة. ومع ذلك يبقى الأمر محل افتراض دون أن تتمكن من تأكيده، لعدم وضوح النصوص، وصراحته في هذا الشأن.

أما مدينة طرسوس؛ فنجد أن السمعاني يفصل الحديث عنها بخلاف غيرها من مدن الساحل الشامي. ويبدو أنه أدرك أهميتها، نذكرها على ذلك النحو، وتفيد إشارته بشأنها من خلال توضيح اختلاف أوضاع المدن الإسلامية قبل وبعد خضوعها للسيادة الصليبية، لاسيما المدن الساحلية، وقد أوضح أنها كانت مزدهرة بمظاهر الحياة، والاحتفالات والأعياد، وتناول صلاة التلويح فيها واحتفالاتها بالعيد وأن أهلها يخرجون بالأسلحة الكثيرة والخيول الحسان لأنها أصلاً مدينة ثغرية^(٢٩)، من أجل أن يصل الخبر إلى البيزنطيين فلا يهاجمونها، بالإضافة إلى الكثافة السكانية الكبيرة بها.

وإذا كان هذا هو شأنها قبل مقدم الصليبيين، فإنها اختلفت فيما بعد، ويبدو من خلال وصفه أن الكثافة السكانية المسلمة بها قد اختلفت وصار المسلمون قلة، وهذا وضع طبيعي مع غزو الصليبيين للمنطقة، واتجاه المسلمين إلى الفرار إلى المدن الإسلامية الجاورة. وقد عبر السمعاني عن ذلك صراحة بقوله «خف الناس»^(٣٠)، ومثل ذلك الوضع الذي شهدته طرسوس؛ يمكن أن يكون نموذجاً للتعبير عن التغير الديموغرافي الذي شهدته المدن الشامية الساحلية وغيرها من المدن التي سيطر عليها الصليبيون.

ولا نزاع، في أن تناول الرحالة السمعاني لأمر طرسوس، يعد من أعمق ما أورده في كتابه عن أثر الغزو الصليبي على الناحية العرقية للمسلمين في المدن الشامية التي سيطر عليها الغزاة، وكذلك من ناحية الشعائر الدينية والمظاهر الاحتفالية للمسلمين، ومن الطبيعي أن تتوقع أن المقابل لذلك هو استعمال المظاهر الصليبية من صلبان، وكنائس، واحتفالات دينية مسيحية، الأمر الذي أوضحه رحالة آخر، وهو ابن جبير على نحو بارع.

ومن جهة أخرى، تناول السمعاني الإمارات الصليبية والمدن الخاضعة لسيادتهم في داخل بلاد الشام، ومن أمثلة ذلك أنه تعرض لمدينة بيت المقدس، قلب المملكة الصليبية، وتحدث عن مكائنها الدينية بالنسبة للمسلمين، وأشار إلى أن الصليبيين استولوا عليها في عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م^(٣١)، وأنهى حديثه عنها بعبارة مؤثرة طالما وردت لدى الرحالة

المسلمين الذين زاروا المدن الإسلامية الخاضعة لسيطرة أعدائهم، وهذه العبارة هي «ردها الله تعالى إلى المسلمين»، ومنطقي أن نذكر، أن تلك التعبيرات الحزينة طالما ترددت قبل عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، عندما استعادها المسلمون لأول مرة بعد احتلال صليبي قارب التسعين عاماً.

كما تعرض السمعاني لأنطاكية ووصفها بأنها من أحسن البلاد، وأن الصليبيين استولوا عليها - ولم يحدد تاريخ ذلك، وأنها مقر ملكهم، أي أنها مقر إمارة صليبية هي إمارة أنطاكية^(٣٢)، ومن المعروف أنها سقطت في قبضة الصليبيين عام ١٠٩٨م.

كذلك فإنه تناول الرها، وذلك بعد أن استولى عليها المسلمون بقيادة الجهاد أتابك الموصل عماد الدين زنكي عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^(٣٣). ونستشعر في تعبيراته الروح المعنوية العالية بعكس الانكسار الذي لمسناه في حديثه عن طرسوس، وبشأن الرها نجد أنه يذكر أن المسلمين ظفروا بها وانتصروا على الصليبيين «وخلص الله تلك البلدة على يدهم»^(٣٤)، وهذا يعكس حقيقة هامة وهي أن نصوص الرحالة المسلمين إلى جانب احتوائها على دلالات تاريخية فإنها تحوى دلالات نفسية أيضاً لاسيما من خلال سيطرة الأعداء الصليبيين على المدن الإسلامية وكذلك تحريرها على أيدي المسلمين.

ومن جهة أخرى، حظيت المدن الإسلامية في بلاد الشام بوصف السمعاني، ففي دمشق، نجده يشيد بها ويذكر أنها «أحسن مدينة بالشام»^(٣٥)، ولاشك أن ذلك الوصف يعكس النمو الحضاري والعمراني الكبير، الذي حققته تلك المدينة التي كانت يوماً عاصمة ملك الأمويين، واستعمال أسلوب التفضيل هذا، جاء من جانب رحالة طاف العديد من مدن الشام.

ويتناول السمعاني الكثافة السكانية في دمشق ويعبر عن تزايد تلك الكثافة بقوله «أكثرها أهلاً»^(٣٦) أي أنها أكثر مدن الشام سكاناً، وأشار إلى أن تاريخها قام بجمعه

صديقه ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) (٣٧)، ومن المعروف أن الأخير قد ألف كتاباً ضخماً عن تاريخ مدينة دمشق.

وبلاحظ أن السمعاني لم يشر إلى المدة التي أقامها في دمشق، ويبدو مع ذلك أنها لم تكن قصيرة، لأهميتها ولوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء بها، بالإضافة إلى المميزات العديدة التي امتدحها بها حيث أورد أنها يضرب بها المثل في الحسن، ولا ريب في أن كافة تلك العوامل تدفعنا إلى التصور أنه أقام بها مدة كافية لأن يصفها بعد إقامة كافية بأنها أحسن مدينة بالشام. هذا بالإضافة إلى وجود صديق مثل ابن عساكر في تلك المدينة، وإذا كان السمعاني قد أقام نحو عشرة أيام في مدن أخرى لم يكن له بها أصدقاء فإن وجود عالم مثل ابن عساكر بدمشق يدعونا إلى تصور أن السمعاني أقام بها مدة كافية من الوقت ربما بلغت عدة أشهر.

أما حلب، فقد وصفها بأنها من ثغور المسلمين (٣٨)، وهذه العبارة تفهم من خلال صراعها المستمر مع إمارة أنطاكية الصليبية، إذ أن ذلك الصراع شكل جزءاً هاماً من تاريخ مدينة حلب، وقد صرح ذلك الرحالة، أنه أقام بها عشرة أيام. أما حماة فقد استحسناها، وذكر عنها أنه أقام بها يومين (٣٩)، وفي حمص أقام أربعة أيام، ولم يصفها بأوصاف مميزة باستثناء ما فيها من قبور الصحابة (٤٠). أما حوران فقد تحدث عن ثرواتها وخيراتها، وأقام بها أياماً لم يحلدها (٤١).

والآن تثار ناحية هامة، وهي تتعلق بالمدد الزمنية التي أمضاها في المدن الإسلامية التي دخلها، والواقع أن المدد تراوحت بين الطول والقصر، واختلفت حسب أهمية كل مدينة واحتياج السمعاني للالتقاء بالعلماء، والفقهاء بها، وفي تقديري أن المدن التي أقام فيها مدة زمنية قصيرة، أحصاها بدقة مثلما حدث في أمر حلب، وحماة، وحمص، أما المدن والمناطق التي أقامها فيها مدة طويلة وجلبناه لا يذكرها، ومن أمثلة ذلك دمشق وحوران.

أما العمار الدينية التي أوردتها السمعاني، فنجد أنه اهتم بإيراد العمار الدينية الإسلامية في بعض الأحيان، فهو في كل مدينة يدخلها يحرص أحياناً على إيراد أمر جامعها، غير أنه في دمشق، أغفل ذكر الجامع الأموي بها، على الرغم من أن الرحالة المسلمين الآخرين حرصوا على إيرادها، والإعجاب الشديد بعمارته، كما أنه تحدث عن ظاهرة هامة ألا وهي الخانقاوات التي كانت مقراً للمتصوفة، فأشار إلى الخانقة السيساطية^(٤٢) وقد أشار إلى أن الأوقاف التي بها، تم وقفها على المتصوفة، والعميان من أهل القرآن^(٤٣).

ولا نزاع، في أن ذلك العصر شهد تشييد العمار الدينية الإسلامية المتعددة، لاسيما المساجد، والمدارس، والزوايا، والخانقاوات، وتجدها بكثرة في المدن الشامية الكبرى مثل دمشق، وحلب، وغيرها من المدن التي مثلت حواضر هامة هناك.

أما الخريطة المذهبية لبلاد الشام، فإن السمعاني لم يقدم فيها إشارات وافية عن كافة القوي الدينية المتعددة هناك، وإنما اهتم على نحو خاص بعناصر الاسماعيلية النزارية، الذين لقبوا بالباطنية وأوضح أنهم تسموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطن، وذكر أن مثل ذلك الاعتقاد مأخوذ من قول الجناحية والمنصورية وهم من غلاة الروافض، ووصفهم بأنهم استحلوا الحرمات^(٤٤).

وتفيد إشارته في توضيح نظرة الرحالة للمشاركة لتلك الفرقة الشيعية التي وجدوا مثلها في أنحاء المشرق الأخرى لاسيما في بلاد فارس حيث مركزهم الأصلي في قلعة الموت جنوب بحر قزوين، وقد حرصوا على إيراد أمرهم خلال ترحالهم خارج نطاق بلادهم.

وعلى ما يبدو، فإن الأيام القليلة التي أمضاها في المدن الشامية، لم تمكنه من أن يقدم التفاصيل الكافية عن تلك الفرقة الشيعية، أو أن يتعرض لباقي نواحي الخريطة العقائدية لبلاد الشام في ذلك العصر، بالإضافة إلى أن كتابه كتاب مخصص أصلاً للأنساب.

ومن جهة أخرى، احتوت رحلة السمعاتى إلى بلاد الشام والتي ضمنها كتابه الأنساب، على بعض الجوانب الاقتصادية سواء الزراعية أو التجارية، وفي هذا المقال، نجد أنه ذكر كثرة النخل الموجود في بيسان (٤٥)، كما أن حوران تشتهر بالفلال وأن دمشق، تستفيد منها في هذا المجال (٤٦) في سد احتياجاتها نظراً لقرب موقعهما الجغرافى.

أما النشاط التجارى، فهو يذكره بالنسبة لمدينة ساحلية لبنانية وهي بيروت، وقد أشار إلى أن الكيزان البيروتية، التي تنسب إليها، تصدر منها إلى كافة أنحاء الشام (٤٧).

ومن الواضح أن حجم إشاراته عن النشاط الاقتصادى كان ضعيفاً ولا سيما أنه لم يتناول ذلك النشاط بالنسبة للساحل الشامى وهو ميدان خصب لذلك النشاط، ويلاحظ أن الرحالة المسلمين الآخرين أكثر ثراء منه في هذا المجال.

وتبقى ناحية أخرى، تتعلق بالمزارات الدينية والعلاجية، وفي هذا المقام نجده لا يشير إلا إلى أقل القليل منها؛ مثال ذلك أنه أشار إلى ضريح خالد بن الوليد في حمص (٤٨)، ومن المحتمل أنه لم يكن مقنعاً بها ووجودها أصلاً ولذا لم يشر إليها - غير أن تأكيد ذلك ليس في الإمكان أمام علم وضوح النصوص التي قدمها.

زد على ذلك، أن المزارات العلاجية قد أشار إليها خاصة فيما يتعلق بطبيرة وقدرة مياهها على شفاء الأمراض (٤٩) بإذن الله تبارك وتعالى، وقد أكد ما ذكره غيره من الرحالة المسلمين عندما أشار إلى أن حمامات طبيرة تعد من عجائب الدنيا، ومع ذلك فإن وصفه لها كان موجزاً على عكس منهج الرحالة المسلمين الآخرين الذين فصلوا هذه الناحية، من أجل أن يرصدوا ذلك الواقع من ناحية، ومن أجل أن يستميلوا إعجاب المعاصرين من خلال إبراد عدد من العجائب في رحلاتهم تضمن لهم الانتشار والشهرة.

وكامتداد لتلك الناحية العلاجية السابقة، نجد أن السمعاتى، أشار إلى جانب علاجي آخر غير المياه الجوفية، ونعنى به الأعشاب، وفي هذا المجال نذكر أنه أوضح

اشتهار أنطاكية بالدواء المسهل الذى يطلق عليه الأنطاكي، وهو معروف باسم السقمونيا^(٥٠)، ولا يوجد فى مكان إلا فى أنطاكية، مما أعطى لها أهمية علاجية خاصة.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك العصر اشتهر العلاج فيه من خلال الأعشاب، ووجد العديد من العشابين الذين برعوا فى معرفة الأعشاب، وأنواعها وصفاتها، وخصائصها العلاجية، ووصلت إلينا العديد من المؤلفات من ذلك العصر فى مجال العلاج بالأعشاب.

وهكذا، قدم لنا السمعاني من خلال ترحاله فى ربوع بلاد الشام العديد من الجوانب الهامة عن أوضاع المسلمين هناك، وصراعمهم مع العدو الصليبي، وقد قدم رؤية رحالة مشرقى شاهد عيان على عصر الصراع الإسلامى الصليبي، واحتوت إشاراته على جوانب عن المزلزلات الدينية والعلاجية والنشاط الاقتصادى على نحو جعل لها قيمتها بين مؤلفات الرحالة للمسلمين، الذين وفدوا إلى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السمعاني أنظر :

السمعاني، الألساب، ح١، تحقيق عبدالرحمن العلمي، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ١٨-٣٠،
ابن خلكان، وفیات الأعيان، ح٢، ص ٢٧٨، مصطفى محمد أحمد رجب، الآراء الترهوية في
كتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني في ضوء الفكر الترهوي الحديث، بحث مقدم
للمشاركة في المسابقة رقم (١٤) لنادي ليبيا الأدبي عام ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص ٦، علي عبدالله
الدفاع، رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الاسلامية، ص ١٥٥-١٥٦، بروكلمان، تاريخ
الأدب العربي، ح١، ت. عبدالحليم النجار، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٦٤، أدولر برلون، تاريخ
الأدب في إيران، ت. الشواشي، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص ٥٩٥، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة
للمسلمون، ص ٢٦٦.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، ح٢، ص ٢٧٨.

(٣) علي عبدالله الدفاع، للرجع السابق، ص ١٥٦.

(٤) أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ٢٨٠، بروكلمان، للرجع السابق، ح١، ص ٦٤.

(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٦) حاجي خليفة، كشف الظنون، ح١ / ١، ص ٣٠٣، أدولر برلون، للرجع السابق، ص ٥٩٥.

(٧) علي عبدالله الدفاع، للرجع السابق، ص ١٥٧.

(٨) بدأ السمعاني وضعه في عام ١٥٥٠هـ / ١١٥٥م، وذلك بنا على طلب من أحد أصدقائه وهو
عمر بن علي البساطامي، الذي قابله في منطقة ما وراء النهر، وقد قام للمستشرق مارجليوث D.S.
Margoliouth بتصوير مخطوطة للتحف البريطانية B.M، ورقمها Add 23, 355، مع مقدمة في
سلسلة جب التذكارية، المجلد العشرين، الصادر في لندن عام ١٩١٢م.

Gibb Memorial Series, No. XX, London 1912.

عن ذلك أنظر :

بارتولد، تركستان، ص ١٠٥، بروكلمان، للرجع السابق، ح١، ص ٦٤.

وقد اجمعت في هذا الفصل على طبعه صدرت في بيروت بدون تاريخ.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن التأليف في مجال الأنساب، لم يتطعه السمعاني، بل إنه كان ظاهرة تأليفية من قبله واستمرت من بعده، ونورد هنا من المؤلفات في هذا الصدد وهي كالآتي :

عبدملك بن هشام صاحب السيرة للشهيرة، (ت ٢١٣/ ٨٣٦م) وله كتاب أنساب حمير وملوكها، وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى (ت ٢٤٥هـ / ٨٠٤م) له كتاب أنساب الشعراء، أما الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٩م) فله كتاب جمهرة نسب قرهش وأخبارها، وقد حققه محمود شاكر وصدر عمله في القاهرة عام ١٣٨١هـ، كذلك فإن البلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) له أنساب الأشراف وقد تم تحقيقه عدة مرات، ثم أن الحسين بن علي الوزير المغربي (ت ٤١٨هـ / ١٠٢٣م) ألف كتاباً بعنوان الإبناس في علم الأنساب، وقد حققه حمد الجاسر، وصدر في الرياض عام ١٩٨٠م، ثم أن أبا محمد عبدالله الرشاطي (ت ٤٦٦هـ / ٩٧٥م) ألف كتاب اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في نسب الصحابة ورواة الآثار، أضف إلى ذلك أن ابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) له كتاب جمهرة أنساب العرب، وقد حققه ليفي بروفنسال Levi Provençal، وصدر في القاهرة عام ١٩٤٨م، ثم أن ابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ) له كتاب الأنساب للثقفة، وقد صدر في لندن عام ١٨٦٥م، كما أن أحمد بن محمد الأشعري القرطبي (ت ٥٥٠هـ / ١٥٥م) له كتاب التصريف في الأنساب والتنويه للنوى الأحساب، وقد حققه سعد عبدالمقصود ظلام، وصدر في القاهرة عام ١٩٩٠م، ثم أبو محمد الحسن علي المعروف بالقاضي للهلبي (ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) له كتاب الأنساب، كذلك ألف موفق الدين للمقسي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) كتابه التبيين في أنساب القرشيين، وحققه محمد الديلمي، وصدر في بغداد عام ١٩٨١م. ثم ألف محي الدين محمد بن محمد بن النجار البغدادى (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٧م) كتاب أنساب المحليين، أما الفلقشندى، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، فله كتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أما الجيفرى (ت ٩ هـ / ١٥م) فله كتاب الاكتساب في تلخيص الأنساب، كما أن بامخرجة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٤م) له كتاب النسب إلى المواضع والبلدان، أما المؤلفات الخاصة بأنساب الحيوانات فأشهرها، كتاب ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٧م) بعنوان أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام الذي حققه أحمد زكي، وصدر في القاهرة عام ١٩٤٦م. عن ذلك أنظر :

حاجي خليفة، كشف الظنون، حـ ١/ ١، ص ١٧٩، إحسان النص، كتب الأنساب العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م (٦٦)، حـ (٢)، ذو الحجة ١٤١١هـ / يوليو

١٩٩١م؛ حمد الجاسر، الاكتساب في تلخيص الأنساب، الفصيل، العدد (٢٠١)، رمضان ١٤١٤هـ / مارس ١٩٩٤م، ص ٤٣-٤٥، كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان، الفصيل، العدد (٢١١)، محرم ١٤١٥هـ / يونيو - يوليو ١٩٩٤م، ص ٤٥.

(٩) بروكلمان، للرجع السابق، ج١، ص ٦٤، وعن ابن الأثير أنظر، الفصل الرابع - الباب الثاني.

(١٠) بروكلمان، للرجع السابق، ج١، ص ٦٤، على عبدالله النفاخ، للرجع السابق، ص ١٥٦.

السيوطي، هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطي للمصري، جلال الدين أبو الفضل، ولد عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، نشأ بالقاهرة. وتلقى علومه الدينية بها، واتجه إلى الاسكندرية ودمياط وإلى الحجاز وتعلم على أيدي شيوخ العلم، وتولى أمر التدريس والافتاء، وله العديد من المؤلفات في العديد من العلوم والمعارف منها، الدرر للشعر في التفسير بالمأثور، والاتقان في علوم القرآن، ولباب المنقول في أسباب النزول، وتناسق الدرر في تناسب السور، وطبقات المفسرين، والجامع الكبير والجامع الصغير، والحاوي في الفتاوى، وجزيل اللواهب في اختلاف المذاهب، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وقد توفي السيوطي عام ٩١١هـ / ١٥٠٨م. عن السيوطي أنظر :

السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ط. القاهرة ب-ت، ص ١٨٨؛ محمد عبدالنعم خاطر، جلال الدين السيوطي، ط. القاهرة ١٩٦٨م؛ عدنان محمد سلمان، السيوطي النحوي، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص ٦١-١١٩؛ محمد جلال أبو الفتوح، جلال الدين السيوطي، منهجه وآثاره الكلامية، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١١-٢٥؛ أحمد الخازنلر ومحمد ابراهيم الشيباني، دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، ط. الكويت ١٩٨٣م، ص ٧-٢٥؛ محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في القرن الخامس عشر للميلاد، ط. القاهرة، ١٩٦٢م ص ٥٧؛ اسماعيل نوري الربيعي، منهج السيوطي التاريخي، المنهل، العدد (٥١٠)، المجلد (٥٥)، نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م، ص ١٦-٤٩؛ مجموعة من الباحثين، جلال الدين السيوطي، بحوث ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط. القاهرة ١٩٧٨.

(١١) أحمد رمضان، للرجع السابق، ص ٢٦٦.

(١٢) السمعاني، الأنساب، ج١، ص ٤٣٠.

(١٣) نفسه، نفس المصدر، ج١، ص ٢٦٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٤٦.

(١٥) نفسه، نفسه للمصدر، جـ١، ص٣٧١.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٣٧٣.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، جـ٤، ص١٩٠.

(١٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وبلخ، مدينة وقعت على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون، في السهل الشمالي للتبسط لجبل بابا، وقد أطلق عليها اليونانيون تعبير باكترا Baktra، وفي الفارسية القديمة أطلق عليها تعبير باختريس، ويلاحظ أن موقع بلخ قد جعلها على الطريق التجاري الهام الذي يصل للممرات الجبلية بنهر جيحون، ووصفت بأنها كانت القضية السياسية لولاية خراسان القديمة، وصارت فيما بعد للركز الثقافي، والديني لمملكة طخارستان، ونجد أن ياقوت الحموي قد وصفها على اعتبار أنها من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيراً، وأوسعها، ويتم إرسال غلاتها إلى كافة أنحاء خراسان، وإلى خوارزم، كما أنها اشتهرت بإنتاج البرتقال، وقصب السكر.

ويلاحظ أن بلخ قد انتحلت على يد الأحنف بن قيس، من قبل عبدالله بن عامر بن كرز، وذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه. وقد أشار أبو الفداء إلى أنها اُنجبت عالم لا يحصى من عناصر الأئمة، والعلماء والعالمين، ومن أشهر علمائها وأديانها أبو القاسم الكلبي في علم الكلام وأبو زيد البلخي في البلاغة وسهل بن الحسن، ومحمد بن موسى في الشعر.

ونجد الإشارة إلى أن الجغرافيين المسلمين، يقدمون معلومات قليلة عن بلخ في حالة مقارنتها بمدن أخرى من أقاليم المشرق، مثل بخارى، وسمرقند، ويلاحظ أن للغول قاموا بتخريبها عام ٦١٧هـ / ١٢٢٧م، ويقال إنها لم تقم لها قائمة بعد ذلك. عن بلخ أنظر :
مجهول، حدود العالم

Hudud al-Alam, The regions of The World, a persian geography 372 A.H. 982 A.D., Translated and explained by V. Minorestry, Oxford 1937, p. 108.

إسحاق بن الحسين، أكلام المرجان، ص٨٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٦٠-٣٦١، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص٤٧٩-٤٨٠، للشترك وصفاً والمفتري صفحاً، ص٢٣، ٢٧، دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بلخش»، جـ٧، ص٢٥٠-٢٥٣، فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، ت. صلاح الدين عثمان هاشم، ط. الكويت ١٩٨١م،

ص ١٦١-١٦٥، حسن محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، ط. القاهرة ب-ست، ص ١٦٤، كرميوس قاميرى، تاريخ بخارى، من أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ت. أحمد السادنى، ط. القاهرة ب-ست، ص ١٧٦.

Barthold, An Historical geography of Iran, Translated by Svat Soucek, Princeton 1984, pp. 12-21.

(١٩) السمعاني، للمصدر السابق، ح ٤، ص ١٩٠.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ٢٢٠.

(٢١) أنظر، الفصل الخاص بابن جبير.

(٢٢) السمعاني، للمصدر السابق، ح ٤، ص ٢٢٠.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ح ٥، ص ٦٧٦.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ١١٢.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ح ٥، ص ٦٦٣.

(٢٦) عن خضوع اللاتفة للصليبيين عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م.

أنظر : Fulcher of Chartres, p. 175.

عاشور، الحركة الصليبية، ح ١، ص ٢٧٢، عبدالحفيظ محمد على، للمسلمون والبيزنطيون في شرقى البحر المتوسط، فيما بين القرنين ٢-٦هـ / ٩-١٢م، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٥.

(٢٧) السمعاني، للمصدر السابق، ح ١، ص ٤٢٨.

(٢٨) السمعاني، للمصدر السابق، ح ٢، ص ٥٦٤. وعن سقوط صور في قبضة الصليبيين عام ١١٢٦م أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 266; William of Tyre, Vol. II, p. .

ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٧، ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٦٢١-٦٢٢، ابن تفرى يردى، النجوم الزاهرة، ح ٥، ص ١٨٢-١٨٣.

Runciman, A History of The Crusades, Vol. II, p. 169-171.

(٢٩) السمعاني، للمصدر السابق، ح ٤، ص ٦٠.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ج٥، ص٣٦٣.

وعن سقوط بيت المقدس في قبضة الصليبيين عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، أنظر :

Anonymous, The deeds of the Franks, p. 51; Fulcher of Chartres, p. 122; Raymond d'Aghilliers, in Peters, The first Crusade, Pennsylvania 1971, p. 209.

ابن القلائسي، المصدر السابق، ص١٢٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٨٩٠م، ص١٩٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩، ط. حيدرآباد الدكن ١٣٥٩هـ، ص١٠٨؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٥٧-٥٨؛ قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٧٦؛ حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٧٩؛ عبدالله يوسف الشبل، القدس في عهد الاحتلال الصليبي، للتاريخ العربي، العدد (٢٣)، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م، ص١٥.

(٣٢) السمعاني، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠. وعن سقوط أنطاكية في قبضة الصليبيين أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 110; William of Tyre, Vol. I, p .

ابن القلائسي، المصدر السابق، ص١٣٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص١٣٣-١٣٥؛ إفتوني براج، تاريخ الحروب الصليبية، ت. سبالو والجوردي، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٩٢، ٩٤؛ سعيد برجاي، الحروب الصليبية في الشرق، ص١٢٨؛ علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي (٤٦٢-٤٩١هـ / ١٠٧٠-١٠٩٨م)، ط. مكة المكرمة ١٩٨٤م، ص٣٤٤.

(٣٣) السمعاني، المصدر السابق، ج٣، ص١٠٨. وعن استيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي على الرها أنظر :

ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق زكار، ص٢٣٦، ٤٢٧؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٦٦-٧١. الكامل، ج٩، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص٨-٩.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 296; William of Tyre, Vol. II, p. ; Gibb, "Zengi and The Fall of Edessa", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Pennsylvania 1955, pp. 449-462.

عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص١٤٩-١٥٦؛ علي عبدالله الجزوري، إمارة الرها الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ط. علي عبداللطيم محمود، الغزو

الصلابي والعالم الاسلامي، ط. جدة ١٩٨٢م، ص ١٩٤؛ قائد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٠٠؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٢٧؛ عصام الدين عبدالرزوف، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، ط. القاهرة ب-، ص ١٦٨؛ رينيه جروسيه، رحيل الطواغيت، ت. محمد اليانبا، ط. بيروت ب-ت، ص ١٢٦؛ محمد علي الهرقي، الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي، ط. الرياض ١٩٨٠م، ص ٢١.

(٣٤) السمعاني، للمصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

وعن ابن عساكر، أنظر: الفصل الرابع - الباب الأول.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر، ج ١، ص ٢٦٢.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٠٨.

والخاتمة السيمساطية، توجد عند باب الجامع الأموي الشمالي، وكان ذلك الباب يسمى باب الناطقين وكان في يده أمرها داراً لعبدالعزیز بن مروان بن الحكم، ثم انتقلت من يده لابنه عمر بن عبدالعزیز، وتناولتها الأيدي على مر الزمن إلى أن قدم إلى دمشق أبو القاسم السيمساطي، وقد سكن درب الخراعية، وقام بشراء الدار المذكورة، وقد أوقفها على الفقراء الصوفية، واستمرت مقررة على عناصر الصوفية وكان النظر فيها لمن يلقب بشيخ الشيخ حتى عام ٨٢٤هـ / ١٤٢٨م، وفي هذا العام أسقط نجم الدين بن حجي عناصر للتزجين من الخاتمة السيمساطية وأهل البلد، وقرر أن يكون فيها عزاباً وغرباء، وهناك من يذكر أن من مشاهير الصوفية الذين ارتبط اسمهم بالخاتمة السيمساطية سعيد بن سهل محمد المعروف بالفلكي النيسابوري (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، وعلى بن عبدالقادر الرازي (ت ٧٨٨هـ / ١٣٩٢م).

عن الخاتمة السيمساطية أنظر :

ابن عساكر، ولاية دمشق في العهد السلجوقي، ص ٥٥٤، النحى، العبر، ح ٥، ص ١٧٢،
البقاعى، مسجد دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص ٥٢، حاشية
(١٥)؛ النحى، الدارس، ح ٢، ص ١٥١، دور القرآن في دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد،
ط. دمشق ١٩٤٦، ص ١٥١، للنوى، الأعلام بفضائل الشام، ورقة (٦٢)، عبدالقادر بدران،
مناداة الاطلاع ومسامرة الخيال ط. دمشق بـت، ص ٢٧٦-٢٧٨.

Sauvaget, "Notes Sur quelques monuments musulmans de syrie a propos
d'une etudes recente", S., T. XXIV, Années 1941, 1945, p. 220.

(٤٣) السمعاني، للمصدر السابق، ح ٢، ص ٣٠٨.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٦٠.

ويلاحظ أن تلك الإشارة وردت في عدد من المصادر سواء في مؤلفات الرحالة اليهود في
العصور الوسطى، مثل بنيامين التطيلي، وكذلك فيما ألف المؤرخون المسلمون السنيون، ومن
أمثلتهم العماد الأصفهاني، والنحى، وهو أمر وجدها كذلك لدى تلك المصادر التاريخية، عندما
عبرت عن عناصر الدروز خلال ذلك العصر. عن الإشارات الخاصة بتلك الزاوية لدى عناصر
الاسماعيلية النزلية أنظر :

بنيامين التطيلي، الرحلة، ص ٩١، الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٣٦، النحى، دول
الإسلام، ح ٢، ص ١٠٠، العثماني، تاريخ صفد، ص ٤٨٤-٤٨٥، محمد مؤنس أحمد عوض،
البستان الجامع مصدراً من مصادر تاريخ الاسماعيلية النزلية في بلاد الشام في عصر الحروب
الصليبية، (القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م)، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٢٠-٢١.

(٤٥) السمعاني، للمصدر السابق، ح ١، ص ٤٣٠.

(٤٦) نفسه، نفس المصدر، ح ٢، ص ٢٨٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٤٢٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٦٣.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ح ٤، ص ٤٢.

(٥٠) نفسه، نفس المصدر، ح ١، ص ٢٢٠.

والسقمونيا، نبات، ورد ذكره في عدد من مؤلفات العرب الطبية في العصور الوسطى، وقد
وصف بأنه حار، وباهس، وأجود أنواعه الأنطاكي الأزرق، المائل إلى البياض السريع الانفراك، وفي
حالة انحلاله في الماء غيره، ووصف النوع الأسود منه بالرداءة، وسمى السقمونيا بالمحمودة، ومن

للملاحظة أن من خصائصه أن تبقى له فاعليته حتى بعد انقضاء ثلاثين أو أربعين عاماً، أما الفوائد العلاجية للسقمونيا الأنطاكي، فهي تتمثل في معالجة البرص، والبهاق، والكلف، وكذلك علاج الصداع المزمن، وعرق النساء، كما يفيد في لسع العقرب سواء يتناوله كشراب أو من خلال ملامسه على العضو المصاب، بالإضافة إلى تلك الفوائد فقد وصف بأنه مسهل للصغراء، ومع ذلك فيبدو أن السقمونيا كانت له بعض المخاطر في استعماله، والدليل على ذلك، أن كبار الأطباء المسلمين في العصور الوسطى، حذروا من أنه يسبب الضرر للمعدة، والكبد، والقلب، والأمعاء، ومن المحتمل أن ذلك كله كان له أثره في أفضلية استعماله الظاهري فقط دون أن يتم تناوله كشراب؛ لتأثيره السلبى على القلب والجهاز الهضمى للإنسان. عن السقمونيا، وفوائده العلاجية، وتأثيراته الجانبية أنظر :

ابن سينا، القانون فى الطب، جـ ١، ط. بيروت بـ ست، ص ٢٨٥-٢٨٦، ابن رسول
الفسانى، للمحمد فى الأدوية المفردة، تحقيق مصطفى السقا، ط. بيروت بـ ست، ص ٢٢٧-٢٢٩،
الطار الهارونى، منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان،
تحقيق حسن عاصى، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ٢٨١-٢٨٢، دود الأنطاكي، تذكرة أولى
الأكباب والجامع للمعجب المعجب، ط. القاهرة ١٣٠٢هـ، ص ١٨٢-١٨٣، محمد العربى
الخطابى، الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية، دراسة، وتراجم ونصوص، جـ ٢، ط. بيروت
١٩٨٨، ص ١٢٤، إبراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمى فى كتب الطب والصيدلة العربية،
جـ ٢، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٤٥٣-٤٥٤، كمال القرى، نهر الذهب فى تاريخ حلب،
جـ ١، ط. حلب، ص ١٣٥.

٢ - أسامة بن منقذ

(ت ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الشاميين الذين عاصروا القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. ونعنى به أسامة بن منقذ الشيزرى^(١) (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٨م)، وقد قدم لنا تناولاً هاماً وفريداً فى آن معاً، للعديد من صور الحياة فى بلاد الشام، فى عصر الحروب الصليبية؛ سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ومن ثم فإننا سنتناول فى الصفحات التالية تلك الجوانب المختلفة التى قدمها ذلك الرحالة، والفارس، والأديب الشامى.

وقد ولد أسامة بن منقذ فى شيزر^(٢) فى جمادى الأولى عام ٤٨٨هـ / يوليو ١٠٩٥م^(٣)، حيث سيطرت عليها أسرته العربية، وقد كان من حق والد أسامة الأمير مرشد أن يتولى الإمارة، بيد أن نسخ القرآن الكريم ملك عليه قلبه بالإضافة إلى القيام برحلات الصيد والقنص، فتنازل عن الإمارة لأخيه سلطان، وقد اتجهت همه الأخير إلى أن يخلفه أسامة بن منقذ، بيد أنه عندما رزق ولداً ذكراً، بعد عن أسامة وشعر الأخير بذلك التغير، فغادر شيزر^(٤).

وقد زار أسامة بن منقذ بيت المقدس، وقام بالحج إلى الحرمين الشريفين، وتنقل بين العديد من العواصم الإسلامية، وصاحب عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وكذلك الخليفة الحافظ الفاطمى، كما أنه اتصل بعدد من القيادات الصليبية مثل بوهيموند Bohemond وتنكرد Tancred^(٥). وقد توفى أسامة فى يوم الإثنين ٢٣ رمضان عام ٥٨٤هـ / ١٥ نوفمبر ١١٨٨م^(٦)، عن عمر يبلغ السادسة والتسعين.

والملاحظ أن أسامة بن منقذ قد ألف العديد من المؤلفات، ومن أمثلتها، كتاب الاعتبار^(٧)، وكتاب البدرى، وكتاب الشيب والشباب، وكتاب رسائل السائل، وكتاب نصيحة الرعاة، وكتاب البشارة، وكتاب العصا، وكتاب أزهار الأنهار وكتاب النوم والأحلام، وكتاب التأسى والتسلى، وكتاب نزهة الناظر فى البلاء الخاطر، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصراً، وكتاب لباب الألباب، وكتاب التجارة المربحة، وكتاب المكارم والكرم ورعاية الذم، وكتاب مكارم الأخلاق ويقال إنه وقع فى عشرين مجلداً^(٨)، وكتاب المنازل والديار وكتاب البديع فى الشعر وغيرها.

وهكذا، فإن تلك المؤلفات تعكس لنا عقلية ذلك الرجل الغزير الانتاج فى العديد من المجالات الأدبية والتاريخية فى ذلك العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ يمتاز بعدة مميزات عن غيره من الرحالة المسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : إنه شامى المولد والنشأة، فهو يقدم لنا رؤية خاصة عن بلاد الشام فى ذلك العصر من خلال أحد أبنائها، وبالتالي يختلف عن الرحالة المسلمين الآخرين الذين قدموا إلى بلاد الشام سواء من المشرق أو من المغرب الإسلاميين، ولا مراء فى أن صفته الشامية تعطى له طبيعة متميزة فى كتاباته، فهو ليس بالوافد والغريب عن المنطقة، بل هو من أبنائها.

ثانياً : يتميز أسامة بن منقذ بأنه فارس مسلم قوى الشكيمة ونخبير فى أمور الحرب والقتال، وكذلك الصيد، وتلك الصفات لا نجد لها فى الرحالة المسلمين الآخرين الذين لا نجد منهم من اتصف بصفة الفروسية، وهكذا نجد أن اهتماماته تختلف عن

اهتملات غيره من الرحالة المسلمين المعاصرين لتلك المرحلة التاريخية الهامة من تاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى.

ثالثاً : من جهة أخرى، توطلت علاقات أسامة بن منقذ بعناصر من الصليبيين، ومن ثم تفيد كتاباته في تسليط الضوء على داخل المجتمع الصليبي ذاته، من خلال رؤية رحالة خبير، لم يمكث أياماً قليلة في تلك المناطق، بل خالطهم، وعاش مراحل زمنية متفرقة، وعميقة داخل ذلك الكيان الأجنبي، وفي تقديرى أن تلك الناحية لم تأت لغيره من الرحالة المسلمين.

مهما يكن من أمر، فإن ذلك الأديب، والفراس، والرحالة، قدم لنا كتاباً على جانب كبير من الأهمية ونعنى به كتاب «الاعتبار»، وهو مذكرات شخصية لأسامة ابن منقذ وخلاصة تجاربه الحياتية ونلمح فيه دقة للملاحظة، والقدرة الوصفية الفذة، والتمكن من اختيار الجوانب الحساسة التي قد لا يتطرق إلى تناولها المعاصرون في كتاباتهم التي وصلت إلينا. ولا جدال في أن عمق تجربة أسامة نفسه، أثقلت كتابه بصورة واضحة.

ومن الممكن إثارة زاوية هامة فيما يتصل برحلات أسامة بن منقذ في ربوع بلاد الشام سواء في المناطق الخاضعة للسيادة الإسلامية أو تلك التي سيطر عليها الصليبيون، وهي تتعلق بالمصادر التي استقى منها مادة رحلته.

والواقع أن ذلك الرحالة قد أفاد من مشاهداته وكذلك من المصادر الشفهية، ومن للملاحظ أنه أحياناً كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي يوردها في الاعتبار عن بلاد الشام^(٩)، كما أنه في أحيان أخرى نجده يذكر إشارات من خلال ما سمعه شخصياً^(١٠)، وفي المجال الأخير، نعرف أنه استقى بعض رواياته من أفواه قيادات صليبية على أعلى مستوى قيادي^(١١)، مما يعطى لما أورده في كتابه أهمية متميزة.

وهكذا، يمكن القول بأن هناك مصدرين أساسيين لأسامة بن منقذ وترحاله في ربوع الشام، ألا وهى المشاهدة والمصادر الشفهية، مع ملاحظة أن عنصر المشاهدة والمعاينة تفوق على العنصر الآخر فى أحيان كثيرة، خاصة إذا ما أدركنا أن أسامة ابن منقذ يقدم لنا خبرته الشخصية من خلال الاعتبار.

والجدير بالذكر، أن ذلك الرحالة الشامى، قد قدم لنا العديد من الجوانب، وكأنه يقدم لنا بانورامية شاملة عن بلاد الشام من خلاله، ومن أمثلة ذلك تناوله للمرأة المسلمة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ومظاهر البطولة الفردية لعدد من النساء فى ميادين القتال، وكذلك أوضاع الأسارى منهن، ثم تعرضه للمرأة الصليبية والانحلال الجنسى لدى الصليبيين، وتحليله لسلوكياتهم بين الإيجابيات والسلبيات، وكذلك الفوارق الحضارية بين المسلمين والصليبيين ولاسيما من خلال المعارف الطبية، كذلك تعرضه الهام للجانب التصيرى، ثم الخريطة العقائدية لبلاد الشام فى ذلك العصر، بالإضافة إلى تعرضه لنواحي الصيد ووسائله فى عدد من المناطق الشامية.

مهما يكن من أمر، فإن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصورات هامة عن دور المرأة المسلمة فى بلاد الشام فى ذلك الحين، ويحتل رواياته فى هذا الشأن قدراً كبيراً من الأهمية على اعتبار قلة إن لم يكن ندرة الإشارات التى وصلتنا عن المرأة من خلال مصادر ذلك العصر التاريخية، إذ أن المؤرخين المعاصرين، قد شغلوا بتسجيل الأحداث السياسية والحربية الطابع، وتناول كبار القيادات، وتجنبوا التعرض لقطاعات العامة، وكذلك دور المرأة فى صنع تاريخ تلك المرحلة الهامة والحاسمة من حياة بلاد الشام، وإن وردت إشارات من جانبهم عن المرأة الشامية، فذلك بصورة عرضية ونادرة، وإن كان التجاهل من جانبهم هو الأعم للظروف والملايسات المذكورة.

وهكذا، تلى إشارات أسامة بن منقذ عن المرأة المسلمة فى بلاد الشام، وكذلك المرأة الصليبية لتقدم لنا ثروة طائلة، وتكشف النقاب عن العديد من الحقائق التاريخية فى ذلك العصر، التى كان الباحثون فى أشد الحاجة إليها من أجل تجلية غوامضه.

والجدير بالذكر، أن أسامة بن منقذ اتسم بطابع الاحترام والتقدير للمرأة المسلمة الشامية، ويوضح ذلك من خلال كتابه إذ أنه يقرر صراحة «ما ينكر للنساء الكرام الإنفة والنخوة والاصابة في الرأي»^(١٢). ومن المرجح أن ذلك التصور الراقى لم يكن حالة فردية من جانب ذلك الرحالة، بل أنه تعبير عن تصور عصر بأكمله قدر للمرأة واحترامها من خلال مبادئ الإسلام وتعاليمه الراقية، على نحو لم يتوافر بنفس القدر لدى المرأة الأوروبية المعاصرة لاسيما في الغرب الأوروبي.

وتجد لديه الحرص على إبراز الجانب المتعلق بالبطولات النسائية، فهناك للمرأة التي قتلت زوجها وهو على عبد ابن أبي الدرداء والذي كان من رجال خلف بن ملاعب أمير أقمية^(١٣)، وذلك انتقاماً منه بعد أن اعتاد القيام بعمليات السلب، والنهب، والقرصنة، ضد قوافل المسلمين، خاصة بعد أن ارتبط بالصليبيين في كفر طاب؛ وقد قدر لها المسلمون دورها وعملوا على إكرامها وتقديرها^(١٤).

كذلك حرص أسامة بن منقذ على إظهار البطولة النسائية فيما يتصل بجهاد الصليبيين، من ذلك أن نضرة بنت يوزرماط قامت بأسر ثلاثة من الصليبيين وجعلتهم في بيتها ثم دعت أهلها إليهم فقاتلوهم وتمكنوا من قتلهم^(١٥). وتعنى تلك الرواية أن الرجال لم يكونوا هم القوة الفاعلة فقط، بل إن المرأة المسلمة، شاركت ووقفت جنباً إلى جنب بجوار الرجل المسلم، في معركة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

ولم يكن دور المرأة المسلمة قاصراً على مواجهة الصليبيين، بل إن الأمر تعدى ذلك إلى مواجهة عناصر الشيعة الاسماعيلية من ذلك أن الاسماعيلية، عندما هاجموا شيزر في عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م، قامت النساء بصد الأعداء، إذ أن امرأة تناولت سيفاً وخرجت إلى القتال، ومازالت كذلك حتى تكاثر الشيزريون، وصلوا هجوم أعدائهم^(١٦). ثم هناك امرأة أخرى كانت تحت أحد أقاربها على القتال وعدم الفرار من المعركة^(١٧). بل إنه أشار إلى أن امرأة شيزرية، أرادت أن تلقى بأبتها في الوادي لتلقى

حفظها بدلاً من أن تقع أسيرة في قبضة الاسماعيلية^(١٨). وفي ذلك أوضح دليل على العزة والكرامة لتلك النوعيات من النساء المسلمات في ذلك العصر.

وإذا كان هذا هو حال النساء الشيزريات، فإن ذلك الرحالة، أورد أمر بعض الأسارى من المسلمات، من ذلك تعرضه لأمر الفتاة رفول بنت أبي الجيش، وهو أحسن العناصر الكردية، وقد تم أسرها من جانب أحد الفرسان الصليبيين، على نحو انعكس على والدها الذي فتكت بأعصابه الحنة، وفيما بعد وجدت جثتها طافية في مياه أحد الأنهار الشامية، وقد هدأت نفس والدها عندما أدرك ذلك على اعتبار أنها فضلت الموت عن الوقوع في الأسر^(١٩)، وفي هذا إيضاح إلى أن الوقوع في أسر الصليبيين كان بمثابة كارثة كبرى لدى المسلمين في ذلك العصر، حتى أن البعض من النساء فضلن الموت عن أن يقعن في قبضتي الأعداء كأسارى.

ويلاحظ أن أسامة بن منقذ قسم بنظرة موضوعية حيادية تجاه المرأة المسلمة، فهو لا يقدم صورتها المشرقة فحسب، بل إنه يقدم أيضاً الجانب المظلم الآخر، في صورة قيام بعض النساء بالعمل كساحرات كالمرأة التي تدعى بركة التي كانت تسحر بين المقابر خلال ساعات الليل وقد سخر منها أسامة عندما وصفها بأنها مكشوفة الرأس، منقوشة الشعر، تركب قسبة، وتسهل بين المقابر، وتتجول هناك^(٢٠). وفي ذلك أوضح تعبير عن احتقاره لتلك الأعمال الشريرة من جانب بعض النساء، ومنطقي تصور أن مثل تلك النوعية من النساء الساحرات وجدت سوقاً رائجة من خلال إقبال عناصر من العامة لحل مشكلاتهم الحياتية المتعددة.

من جهة أخرى، لا تخلو رحلات أسامة بن منقذ من جوانب طريفة عن المرأة الشامية في ذلك العصر، فهو يتحدث عن إحدى السيدات المسلمات قارب عمرها المائة عام^(٢١)، فهي من المعمرات، ويلاحظ أن ذلك الرحالة قد حرص على الاهتمام بقضية طول الأعمار، إذ أنه توفي عن عمر يبلغ السادسة والتسعين، وهو مجده يرى أن الموت لا

يقدمه ركوب الأخطار، كما أنه لا يؤخره شدة الحر، وقد لقي الأخطار المتعددة وحارب الصليبيين وقاتل الحيوانات المفترسة وعلى الرغم من ذلك طال عمره إلى حد كبير (٢٢).

أضف إلى ذلك، تطرق أسامة بن منقذ إلى أمر المرأة الصليبية، التي ندر اهتمام المصادر التاريخية العربية بها، وقد أوضح أن المرأة الصليبية لا يغار عليها زوجها، وأن هناك إنحلالاً كبيراً داخل المجتمع الصليبي. وهو يقرر أنه ليس عند الصليبيين نخوة أو غيرة، وضرب مثلاً دالاً على ذلك برجل يمشى مع امرأته فيلقاه رجل آخر يأخذ المرأة فيعتزل بها ويتحدث معها بينما زوجها واقف ينتظر فراغهما من الحديث، فإذا طالت المحادثة تركها مع محلثها وانصرف (٢٣). كما أشار إلى أمر أحد الصليبيين الذي دخل بيتاً وضاجع امرأة فيه، وعندما قابله زوجها قال له أنه إذا عاد إلى ذلك مرة أخرى خاصمه (٢٤).

وهكذا، يلقي ذلك الرحالة الأضواء على الإنحلال الخلقي داخل المعسكر الصليبي، ومن المعروف أن الكيان الصليبي قد احتوى على العديد من مظاهر الإنحلال الخلقي، من ذلك أن مدينة عكا الساحلية احتوت على حى للدعارة عرف بالحي الأحمر (٢٥)، كما أن للمؤرخ الصليبي جاك دي فري Jacques de Vitry أشار إلى أن رجال الدين الصليبيين كانوا يؤجرون أماكن العبادة من أجل الدعارة لما تدر عليهم من ربح وفير (٢٦)، وهي شهادة تاريخية هامة نظراً لصدورها من جانب رجل دين صليبي ومؤرخ لمملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

كما نجد أن الجيوش الصليبية قدمت إلى المنطقة لتقاتل المسلمين، وجاءت السفن القادمة من أوروبا محملة بالبغايا والعاهرات؛ من أجل الترفيه عن الفرسان الصليبيين (٢٧) وهو كان بمثابة ظاهرة اجتماعية عامة، دعمتها فكرة تكون ذلك المجتمع من العديد من العناصر، والجنسيات المختلفة.

وتؤكد الصورة السابقة من خلال إشارات الرحالة الأوروبيين أنفسهم الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي/ القرن السادس الهجري، حيث أشاروا إلى الانحلال الجنسي في المدن الساحلية الشامية الخاضعة لسيطرة الصليبيين كمكا على سبيل المثال (٢٨).

من ناحية أخرى، قدم أسامة بن منقذ رؤية هامة للنساء الصليبيات، تعكس نظره الخيرة، فقد أورد أمر جارية صليبية صارت للأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، وأنجبت منه ولداً أسماه بدران، وصار ولياً لعهد، ومن بعد ذلك فرت من المسلمين إلى الصليبيين وارتضت أن تتزوج إسكافياً وذلك على الرغم من أن ابنها صاحب قلعة جعبر، ويشار له بالبنان. ويعلل أسامة بن منقذ ذلك الموقف بقوله أنهم «جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم» (٢٩). وهو رأى مهم صادر عن رجل خبير بالصليبيين.

وإذا نحينا ذلك جانباً، نجد أن ذلك الرحالة، يقدم لنا تصورات هامة بشأن سلوكيات الصليبيين، وقد أوضح في إشارة هامة، أن الصليبيين القريبى العهد بالبلاد الأوروبية طبائعهم جافة إذا ما قورنوا بالذين عاشوا المسلمين (٣٠)، كما أنه أوضح أن هناك من الصليبيين من تأثر بطباع المسلمين، من ذلك أمر الرجل الصليبي الذي لا يأكل من حطام بنى جلده ولا يدخل داره لحم الخنزير (٣١)، وتتضح دقة أسامة بن منقذ من توضيحه أن المثال الأخير لا يقاس عليه لأنه أشبه شيء بالاستثناء، بيد أن روايته بصفة عامة تكشف لنا بجلاء أن الصليبيين ترقى طبائعهم من خلال احتكاكهم بالمسلمين، وفي هذا رؤية هامة للسلوك الاجتماعى من جانب ذلك الرحالة الثاقب النظر القوى الملاحظة.

زد على ذلك، أن أسامة بن منقذ يقدم لنا تصوراً هاماً وموضوعياً لصفات الصليبيين، وقد وصفهم «بالشجاعة العظيمة» (٣٢)، والاحتراز فى الحرب (٣٣)، كما أنه

قرر أنه لا فضيلة لهم إلا الشجاعة، وأن الفرسان مقدمون بينهم^(٣٤). وفي تقديرى أن مثل تلك النصوص إنما تدل على الموضوعية الواضحة من جانب ذلك الرحالة الذى امتدح مثل تلك الصفات فى أعداء المسلمين فى وقت شهد عنف المواجهة بين عالمى الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى.

وكامتداد لتناول أسامة بن منقذ للطرف الآخر، وعمق تصويره له، نجد يكشف بجلاء عن الفارق الحضارى بين كل من المسلمين والصليبيين، ونجد ذلك واضحاً فى مجال العلوم الطبية؛ إذ أن الصليبيين طلبوا مساعدة المسلمين فى بعض الأمور التافهة كإزالة «دمل» بسيط^(٣٥)، كما أشار إلى أمر القس الذى ملأ أنف أحد الفرسان بالشمع فمات، وعندما قالوا له لقد مات قال : نعم، إذ أنه كان يعانى ويتعذب فأراحه^(٣٦)، وفى هذا أوضح دليل على تخلف أوضاع الصليبيين الطبية^(٣٧)، إذا ما قورنوا بالمسلمين ومعارفهم فى هذا المجال.

من جهة أخرى، نجد ذلك الرحالة يقدم لنا تصورات هامة عن الجانب التنصيرى، وقد أورد أمر أحد الرجال اعتنق الإسلام وحسن إسلامه، وذلك من خلال قيامه بتأدية الصلوات المفروضة وصوم شهر رمضان، وتزوج ورزق بولدين، ومن بعد ذلك فر إلى أقالمة وهى خاضعة للسيادة الصليبية، وتصر هو وأولاده^(٣٨).

أضف إلى ذلك، أنه أشار إلى أحد الصليبيين يقدم صورة السيدة مريم العذراء وهى تحمل السيد المسيح طفلاً ويخاطب أحد المسلمين بأن هذا هو الله صغيراً، وقد استفاد أسامة بن منقذ من ذلك بقوله «تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً»^(٣٩).

ونجد الإشارة أن إيراد ذلك الرحالة لمثل تلك الأحداث يدل على أنه أدرك خطورة البعد التنصيرى كأحد أهداف المشروع الصليبي الذى رغب فى تحويل مسلمى الشرق الأدنى إلى مسيحيين يدينون بالولاء لكنيسة روما وفق المذهب الكاثوليكي^(٤٠). مع

ملاحظة أن الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، حرصوا على إثراء بعض الروايات الهامة عن ذلك الجانب التصيرى. ولا مراء في أن رواية أسامة بن منقذ لها شأنها في ذلك المجال مع ندرة ما ورد في هذا الشأن في المصادر التاريخية العربية المعاصرة.

وبالإضافة إلى كافة الجوانب السابقة، نجد أن ذلك الرحالة قد قدم لنا تناولاً مهماً للخريطة المذهبية والعقائدية التي كانت عليها بلاد الشام لاسيما المناطق الإسلامية، ذلك تعرضه للاسماعيلية النزارية، كذلك تناوله للصوفية.

وفيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، نجد أن ذلك الرحالة قد أورد أمر هجومهم على شيزر في عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م. وأوضح مقاومة المدينة (٤١) لذلك الهجوم المقام من جانب الاسماعيلية الذين انتهزوا خروج الشيزريين خارج المدينة من أجل قضاء الأعياد، وبادروا بالهجوم عليها، إلا أن المقاومة الباسلة قضت على مخططهم من الاستيلاء على تلك المدينة الاستراتيجية الهامة في شمال الشام.

مع ملاحظة أنه لم يقدم إشارات أخرى عن دورهم في عمليات الاغتيالات وجهوها نحو القيادات المسلمة السنية، وكذلك قلاع الدعوة الاسماعيلية في بلاد الشام ومن ثم اقتصر تناوله فقط على تناول الهجوم الاسماعيلي على شيزر.

أما فيما يتصل بالصوفية، فنجد أن ذلك الرحالة، قد عبّر عن ظاهرة انتشار التصوف في بلاد الشام في ذلك العصر. وقد أورد أمر إثنين من المتصوفة، وهما القنديل والحلحولي (٤٢)، وقيامهما بمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمشق خلال الحملة الصليبية الثانية في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٣م. مع ملاحظة أن عصر ابن منقذ قد اعتقد في أولئك المتصوفة، وفي كراماتهم ولا أدل على ذلك من أنه نفسه أورد شيئاً منها، تعرضه لأمر حسن الزاهد، الذي أعمى الله سبحانه وتعالى عيون الصليبيين، عن بينما كان هلاكه لا ريب فيه (٤٣).

وهكذا أورد ذلك الرحالة أمر تلك الكرامات المتصلة بالصوفية، مع ملاحظة أن المصادر التاريخية لذلك العصر تفيض بتناول ذلك الجانب لاسيما كتب الطبقات والتراجم والوفيات.

ومن ناحية أخرى، نجد أن أسامة بن منقذ قد ألقى الضوء على ما يتصل بفنون الصيد في بلاد الشام خلال ذلك العصر، ويعتبر ذلك الجانب من أهم الجوانب التي تعرض لها من خلال تجربة شخصية وخبرة عريضة.

وفي هذا المجال أشار إلى الصيد بالبيزة^(٤٤) في شيزر، وغيرها من مدن الشام حينذاك، ومن المعروف أنه يعنى الصيد باستخدام الطيور المدربة على ذلك، مثل الصقور ونحوها، ولا تغفل أنه وجد هناك ما يعرف بالبيزة، وهي في الأصل كلمة فارسية عربت بازيار أى صاحب الباز. والبيزة علم أطوار الطيور الجارحة^(٤٥)، مثلما البيطرة علم الحيوان. ولا شك في أن معرفة أسامة بن منقذ بالبيزة كانت متسعة على نحو أوضحته بجلاء صفحات كتابه الاعتبار.

وقد أشار إلى كثرة الصيادين وكثرة البيزة حتى صارت لديهم في شيزر من الكثرة كالذجاج^(٤٦)، وأشار إلى بعض الأنواع النادرة من الباز مثل ذلك النوع المقرنص الأحمر العينين^(٤٧)، والباز الأفرنجي الذي تم احضاره لبنى منقذ في شيزر مكسر ريش الأجنحة والذنب^(٤٨)، كذلك تعرض للشاهين^(٤٩) الذي جمعه شواهين وشياهين، وكان على ثلاثة أنواع : شاهين، وفطامى، وانبقى^(٥٠)، مع ملاحظة أن الشاهين نفسه من جنس الصقر.

ومن الملاحظ أن بنى منقذ في شيزر، على الرغم من أنهم نالوا جانباً هاماً من التحضر في جوانب حياتهم، إلا أنهم فضلوا أن يحيا حياة البادية وأن يمارسوا فنون الصيد والقنص^(٥١)، ووجدوا في ذلك متعة كبيرة، كما هو جلي من خلال عرض أسامة بن منقذ نفسه.

وهكذا ألفت رحلات أسامة بن منقذ في ربوع بلاد الشام الأضواء الساطعة على العديد من جوانب حياة المسلمين والصليبيين في عصر المواجهة بين الإسلام والمسيحية ونعني به عصر الحروب الصليبية، الأمر الذي جعل رحلته تحتل مكانتها الرفيعة من بين الرحلات التي وصلت إلينا من ذلك العصر.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة أسامة بن منقذ أنظر :

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ح-٢، تحقيق بدران، ط. دمشق ١٣٣٢هـ، ص ٤٠٠.
 أسامة بن منقذ، للنازل والديار، ح-١، ط. بيروت ١٩٦٥م، ص «س» من المقدمة، البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد الحميد، ط. القاهرة ب-٢، ص «ديوان أسامة بن منقذ» تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد الحميد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٦-٣٩، بالقوت، معجم الأدباء، ح-٥، ص ١٨٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٢، ص ٣١-٣٢، النعماني، اللبس في تاريخ اللبس، ح-١، تحقيق جعفر الحسني، ط. دمشق ١٩٤٨م، ص ١٣٨٤، ابن تقي بردي، النجوم الزاهرة، ح-٥، ص ٢٨٣، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح-٤، ص ٢٧٩، حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ص ٦٧-١٣١، أحمد كمال زكي، أسامة بن منقذ، ط. القاهرة ١٩٦٨م. فارس الفرسان، ط. القاهرة ١٩٧٤م، جمال الدين الألويسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، ط. بغداد ١٩٦٧م، كرد علي «كتاب الاعتبار» مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م (١٠)، ح (٩) عام ١٩٣٠م، ص ٧٧٢-٧٧٣، طاهر النعماني، «أسامة بن منقذ» مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م (١٠)، ح ٤-٥، عام ١٩٣٠م، ص ٢٣٠-٢٣٧، ٣٠٥-٣١٦، محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٦م، أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب-٢، ص ١٧١-١٧٥، محمد الجفال، أسامة بن منقذ حياته وشعره، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، فلييب حتى، أسامة بن منقذ، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (٣)، ح (١٠)، عام ١٩٣٠م، ص ٥٩٦، شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ط. القاهرة، ص ١٠٠.

Derembourg, Ousama Ibn Munqidh, Un Emir Syrien au premiere siecle des croisades, Vie de Ousama, Paris 1889.

(٢) شيزر، مدينة من مدن شمال الشام، تقع على بعد خمسة عشر ميلا إلى الشمال من حماة، وعندما توجد هضبة سماها مؤلفو العرب «عرف الديك»، ويبلغ عندها نهر العاصي من جهات ثلاث، فهي أشبه شح شبه جزيرة من الناحية الجغرافية، وقد تم حفر خندق في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبحر، وهناك شيدت قلعة حصينة كانت لها ثلاثة أبواب، وقد تآثرت شيزر بالزلازل

للمدمر الذي وقع في بلاد الشام في عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م. على نحو أدى إلى القضاء على الأسرة العربية الحاكمة في شيزر، ونعني بها أسرة بني منقلد، بيد أن أسامة نجا من الموت لعدم وجوده بشيزر وقت وقوع ذلك الزلزال للمدمر. عن شيزر والزلزال الذي أصابها أنظر :

أبوقريب، كتاب البلدان، ص ٣٢٤، الأصبهاني، مسالك للممالك، ص ٦١، ابن القلائسي، ذي تاريخ دمشق، ص ١٥٢٦، تقديم فيليب حتى لتحقيق كتاب الاعتبار، ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص ١٥٣، ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٣٢٥، السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، ص ١٨٨.

Anonymous Syriac Chronicle, p. 302; Rührich, Geschichte des Kengreichs Jerusalem, p. 290, note (4); Tsugitako, The Syrian coastal Town of Jabala, its History and present situation, p. 47.

محمد محمد الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١، ١٢م، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٧١-٢٧٢، مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٦٩.

(٣) أسامة بن منقلد، البديع في الشعر، ص ١.

(٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٨٧.

(٥) عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٧.

ويلاحظ أن عبدالرحمن حميدة يقرر في كتابه أن أسامة بن منقلد قد صاحب الخليفة الفاطمي الحافظ، وخلفه الظاهر، بيد أن هذا القول يتنافى للواقع التاريخي لأمر يسير، ألا وهو أن الخليفة الحافظ قد حكم خلال الفترة من ٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٤٩-١٢٣٠م، أما الظاهر، فإنه لم يخلف الحافظ، إذ أنه حكم خلال الفترة من ٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م، وجاء بعده بعد الحاكم بأمر الله الذي حكم خلال المرحلة من ٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م، ومعنى هذا أن قرناً من الزمان لو ما يزيد قد فصل بين عهدي الحافظ والظاهر. عن إشارة عبدالرحمن حميدة، أنظر : أعلام الجغرافيين العرب، ص ٣٠٧.

وعن تصحيح ذلك أنظر :

ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق النهامي نقرة وعبدالحليم عويس، ط. الرياض ب-ت، ص ١٠٦، ١١٢ 'أخوان مير، روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ت. أحمد عبدالقادر الشاذلي، ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص ٢٢٦، ٢٣٠ 'ستاقلي لين هول، طبقات سلاطين الاسلام، ص ٦٩، زمبار، معجم الأسرات الحاكمة في الاسلام، ت. زكي حسن وحسن محمود وسيله كاشف، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص .

(٦) تقديم فيليب حتى لتحقيق الاعتبار.

(٧) تجدر الإشارة إلى أن كتاب الاعتبار، قد حققه دير نيرج وصدر عمله في لندن وباريس عام ١٨٨٤-١٨٨٦م، عن ذلك أنظر :

Ousama Ibn Munkidh, un Emir au Syrien au premier siècle des croisades (1095-1188), par Hartwig Derenbourg, Leiden- Paris 1884-1886.

ثم من بعد ذلك قام فيليب حتى، بتحقيق الكتاب، وصدر عمله في برنستون بالولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٣٠م، ثم طبع الكتاب بتحقيق حتى مرة أخرى في بيروت وذلك في عام ١٩٨١م، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في إعداد هذا الفصل.

وأخيراً قام بتحقيقه قاسم السامرائي، وصدر عمله في الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٧م.

ويلاحظ أن كتاب الاعتبار نال شهرة عالمية كبيرة، وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية. مثل الإنجليزية، والألمانية، والروسية، والبولندية، والدنماركية، عن ذلك أنظر الترجمات الإنجليزية :

The autobiography of Osama, Translated with introduction and notes by George Richard potter, London 1929.

An arab-Syrian gentleman and warrior in the period of the crusades, Memoirs of Usama Ibn Munqidh Translated by philip Khuri Hitti, New York 1927.

الترجمات الألمانية :

Kitab Al-Itibar Ein Leben im Kampf gegen kreuzzitterheere, Aus dem Arabischen ubertragen und bearbeiter von G. Rotter. Tübingen 1978.

Usama b. Munqudh Memoiren aus d. Arab. ubers v. Geo. Schumann, mit verw. v. H. Derenbourg, Insbruck 1905.

Die Erlebnisse des Syrischen Ritters Usama Ibn Munqid, Unterhaltsames und Belchrendes aus der zeit der Kreuzzuge, ubersetzt und herausgebe ben von Holger preiss ler, (München 1985).

الترجمات الروسية :

Usama Ibn Munkyz : Kniga nazidaniya pere wod : N. Salier, Red, Wstupit, stat'ja I primec : 1. Ju Karackowskij, petersburg, Moskwa 1922.

الترجمات البولندية :

Kitab al. Ictibar Knlega pouczejacyth przykladow dzieło Usamy Ibn Munkidtha, Jan Reychman, Ossolineum 1973.

الترجمات الدنماركية :

De Laereige eksem plers bog (kitabu-1 Itibar) of Usama Ibn Munkids, Syrisk emir fra Korstogstiden, Ovesat I uddrag of ove chr. Krapup, Kobenhaven 1950.

عن ذلك أنظر : تحقيق قاسم السامرائي للاعتبار، ص ٢٤٣-٢٤٤، علي عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافيا، ص ١٦٧-١٦٨.

(٨) عن مؤلفات أسامة بن منقذ، أنظر ما أورده للمقرئ في مخطوطته الملقى، مكتبة جامعة ليدن برقم ١٤٥٣٣ شرقى، وقد نشر الورقة ١٤٠ أ من الجزء الثالث قاسم السامرائي في تحقيقه المشار إليه. وصح في ص ٢٣٥-٢٣٦ من تحقيقه للاعتبار، بيد أنني أرى أن ما أورده للمقرئ ليس كاملاً إذ أن هناك مؤلفات أخرى أوردها مؤرخون سابقون على المقرئ، ولم ترد في الملقى، ومن أمثلتها القلاع والحصون على سبيل المثال. وقد أورد أمره ابن خلكان، وبعد هذا الكتاب نادر في موضوعه، بيد أنه على ما يبدو من مؤلفات أسامة المفقودة، وفي حالة العثور على مخطوطته، فإنه يسد فراغاً كبيراً في مكتبة المصادر التاريخية العربية التي وصلت إلينا من عصر الصليبيات في بلاد الشام.

وأنظر كذلك : هشام عذرة، قلعة شيزر والأمير الشاعر أسامة بن منقذ، المنهل، العدد (٥٠٧)، م (٥٥) صفر ١٤١٤هـ / يوليو - أغسطس ١٩٩٣م، ص ١٥٦-١٥٧.

(٩) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٧٤.

(١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٥.

(١١) من أمثلة ذلك ولم دى بور William of Bures, Guillaume de Bures.

نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.

(١٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٣) خلف بن ملاعب، هو خلف بن ملاعب الأشهبى سيف الدولة، كان من قطاع الطرق، وقد وجد أحد الحصون الواقعة بين حلب، وسلمية، عرف باسمه، وقد أخضع حمص وأقامية، وقد حاربه السلطان السلجوقي ملكشاه وتمكن من أسره، وفيما بعد أطلق سراحه على يد خاتون زوجه السلطان، وقد هاجمه الباطنية وتمكنوا من قتله وذلك في عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م. عن خلف بن ملاعب وأخيه على أيدى الباطنية أنظر :

ابن القلائس، قبل تاريخ دمشق، ص ١٨٦، ١٨٨، ابن العديم، ترجمة خلف بن ملاعب من بغية الطلب

Lewis, Three Biographies from Kamal Ad-Din", Melanes Fūad koprūlū, Istanbul 1953, pp. 325-329.

زهدة الخطب، جـ ٢، ص ١٥١-١٥٢، ابن تغرى بردى، انجم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٩٢، السيد العزوى، فرقة التزارية، ص ١٠٧.

(١٤) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٦٣.

(١٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٥-١٦٦.

(١٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٧) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٩.

(١٨) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٥٨.

(٢١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٦٢.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٤.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) برلور، عالم الصليبيين، ت. محمد خليفة وقاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص ٢٢١.

(٢٦) Jacques de Vitry, p. 64.

(٢٧) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ط. القاهرة بـت، ص ١٧٠، ولزهد من الإشارات عن الانحلال الجنسي لدى الصليبيين أنظر: حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص ١٩٥، زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفريغ خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص ١٢٣، جمعة الجندى، حياة الأفريغ ونظمهم في الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دراسة تطبيقية على مملكة بيت المقدس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م، ص ٢٩٩-٣٠٠، حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية، ص ١١١، نيسر بن موسى، نظرة عربية على غزوات الأفريغ من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. طرابلس بـت، ص ٩٧.

Joannes phocas, A brief Description of the Holy land, p.11. (٢٨)

(٢٩) أسامة بن منقذ، للمصدر السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٢.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٨٠.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦.

وتجدر الإشارة إلى أن من المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى، من أشار إلى نفس الصفات التي امتدح بها أسامة بن منقذ الصليبيين، ولكنها تطلق من جانب أولئك المؤرخين على المسلمين، ومن أمثلتهم للمؤرخ المجهول، الذي وصف السلاجقة بأنهم من أشجع المقاتلين، بل أنه تمنى لو أنهم كانوا مسيحيين. عن ذلك أنظر :

Anonymous, The deeds of The Franks, p. 21; Hill, "The christian view of the Muslims at the Time of the First crusade", in, the eastern mediterranean Lands in the period of the crusades, ed. by P.M. Holt, London 1977, p. 2.

(٣٣) أسامة بن منقذ، للمصدر السابق، ص ٢١.

(٣٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٣.

(٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٠.

(٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣٧) عن ذلك أنظر : John of Wurzburg, p. 44.

وبلاحظ أن ذلك للرحلة الألماني، الذي زار مملكة بيت المقدس الصليبية، خلال الرحلة من عام ١١٦٠-١١٧٠م / ٥٥٥-٥٦٥هـ على الأرجح، قد أشار إلى أنه في مستشفى الاسبتارية في بيت المقدس، يموت يوميا نحو خمسين شخصا، وهي شهادة من رحلة معاصر لتلك للرحلة، تمكس أن الوسائل العلاجية في ذلك الوقت لدى الصليبيين، حتى في للمستشفيات، كانت عاجزة عن تقليل أرقام الوفيات، بحيث بلغت ذلك للمعل السابق.

أنظر أيضا إشارات هامة لدى :

Woodings, "The Medical resources and practice of the Crusader states in Syria and palestine (1096-1192), M.H., Vol. XV, No. 3, July 1971, p .

كامل حسين، في الطب والأقربازين، ضمن كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٢٨٥، سعيد عاشور، للمدينة الاسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٤٧، زكي نقاش، للرجع السابق، ص ١٢٠٦ محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣م، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٣١ العروسي الطوى، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٧٥

نقولا زيادة، سوريا زمن الصليبيين، للقطف، يونيو ١٩٢٨م، ص ٢٠٠، إدوارد برلون، الطب العربي، ت. دلود سلمان علي، ط. بغداد ١٩٨٦م. ص ٦٨، شفيق جاسر، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص ١٢٢.

(٣٨) أسامة بن منقذ، للمصنر السابق، ص ١٦٧.

(٣٩) نفسه، نفس المصنر، ص ١٧٣.

(٤٠) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٧٠.

(٤١) أسامة بن منقذ، للمصنر السابق، ص ١٥٨-١٦٠. وعن هجوم الاسماعيلية على شيزر أنظر :

ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٩، المعظمي، تاريخه، تحقيق علي سويم، ط. نفرة ١٩٨٨م، ص ١٣٢، ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٢٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ح ٢، ص ١٥١، ابن الوردي، تاريخه، ح ٢، ص. القاهرة ١٨٦٨م، ص ١٩، سعيد عاشور، أخلاء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٧، مسفر سالم الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الاسلامي قبل قيام الدولة اليهودية في مصر (٤٩١-٥٦٩هـ / ١٠٩٧-١١٧٣م)، ط. مجلة ١٩٨٦م، ص ٦٠، محمد مؤنس أحمد عوض، المؤرخ الحلبي المعظمي (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) حياته، ومنهجه في الكتابة التاريخية عن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس عام ١٩٩٣م، ص ١٩.

(٤٢) أسامة بن منقذ، للمصنر السابق، ص ١٢٢. وعن دور الفندلاوي والطحولي أنظر :

ابن القلاسي، للمصنر السابق، ص ٤٦٤، ابن الأثير، للمصنر السابق، ح ١١، ص ١٢٩-١٣٠، الباهر، ص ١٥٩، ابن خلكان، للمصنر السابق، ح ٢، ص ٤٥٢، ابن تغري بردي، للمصنر السابق، ح ٥، ص ٢٨٢، ابن العماد الحلبي، للمصنر السابق، ح ٤، ص ١٢٦، العلوي، الزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٦٢-٦٣، فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢١٥، علي أحمد، الأنطلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع، ط. دمشق ١٩٨٩م، ص ٣٠٣.

(٤٣) أسامة بن منقذ، للمصنر السابق، ص ١١٩. أنظر أيضاً :

العصا، تحقيق عبدالسلام هارون، في نواذر المخطوطات، المجموعة الثانية، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٤٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٥٦.

(٤٥) سعاد ماهر، البيطرة في التاريخ والآثار، الدارة، العدد الأول، السنة (٣)، ربيع الأول ١٢٩٧هـ / فبراير ١٩٧٧م، ص ١١٤. وفي هذا المجال أنظر هذه المخطوطة الهامة : الخطريف بن قدامة، كتاب ضواري الطير، مخطوط أحمد الثالث، رقم (٢٠٩٩)، مكتبة طوب قابوسراي، استانبول، تصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٤٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٥٧.

(٤٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٨.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٩.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٠.

(٥٠) سعاد ماهر، للمرجع السابق، ص ١٠٤.

ويلاحظ أن الشواهد أو الشياهد، ومفردها شاهين، وهو طائر جارح من فصيلة الصقريات ويقابل كوند Falco أو Falcon، ويمثله الشاهين الزروري أو Falco Pereyrinus، وهو ليس عربى، ولكن تكلمت به العرب كما يلاحظ الدميري، والشاهين له ثلاثة أنواع، شاهين وقطامي وثيقى وهو من جنس الصقر، وحركته تكون من العلو إلى أسفل بصورة شديدة، ولذا فإنه يتقضى على فريسته انقضاضاً دونما تحويم، وعمل ذلك من المحتمل أن يضرب نفسه بالأرض فيموت خاصة إذا ما ارتطم بصخر من الصخور، ويقال أن الشاهين أسرع الجوارح كلها، وأشجعها، وأخفها، وأحسنها إقبالا وإدباراً، ويذكر الباحثون عدة أنواع منه مثل الشاهين العراقي، والسائيري، والمغربي، والهندي وغيرها. عن الشاهين أنظر :

القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط. القاهرة ب-ت، ص ٣٦٤، الدميري، حياة الحيوان الكبير، ط. القاهرة ١٣٦٧هـ، ص ٤٨-٤٩، الخطريف بن قدامة، المخطوط السابق، ورقة (٣٦)، الزبيدي، انتهاز الفرص في الصيد والقنص، تحقيق عبدالله الحبشي، ط. لندن ١٩٨٥م، ص ١٣٢، عزيز العلي العزى، الطير في حياة الحيوان للدميري، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص ١٢٩، حاشية (٢).

(٥١) سعيد عاشور، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص ٤٤.

٣ - السائح الهروى

(ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ونعنى به السائح الهروى^(١) (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م)، ويتعرض لأهم ما ورد فى رحلته عن المناطق الإسلامية وكذلك الصليبية مع ملاحظة غلبة الطابع الدينى على ما ألفه فى هذا الصدد على نحو جعل من كتاباته فى هذا المجال ذات محدودية معينة لا تجدها فى كتابات الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى تلك المرحلة الهامة، والفعالة من تاريخها.

والهروى؛ هو أبو الحسن على بن أبى بكر بن على الهروى الأصل، الموصلى المولد^(٢)، ولا نعرف تفاصيل حياته من قبل أن يشتهر بالرحلة والأسفار، ولكن على ما يبدو أنه حقق قسطاً وافراً من العلم، وقد وصف بأنه كانت له معرفة بعلم السيمياء^(٣)، وإن لم يكن ذلك هو المجال الوحيد لتفوقه؛ إذ أن له مؤلفات أخرى تدل على أنه كان ذا باع كبير فى مجال الحيل الحربية، والجغرافيا، والرحلات، والآثار، وغيرها من العلوم والمعارف.

وقد عرف الهروى باتساع نطاق رحلاته، وأسفاره، حتى أنه طاف أنحاء المشرق الإسلامى، وذهب إلى الهند، والقسطنطينية، والمغرب، وصقلية، والعديد من جزائر البحر المتوسط^(٤)، وقد وجلت فيه صفة مميزة وهى؛ حب الترحال والأسفار، ثم كتابة اسمه على الآثار التى يزورها^(٥)، ويبدو أنه رغب من وراء ذلك أن يخلد اسمه من بعد وفاته على اعتبار أن الأشخاص يرحلون وتبقى الآثار شاهدة عليهم حتى بعد رحيلهم.

ولا نزاع فى أن كثرة أسفاره بمثل تلك الصورة قد أدت إلى أن أطلق عليه معاصروه لقب السائح الهروى ومعنى هذا أننا أمام رحلة محترف باعتراف معاصريه، ولا شك فى أن ترحاله المتسع بمثل هذه الصورة، قد أفاده بالتأكيد عندما ألف مؤلفاته المتعلقة بالرحلة.

ومنطقى أن نجد لمثل ذلك الرجل العديد من المؤلفات، التى تعكس تكوينه العلمى المتعدد من ناحية، وموسوعية علماء العصر من ناحية أخرى، وفى هذا المجال نعرف أن الهروى قد ألف الإشارات إلى معرفة الزيارات^(٦) - وهو أساس دراستنا له فى هذا الفصل - ثم التذكرة الهروية فى الحيل الحربية^(٧)، وكذلك الخطب الهروية، وكتاب الأصول ثم منازل الأرض ذات الطول والعرض، وأيضاً كتاب الآثار والعجائب، والأصنام^(٨).

وتجدر الإشارة إلى أن الهروى وفد على القسطنطينية^(٩)، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وذلك فى عهد الامبراطور البيزنطى عمانوئيل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٥-١١٨٠م / ٥٤٠-٥٧٦هـ)^(١٠)، ثم من بعد ذلك ارتحل إلى مدينة دمشق حاضرة الشام الكبرى وذلك فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م. وفى هذا المجال، يذكر إثنان من الباحثين القديرين فى مجال الرحلات الإسلامية فى العصور الوسطى، أن الهروى دخل دمشق فى العام المذكور «وذلك قبل أن يستعيد صلاح الدين الأيوبي من يد الفرنجة»^(١١)، غير أن ذلك القول لا ينطبق على الحقيقة التاريخية فى شىء لأمر يسير وهو أن الصليبيين لم يتمكنوا على مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م من دخول مدينة دمشق، بل إنه خلال الحملة الصليبية الثانية التى حاصرتها حصاراً شديداً فشلت جهودهم فى إسقاطها والمنطق يدعو إلى الاعتقاد بأن الهروى دخل المدينة المذكورة فى عهد الملك العادل نور الدين محمود الذى توفى فى عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، وكان صلاح الدين الأيوبي فى ذلك الوقت فى مصر ناهياً له بعد أن اسقط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م.

مهما يكن من أمر، فإن الهروى قد قضى أيامه الأخيرة في مدينة حلب - حاضرة الشام الشمالية الهامة - حيث احتضنه هناك الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي الذي قره إليه لمعرفته بالسيما، مثلما قرب إليه من قبل الفيلسوف السهروردي الحلبي المقتول (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) (١٢) لمعرفته بنفس العلم، وقد لقي لدى الظاهر تقديرًا كبيرًا ولا أدل على ذلك من أنه بنى له مدرسة خاصة به هي المدرسة الهروية بظاهر حلب (١٣)، وفيما بعد دفن فيها الهروى، وقد زارها ابن خلكان، وأورد لنا تلك الإشارة الهامة، وتعرف أن الرجل توفى في عام ٦١١هـ / ١٢١٤م (١٤).

والكتاب الأساسى الذى يعكس جانباً هاماً من ترحال الهروى يتمثل فى صورة «الإشارات إلى أماكن الزيارات» وقد تناول فيه كافة المناطق والأماكن التى هى موضع زيارة الأهلين فى عصره، وفى هذا المجال أورد عدداً كبيراً من المزارات والمساجد ودور العبادة. ويلاحظ أنه كتب كتابه هذا اعتماداً على ذاكرته القوية، وذلك بعد أن فقدت كتبه نتيجة سرقة لصوص الصليبيين التابعين للملك الصليبي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩م / ٥٨٥-٥٩٥هـ)، وقد حدث ذلك فى جنوب فلسطين فى منطقة اللروم على ماء الخويلفه (١٥) وقد أورد الهروى هذه الحادثة فى عبارات تفيض ألماً وحسرة.

ومن الملاحظ أن اعتماد الهروى على ذاكرته فى تسجيل ما شاهده فى كتابه الإشارات فى معرفة الزيارات يجعله منفرداً بين الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، إذ أننا لم نجد فى أى رحلة من الرحلات التى ألفوها إشارة واحدة إلى مثل تلك المأساة الشخصية، ويبدو أن الكل سجل أسفاره أولاً بأول من أجل أن يستعين بها عندما يقلم بتسجيل رحلته، أما الهروى فقد تميز بتلك الحادثة، ويبدو أنه أجهد نفسه تماماً فى تذكر أسماء المواقع وأماكنها، ومن الممكن أن نستنتج ناحية شخصية عن ذلك الرحالة ونعنى بها قوة ذاكرته، على نحو جعله يتذكر كافة تلك الأماكن بمثل تلك الدقة العجيبة.

وكتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات يمكن أن يوصف أنه كتاب في السياحة الدينية كما وصفه أحد الباحثين القديرين^(١٦)، ولكن من الضروري أن نتناول الدوافع التي دفعت الهروي إلى تأليفه لذلك الكتاب، ومن الملاحظ أنها دوافع شخصية مرتبطة بطبيعة العصر نفسه عصر الصراع بين عالمي الإسلام والمسيحية، ويمكن إجمالها في الآتي :

أولاً : رغبة الهروي في أن يتقل لمعاصريه تناج ترحاله إلى مناطق متعددة، خاصة أنه وصف بأنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن أن يقصدها المرء وبراً ولا رآه^(١٧)، وحيث أن زكاة العلم نشره، فقد رأينا الهروي يسعى إلى تأليف ذلك الكتاب؛ ومن المنطقي أن هناك دوافع دينية دفعت شخصياً إلى نقل رحلاته وأسفاره خاصة في المزارات الدينية إلى معاصريه.

ثانياً : حيث أن مؤلفات الهروي، نجد فيها أحدها يتناول الآثار، فمن المنطقي تصور أن الهروي هدف من وراء كتابه أن يقدم وصفاً أثرياً لكافة المزارات والمساجد والمشاهد التي مر بها خاصة في بلاد الشام؛ وهو ما يعتنا في موضوع فصلنا هذا.

ثالثاً : إن دوافع الهروي لا يمكن أن نفصلها بأي حال من الأحوال عن دوافع العصر ذاته، لقد كان عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين، وأدى الغزو الصليبي للمنطقة ونجاح الغزاة في زرع كيانتهم الدخيل في صورة إمارات الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، إلى زيادة التمسك بالمظاهر الدينية لدى المسلمين. ومن ثم تعاظمت ظاهرة التصوف وأكبار المتصوفة والأولياء بنفس الصورة التي رأيناها في رحلة - ابن جبير - ومن ثم فإن العصر نفسه الذي عاش فيه الهروي وجدنا فيه الظاهرة الدينية هي التي تظهر على السطح، ولاشك في أن كتابه ما هو إلا تأكيد لذلك الموقف، وجزء من المحافظة على الهوية في مواجهة رغبة الصليبيين في القضاء على هويتها الإسلامية.

وهذا الوضع السابق، يفسر لنا بالضرورة ضخامة التراث الديني الذي وصل إلينا من ذلك العصر، لقد كانت هناك استجابة إسلامية للتحدي الصليبي أخذت أشكالاً متعددة سياسية وحرية وعلمية، من خلال إطار عام للمواجهة الشاملة ضد الصليبيين.

ومن ناحية أخرى، من الضروري تناول ناحية هامة، ونعني بها المصادر التي استقى من خلالها الهروي كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، والواقع أن مطالعة ما ألفه تكشف لنا بجلاء أنه اعتمد على مشاهداته الشخصية في تأليف كتابه، فهو يقدم في المقام الأول رؤية شاهد عيان معاصر ورحالة خبير، ولا جدل في أن ذلك يعطى أهمية خاصة لكتابته، على الرغم من نطاقه المحدود من خلال المزارات فقط، وعلم تقديم تصور سياسي واقتصادي واجتماعي في نطاق الرحلة، مثلما وجدناه لدى الرحالة ابن جبير على سبيل المثال.

مهما يكن من أمر، فإن الهروي يفيلنا في ثلاث نواحي، ونعني بها : الناحية السياسية والحرية، ثم السياحة العلاجية، وكذلك السياحة الدينية.

أما الناحية السياسية والحرية، فنجدها من خلال إشارة خاصة بمعركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، إذ أن الهروي عندما مر بمنطقة حطين ذكر أنه يقال لها أيضاً حطيم وقد أشار إلى أن فيها جرت المعركة المشهورة «وتم أسر ملوك الفرنج وتم فتح بيت المقدس، والساحل، والعواصم» (١٨).

ومن الواضح من خلال نصوص رحلة الهروي، في هذه الجزئية، المعنويات المرتفعة من خلال انتصار المسلمين، بعكس ما مجده لدى السمعاني عندما يمر بالمناطق الإسلامية الخاضعة للاحتلال الصليبي، حيث نجد لمسة الانكسار، والمرارة، من خلال نصوص المرحلة ذاتها.

ومن جهة أخرى، وجدناه عندما مر بعكا يذكر لنا أنه يرج عكا خلق كثير ثم

استشهادهم في المعارك والحروب المشهورة على عكا من عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م إلى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(١٩)، ويقرر ما نصه «لم تبطل الحروب والرباط ليلاً ونهاراً في هذه المدة»^(٢٠)، وهذه الرواية تفيد في توضيح حجم جهاد المسلمين خلال الحملة الصليبية الثالثة وأحداث حصار مدينة عكا الذي استمر عامين كاملين، وربما كان يقصد الهروي من روايته السابقة أن يشير إلى أولئك الأبطال المسلمين الذين مثلوا حامية عكا، وظلوا يدافعون عندها طوال تلك المرحلة الزمنية الطويلة، وقد قام الملك الإنجليزي ريتشارد الأول بقتل أفراد الحامية البالغ عددهم حوالي ٢٦٠٠ رجل في مذبحة كبيرة^(٢١)، ومن المحتمل أن جثث هؤلاء الأبطال كانت مدفونة في المقابر التي شاهدها الهروي في مرج عكا في أعقاب تلك المذبحة البشعة.

ولا مراء، في أن إشارة الهروي لها جانبها الكبير من الأهمية، لأنها تعكس شهادة تاريخية هامة دالة على التصميمات البشرية التي قدمها المسلمون من أجل الدفاع عن الإسلام وعن وجودهم في مواجهة واحدة من أكبر الحملات الصليبية التي قدمت إلى المنطقة العربية. وهي من ناحية أخرى تعكس، نوعية القيادة الإسلامية حينذاك ممثلة في السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وصحبه الذين قادوا معركة طويلة الأمد لمدة عامين يمكن أن توصف بمعركة عكا، لم تتوقف أحداثها ليلاً ونهاراً، على حد قول الهروي.

أما إشارته بخصوص السياحة العلاجية، فنجدتها متمثلة في طبرية، وهي منطقة كانت تكثر بها العيون المائية الحارة التي تتكفل بعلاج الأمراض، ولدينا وصف هام يقدمه الهروي، فيقرر أن حمام طبرية يعتبر من عجائب الدنيا، ويخص بالذكر موضعاً يسمى الحسينية^(٢٢) وتجد هناك إثني عشر عيناً كل عين متخصصة في علاج مرض من الأمراض، ويأتى للمرض مثل أصحاب العاهات والزمنى وغيرهم^(٢٣) إلى تلك العيون العلاجية من أجل الاستشفاء، ويلاحظ أن تلك المميزات العلاجية لمياه طبرية قد أدت إلى كثرة الوافدين على المنطقة، وبالطبع من الممكن افتراض أنهم لم يكونوا من عناصر

المسيحيين فقط بل والمسلمين واليهود كذلك من أجل العلاج، هذا بالإضافة إلى المزارات الدينية الموجودة أصلاً في طبرية.

وتجدر الإشارة إلى أن تلك الخاصية العلاجية لطبرية سوف تجدها محط اهتمام الرحالة المسلمين الذين وفدوا على بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وعلى مدى القرنين ٦، ٧هـ / ١٢، ١٣م. وبالنات نبع الحسينية الذي خصه بالذكر الهروي.

وتعكس رواية الهروي السابقة، ناحية هامة ألا وهي أن وسائل العلاج في ذلك العصر لم تكن فقط متصلة بالأدوية المفردة والأدوية المركبة - وفق اصطلاحات الأطباء المسلمين في العصور الوسطى - بل أنها امتدت لتشمل العيون والينابيع ذات التأثير العلاجي.

ومن الملاحظ أن تكرار تردد أمر الفعالية العلاجية لمثل تملك المياه من جانب الهروي وغيره من الرحالة المسلمين له دلالة من حيث أنه يؤكد استمرار فعاليتها من ناحية، وشهادة الرحالة الوافدين على بلاد الشام وأتوا من خارجه، شهادتهم لتلك المياه بمقدرتها العلاجية بإذن الله تبارك وتعالى.

أما إذا ما اتجهنا إلى المزارات التي أوردتها في كتابه نجد أن منها مزارات إسلامية، وأخرى مسيحية، ويهودية، ويلاحظ أن أغلب ما ذكره الهروي يتصل بالمزارات الإسلامية، وأقلها ما كان خاصاً بالمزارات المسيحية، واليهودية.

والجدير بالذكر، أن الرحالة اليهود والمسيحيين كتبوا مؤلفات خاصة عن مزاراتهم المقدسة، ومن أمثلة أولئك الرحالة الذين زاروا فلسطين على نحو خاص خلال نفس القرن الذي زار فيه الهروي بلاد الشام، نذكر سايلوف Saewulf الذي قام برحلته ما بين عامي ١١٠٢-١١٠٣م، ثم دانيال Daniel (١١٠٦-١١٧٠م)، وإيو فروزين Euphrosine (١١٦٢-١١٧٢م)، بنيامين التطيلي Benjamin of Tudelo

(١١٦٢-١١٧٠م)، ويشودريش Theaderich (١١٧١-١١٧٣م)، ويتاحيا أوف راتسبون Petachia of Ratisbonn (١١٧٤-١١٨٧م)، ثم يوحنا قوكاس John Phocas (١١٨٥م)^(٢٤)، ومن الملاحظ أن كافة أولئك الرحالة سواء المسيحيين منهم أو اليهود تناولوا في كافة رحلاتهم المزارات التي على الحاج اليهودى أو للمسيحي أن يقوم بزياراتها.

ومعنى هذا، أن هناك تشابهاً في أشكال الكتابة الخاصة بالرحلات في ذلك العصر سواء لدى الجانب الإسلامى، أو الجانب المسيحى واليهودى، من خلال مؤلفات الرحالة بصفة عامة، ومن خلال تناول المزارات المقدسة لدى أتباع كل دين من الأديان السماوية. ويتضح ذلك بجلاء من خلال مقارنة ما أورده الهروى في كتابه وكذلك ما ورد لدى مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين خلال تلك المرحلة.

وبالنسبة للمزارات الإسلامية التي أوردها الهروى نجد أنه أوضح أمر المسجد الأقصى^(٢٥)، وفيه الصخرة وقد فصل في الإشارة إليه بالمقارنة بالمزارات الدينية الأخرى، ومن الطبيعى ملاحظة أن ذلك المسجد احتل مكانة خاصة لدى المسلمين خاصة في عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين ونعنى به عصر الحروب الصليبية، تشهد على ذلك كتب الفضائل التي تناولت فضائل المسجد الأقصى خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر للميلادى وحتى فيما بعد ذلك القرن^(٢٦).

ومن جهة أخرى، أشار الهروى إلى أنه في حلب يوجد مشهد الإمام على بن أبى طالب^(٢٧) - كرم الله وجهه - كما أن بها قبر عبدالله الأنصارى^(٢٨)، وفي حمص ذكر وجود مشهد للإمام على أيضاً^(٢٩)، كما أن بها دار خالد بن الوليد^(٣٠) رضى الله عنه.

ومن الملاحظ أن المناطق التي ذكر الهروى وجود مشاهد فيها للإمام على كانت بصفة عامة، وعلى مدى عصر الحروب الصليبية، من المناطق التي شهدت تركيزاً للوجود

الشيعة بها. مع وجود الكيانات السنية بالطبع إلى جوارها وبكثافة عديدة فاقها بمراحل.

أضف إلى ذلك، أنه ذكر وجود قبر أبي عبيدة بن الجراح في طبرية (٣١)، كما أنه أشار إلى وجود قبور متعددة للصالحين والتابعين في وادي جهنم شرق بيت المقدس (٣٢).

أما المزارات المقدمة بالنسبة للمسيحيين، فإنه يوضحها في صورة كنيسة القيامة (٣٣)، وقد عبر عن مكائنها السامية في نفوسهم من خلال قوله «وأما زيارات للملة المسيحية فأعظمها كنيسة القيامة» (٣٤)، كما أنه أشار إلى كنائس أخرى أقل مكانة مثل كنيسة السليق وكنيسة صهيون (٣٥).

وقد ذكر إشارات موجزة عن كل كنيسة، مع ملاحظة أن مؤلفات الرحالة الأوروبيين السالفي الذكر تفيض وبطبيعة الحال بتناول تلك الكنائس ومكائنها الدينية لدى المسيحيين كما أن الإشارات التي قدمها من قبل الإدريسي في هذا الصدد تعد أكثر تفصيلاً إذا ما قورنت بما قلّمه الهروري.

أما المزارات اليهودية فنجد أنه يوضح أنه في نابلس يوجد الجبل الذي يعتقد فيه اليهود ويسمونه كرهزم وقد أشار أنه قد ورد ذكره في التوراة (٣٦). وبصفة عامة فإن اليهود لهم اعتقاد كبير فيه لتصويرهم أن الذبيح كان عليه وعندهم أن الذبيح إسحاق، كما أنه أشار إلى أن قبر يوشع بن نون، فتى موسى عليه السلام، يوجد قبل معرة النعمان في جانب سورها (٣٧).

وتوجد ناحية هامة أخرى، وهي مدى اعتقاد الهروري في صحة أماكن تلك المزارات التي يعتقد فيها القوم، والواقع أن الهروري صحح في كتابه بعض الاعتقادات، وهذه ميزة كبرى تذكر له في ذلك العصر الذي شهد الاعتقاد في الأولياء وفي

كراماتهم بصورة كبيرة، وهو في ذلك يتشابه مع موقف جغرافى شامى معاصر له ونعنى به ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).

وعلى سبيل المثال، نجد أنه يصحح الاعتقاد بشأن وجود قبر يوشع بن نون في معرة النعمان، بأن ذكر أن مكانه في أرض نابلس^(٣٨)، كذلك أشار إلى أن الربوة الموجودة في جبل قاسيون المطل على دمشق، والذي يعتقد الكثيرون أنها الربوة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَأَوْبَيْنَاهَا إِلَى رِبْوَةٍ ذات قرار ومعين﴾^(٣٩)، ليست هي الربوة المذكورة في القرآن الكريم، لأن عيسى عليه السلام ما دخل دمشق، ولا وطئ الشام، وبهذا يصحح اعتقاد عدد من الذين كتبوا في ذلك العصر عن فضائل دمشق وعلى رأسهم مؤرخها الكبير ابن عساكر مؤلف كتاب تاريخ مدينة دمشق.

وبالإضافة إلى الزارات السابقة لأهل الأديان السماوية الثلاثة، نجد أن الهروى قد قدم إشارات محدودة بالمقارنة بغيره من الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك أنه بالنسبة للساحل الشامى، لا يهتم به إلا من خلال الزارات، وفي تقديرى أن هذا، يتفق مع ما هو متوقع من عنوان كتابه أصلاً، وينبغي ألا نتوقع منه أكثر من ذلك، ونجد أنه بالنسبة لعسقلان مثلاً يقرر أن بجبانته خلق من الأولياء والتابعين، وكذلك بغزة، وعكا، وصور، وصيدا، وجميع بلاد الساحل^(٤٠)، ثم أنه أشار إشارة محدودة إلى فتحها عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٤١).

أما بالنسبة للخريطة العقائدية لبلاد الشام، فنجد أنه لا يشير بالتفصيل إلى توزيعات الأديان بها، باستثناء ما ندر، ومن أمثلة ذلك، ذكره وجود السامرة في نابلس وأنهم يعتقدون في عين تحت كهف في جبل هناك^(٤٢). وهو أمر رده الجغرافيون والرحالة للمسلمون الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر.

أما إذا بحثنا عن الجوانب الأخرى الاقتصادية، أو الاجتماعية، في رحلة الهروى وسياحته لبلاد الشام خلال تلك المرحلة، فلا نجد فيها ما يستحق الذكر

نظراً لاهتمامه الأصلي بالمزارات الدينية في بلاد الشام وعدم اعطائه نفس الأهمية للجوانب الأخرى.

وهكذا، قدم لنا الهروي في سياحته جوانب متعددة عن أوضاع بلاد الشام في ذلك العصر، ولاسيما من خلال ما يتصل بالمعتقد الديني على اعتبار أن ما ألفه يمكن أن يتدرج تحت قائمة السياحة الدينية، ولا مرء، في أنه يحتل مكانته الهامة بين الرحالة للمسلمين الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة السائح الهروي :

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح-٣، تحقيق إحسان عباس، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح-٥، ط. بيروت ب-١، ص٤٩؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، ص٨٥. سوريا في الرحلات الإسلامية، للمقتطف م (١٠٢)، ح (٢)، ط. القاهرة ١٩٤٣م، ص١٧٣؛ صلاح الدين للنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص١٥٥؛ محمد بهجة الأكرى، الجغرافية عند المسلمين والشريف الإدريسي، مجلة الجمع العلمي العراقي، ح (٢)، عام ١٩٥٨م، ص٥٩؛ زكي حسن، الرحالة للمسلمون في العصور الوسطى، ص٨٨-٨٩؛ صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، ص٢٥٨؛ عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٩٠؛ علي عبدالله الدقاع، رواد علم الجغرافية، ص١٦٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص٢٨٤-٢٨٥؛ زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، ص٥٣٤؛ جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م ٢/ ح-٣، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٩١؛ ماهر حمادة، للمصادر العربية والمعربة، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٩٠.

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, T. I, Leiden 1937, p. 620-630; Suppl., T. I, . 879.

(٢) ابن خلكان، للمصدر السابق، ح-٣، ص٣٤٦.

(٣) نفسه، نفس المصدر، ح-٣، ص٣٤٧.

(٤) زكي حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٥) ابن خلكان، للمصدر السابق، ح-٣، ص٣٤٦؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص٨٩.

(٦) من المحتمل أن هذا الكتاب - كما يرى أحمد رمضان - قد ألفه الهروي في عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، أي قبل أن تتركه للنية في حلب في عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بحوالى عشر سنوات تقريباً، ويذكر أن هناك نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية، بعنوان رحلة أبي الحسن بن أبي بكر بن الهروي للوصل إلى تحت كتابتها في العام المذكور. أنظر رأيه في : الرحلة والرحالة للمسلمون، ص٢٨٥.

وتجدر الإشارة إلى أن تشارلز شيفر Charles Scheffer، كان قد نشر مقتطفات من رحلة الهروي، في مجلد أرشيف الشرق اللاتيني، العدد الأول، الصادر في باريس عام ١٨٨١ م.

A.O.L., T: I, Année 1881, pp. 597-609.

لم جاءت من بعد ذلك مجهولات دومنيك سورجيل ليتم تحقيق الرحلة، ويتم إصدارها من جانب المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بدمشق عام ١٩٥٣ م.

(٧) تم تحقيق التذكرة الهروية في الحيل الحربية ونشرت في مجلة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بدمشق عدد (١٧) عام ١٩٦١ م.

B.E.O., T. XVII Année 1961 - 1962.

(٨) ابن خلكان، للمصدر السابق، ج٣، ص ٣٤٧، زكي حسن، المرجع السابق، ص ٥٠، علي عبدالله الدقاع، المرجع السابق، ص ١٧٠، جورجى زيدان، المرجع السابق، م ٢، ج٣، ص ٩١.

(٩) زكى حسن، المرجع السابق، ص ٨٥.

(١٠) عن ذلك الامبراطور أنظر :

Cinnamus, Epistome Historiorum, in C.S.H.P., Bonn 1836; Witting, Monnaies pyzantines, Paris 1975, p. 181.

محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين، ط. الاسكندرية ١٩٨٢ م، على عودة القامدى، معركة برباكيفالون ١٩٧٤ م، مجلة كلية الشريعة، جامعة أم القرى، العدد (٢)، عام ١٤٠٤ هـ، أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج٢، ط. بيروت ١٩٥٦ م، ص ١٤٤-١٦٨، حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٨٣ م، ص ٢١٧-٢٣٢، تمارا تالبوت رايس، السلاجقة، ت. لطفى الخورى والدقوقي، ط. بغداد ١٩٦٨ م، ص ٧٢، زبيدة عطا، الترك في المصور الوسطى، ط. القاهرة ب-ت، ص ٩٩-١٠٠.

(١١) زكى حسن، المرجع السابق، ص ٨٩، أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(١٢) السهروردى الحطبي للمقتول، اختلف المؤرخون في اسمه، فقال بعضهم أنه أحمد، وقيل كتيبة اسمه وهو أبو الفتح وقيل كذلك ان اسمه عمر أو يحيى بن بخش، ولقب بالمؤيد بالملكوت، وقد ولد في سهرورد وهي بلدة صغيرة في العراق العجمي وذلك حوالي عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م، ودرس الفلسفة وأصول الفقه، وكان يرى رأى المعتزلة الذين لا يرون الصفات شيئا خارجا عن الذات. أما ملهه في التصوف فملهب الاشرقيين الذين يعتقدون أن المعرفة تنال

باشراق منه تعالى على قلوب مرابطيه ويلاحظ أن السهروردي قد ألف العديد من المؤلفات مثل التنظيمات في أصول الفقه، والألواح العمادية، وكتاب التلويحات، وكتاب هياكل النور، وكتاب اللوحات، وكتاب المعارج، وكتاب حكمة الإشراق، وكتاب للمطارحات، ورسالة الغربة الغريبة، وتجدر الإشارة إلى أن السهروردي قد اتجه إلى مدينة حلب حيث توطدت الصداقة بينه وبين الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، بيد أن الفقهاء أفتوا بكفره، ثم إعدامه بأمر من السلطان الأيوبي، وذلك في عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م. عن السهروردي الحلي المقتول أنظر :

ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب-ت، ص ٦٤١-٦٤٦، ابن تقي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٩، ١١٤، ابن العماد الحنبلي، شرات الذهب، ج ١، ص ٤٩٠، مجموعة من الباحثين، شهاب الدين السهروردي في ذكره، ط. القاهرة ١٩٧٠م، محمد مؤنس أحمد عوض، التنظيمات الدينية، ص ١٥٢-١٥٧، أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٨٩-٢٩٥، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٢٠٨، محمد أديب الحصيني، منتخب التاريخ للمشرق، ج ٢، ط. دمشق ١٩٢٨م، ص ٤٧٥، علي أصغر حلي، تاريخ فلاسفة إيران أواخر اسلام تاملروز، شهران ١٩٥١م، ص ٤٩٨، قاسم فتحي، تاريخ تصوف در اسلام، جله قوم، ط. شهران، ص ٦٧٠، عبدالله رازي، تاريخ كامل إيران، ص ٢٥٥.

(١٣) ابن خلكان، للمصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٧.

(١٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٣٤٧، زكي حسن، المرجع السابق، ص ٨٩، نفيس أحمد، للمرجع السابق، ص ١٠٣، أحمد رمضان، المرجع السابق، ص ٢٨٤، علي عبدالله الدقاع، للمرجع السابق، ص ١٦٩.

(١٥) عن ذلك الملك الصليبي أنظر :

Ambrose, The Crusade of Richard of Heart of Lion, Trans. by Hubert, New York 1943; Godfrey of Vinsauf, History of the expedition of Richard coeur de Lion, in Chronicles of the crusades, London 1902.

(١٦) صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي، سيرة ومسيرة، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٥٨.

(١٧) ابن خلكان، للمصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٦.

(١٨) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جاتين سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص ٢٠.

(١٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣.

(٢٠) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.

(٢١) عن للنهضة التي أقامها ريتشارد الأول لحماية عكا للسلمة، أنظر للمصادر والمراجع التالية :

ابن شداد، النواذر السلطانية، ص ١٧٤، ابن الأثير، الكامل، ح ١٢، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٦٧؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص ٥٧٨؛ أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين، ح ٢، ط. القاهرة، ص ١٨٩؛ ابن الوردي، تكملة المختصر في أخبار البشر، ح ٢، ط. القاهرة ١٢٨٥هـ، ص ١٠٣؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ح ٥، ط. القاهرة ١٢٨٤هـ، ص ٣٢٦؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٤/ ح ١، تحقيق حسن الشجاع، ط. بغداد ١٩٦٩م، ص ٢٧.

Jacques de Vitry, A. History of Jerusalem, p. 113; Roger of Wondover, Flowers of History, Trans. From The Latin by Gries, Vol. II, London 1849, p. 105.

أحمد عبدالجواد الدومي، صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله، ط. صيدا بيت، ص ١٢٤؛ جنتياف شوليل، صلاح الدين بطل الإسلام، ت. جورج أبي صالح، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص ١٠٣؛ وفاء محمد علي، دراسات في تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٤١٠هـ/ ص ٧٢؛ سيد الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٧٤؛ أنظر سعداوي، التاريخ العربي للمصري في عهد صلاح الدين، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص ٢٨٠. تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص ٩٢؛ محمد مؤنس أحمد عوض، نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين في دراسة تاريخ الحروب الصليبية، مجلة بيار، النادي الأدبي بأبها، العدد (١١)، رجب ١٤١٤هـ، ص ١٢٧؛ قلري قلمجي، صلاح الدين الأيوبي، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص ٣٩٥.

Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages, London 1898, p. 210; Lamb, The Crusades, The Flame of Islam, London 1921, p. 129; Oman, A History of The art of war in the middle ages, Vol. II, Cambridge 1924, p. 305; Duggan, The story of the Crusades, p. 187.

(٢٢) الهرري للمصدر السابق، ص ٢٠-٢١.

(٢٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢١.

(٢٤) عن كافة أولئك الرحالة أنظر :

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية

(١٠٩٩-١١٨٧م)، ص ٤٢، ص ٣٣٨.

(٢٥) الهروى، المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦.

(٢٦) عن ذلك أنظر القائمة التالية :

ابن صبرى (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) له كتاب فضائل بيت المقدس، ابن الحزرى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، له كتاب فضائل القدس، وقد حققه جبرائيل سليمان جيور، ط. بيروت ١٩٨٠م، وهاء الدين القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م) له الجامع المستقصى فى فضائل للمسجد الأقصى، القاضى أمين الدين أحمد بن محمد الشافعى (ت ٦١٠هـ / ١٢١٤م) له الأئس فى فضائل القدس. عبدالرحمن بن على بن اسحاق (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٩م) له مفتاح المقاصد ومصباح المراصد فى زيارة بيت المقدس، أبو سعد عبدالله بن عساكر (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م) له فضل بيت المقدس، شمس الدين الكنجى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٦م)، له فضائل بيت المقدس، وفضل الصلاة فيها، أبو اسحاق للكناسى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام، مؤلف مجهول، فضائل الشام، وفضائل مدنها، وبيت المقدس، وعسقلان، وغزة، والرملة، وأريحا، ونابلس، وبيسان، ودمشق، وحمص... إلخ، الفزارى (ت ٧٢٩هـ / ١٢٣٣م) كتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، وقد حققه مارتن نوث Martin Noth ونشر فى J.P.O.S., Vol. XV, 1939.

عن تلك المؤلفات التى تناولت فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس أنظر :

الواسطى المقدس، فضائل البيت المقدس، تحقيق اسحاق حصون، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، الجامعة العبرية بالقدس، ط. القدس ١٩٧٨م، ص ١٢٠، جميل العسلى، مخطوطات فضائل بيت المقدس، درة وبيلوغرافيا، ط. عمان ١٩٨٤م، ص ٤١-٦١، محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس فى مخطوطات عربية قديمة، دراسة تحليلية، ونصوص مختارة محققة، للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ط. الكويت ١٩٨٥م، ص ٢٠٨-٥٢٩، أحمد رمضان، الأقصى المبارك فى ذاكرة العلماء والمؤرخين، مجلة المنهل، العدد (٥٠٨)، م (٥٥)، الربيعان ١٤١٤هـ / أغسطس، سبتمبر ١٩٩٣م، ص ٦٨-٧٣، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ج٢، ت. السيد يعقوب بكر، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٧٣-٧٥، رمضان ششن، نواذر المخطوطات العربية فى مكتبات تركيا، المجلد الثانى، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ٤٤٨، عبدالجليل حسن عبلاهدى، الحركة الفكرية فى ظل للمسجد الأقصى فى العصرين الأيوبي والملوكى، ط. عمان ١٩٨٠م، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢٧) الهروى، المصدر السابق، ص ٤.

- (٢٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٢٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٨.
- (٣٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ١٩.
- (٣٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨.
- (٣٣) نفسه، نفس المصدر، والصفحة.
- (٣٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧.
- (٣٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤.
- (٣٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٧. وعن يوشع بن نون أنظر : الفصل الرابع، الباب الأول، حاشية (٢٥).
- (٣٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٣٩) سورة ، رقم () آية ().
- (٤٠) الهروي، للمصدر السابق، ص ١١.
- (٤١) نفسه، نفس المصدر، ص ٣٢.
- (٤٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤.

٤ - ابن جبير

(ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)

يتصدى هذا الفصل بالدراسة لأحد الرحالة الأندلسيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ونعني به ابن جبير^(١) (ت ٦١٦ أو ٦١٧هـ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠م)، وقد ألف رحلة^(٢) هامة تناول فيها العديد من الجوانب السياسية، والحرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعقائدية، في حياة بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. وفي بعض الأحيان نجد يتفرد بإيراد إشارات لا نجد لها نظيراً في رحلات الرحالة للمسلمين الذين زاروا بلاد الشام في ذلك العصر، ومن ثم تحتل رحلته مكانة خاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات خاصة بالرحلة الإسلامية إلى هناك.

وابن جبير؛ هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني^(٣) الأندلسي، وأسرته في الأصل من مدينة شاطبة، وقد ولد في بلنسية. وذلك في عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، وقد اهتم والده بتربيته؛ فدرس العلوم الدينية واللغوية، وظهرت موهبته الأدبية فقرض الشعر، ولعب اسمه، ومن ثم اتخذه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن؛ رفيقاً له وجعله أحد كتّاب ديوانه^(٤).

ويذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر، وكافأه على ذلك بأن أعطاه سبعة كؤوس مليحة بالذئاب، وقد عقد ابن جبير العزم على أن يقوم بالحج إلى بيت الله الحرام من أجل التكفير عن ذلك الإثم الكبير، ومن هنا نبتت في ذهنه فكرة الارتحال إلى الشرق^(٥).

وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق. إذ أنه غادر غرناطة في عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وركب البحر في سفينة وقصد الاسكندرية وتنقل في أنحاء مصر، ثم اتجه من عيذاب إلى الحجاز حيث قلم بتأدية فريضة الحج، ومكث في الأرض المقدسة مدة ستة أشهر ثم اتجه إلى العراق، ثم إلى بلاد الشام حيث كان الصليبيون قد أخضعوا بعض المناطق هناك، ثم ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده؛ فوصل إلى هناك في عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م^(٦).

ثم قام برحلة ثانية؛ إذ أنه قد علم بانتصار المسلمين على الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، فقرر الذهاب مرة أخرى إلى الشرق من أجل أن يشاهد المناطق الإسلامية بعد أن تم تحريرها من قبضة الغزاة الصليبيين، فارتحل إلى هناك عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م، وعاد إلى بلاده في عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(٧).

أما الرحلة الثالثة، فيختلف الباحثون في شأن دوافعها، فالبعض يرى أنه قد توفيت زوجته، وكان يحبها حباً شديداً، ولا أدل على ذلك من أنه نظم ديواناً من الشعر في رثائها وأراد أن يسرى عن نفسه، فلم يجد بداً من الارتحال، فرحل رحلته الثالثة^(٨) وذلك عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م، وأقام بمكة المكرمة فترة من الزمن ثم رجع إلى الاسكندرية، وأقام بها إلى أن أدركته منيته هناك.

بينما يرى البعض الآخر أنه لم يقم برحلته الثالثة من أجل حزنه على زوجته، وإنما من أجل حب البحث واكتساب المعرفة^(٩)، وفي تقديرى أن الدافعين معاً وجهها ذلك الرحالة إلى القيام بتلك الرحلة. فمن المتصور أنه قد أصابه الحزن الشديد لرحيل زوجته فأراد بتغيير المكان أن يجد راحته خاصة بالذهاب إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، بالإضافة إلى حبه للبحث واكتشاف عالم المحيط به.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير ترك لنا رحلته الهامة. وقد اختلف في عنوانها، إذ أن حاجي خليفة قد جعلها رحلة للكتاني^(١٠)، ويلاحظ أن المخطوط يبدأ

بعبارة «تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار»، كما أنه ينتهى بعبارة (١١) «كتاب اعتبار المناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، وقد تشكك المستشرق رايت Wright في عنوان الكتاب بالشكل الأخير، ولذا فقد فضل أن يكون العنوان هو «رحلة ابن جبير» (١٢).

وتجدر الإشارة إلى أن رحلة ابن جبير تلك هي تسجيل لرحلته الأولى، وقد كتبها على شكل مذكرات يومية يستلزم فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمس (دون أن يذكر السنة)، وعنى فيها بتسجيل الجوانب الدينية والعقائدية وكذلك الاجتماعية (١٣)، وامتاز أسلوبه بالحيوية للتدفقة وسهولة التعبير وسلاسته، مع ملاحظة أنه أحياناً يلجأ إلى الصنعة الأدبية ومن مظاهرها السجع وإن عالج به «بالكثير من المهارة دون مبالغة، وهناك من يقرر أن ذلك المصنف «رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأنطلسيين لتلك العصر» (١٤).

ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن كتابة ابن جبير عن الرحلات تتسم «بركاكة التعبير أحياناً»، وعدم ترابط الجمل، والأفكار أحياناً أخرى، وأنها تكشف العجز في بنيته، وتكوين وتركيب الصور، والانطباعات التي يمكن أن يستخلصها القارئ من كتابات ابن جبير (١٥).

والواقع أن ذلك الرأي لا ينطبق على الواقع في شيء، لأن رحلة ابن جبير تتسم بالفعل بسلاسة التعبير ومرونته، ولا يستشعر المرء فيها بتلك الأوصاف التي يذكرها الباحث السابق، مع ملاحظة أن الباحثين في مجال الجغرافيا والرحلات الإسلامية في العصور الوسطى قد اتفقوا على تلك الميزات الخاصة لرحلة ابن جبير (١٦)، وكان ذلك بالطبع من عوامل حصولها على الشهرة الفاتكة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات الرحالة المسلمين في تلك العصور.

وهناك ناحية هامة جدية بالملاحظة، وهي بشأن المصادر التي اعتمد عليها ابن جبير في تأليف رحلته خاصة ما اتصل ببلاد الشام، ويلاحظ أنه اعتمد في المقام الأول على المشاهدة والملاحظة، وكانت لديه قدرة فذة على ملاحظة كل ما تقع عليه عينيه وإبراده خاصة ما يجده جديداً أو غير مألوف، ومن المهم أن ينقله لقارئ رحلته، وفي هذا المجال نذكر أنه كان يسأل المعاصرين عما يعنّ له من أمور تستعصى عليه في الفهم، بالإضافة إلى ذلك، تجده أحياناً يورد بعض الإشارات لكتب قرأها لاسيما خلال زيارته لحاضرة الشام الكبرى، دمشق (١٧).

ويلاحظ أن مقدار للمشاهدة والملاحظة تتفوق بشكل واضح في رحلته لاسيما عن بلاد الشام، وهو لا ينقل عن رحلة آخرين، أو يقدم نصوصاً للسابقين وإنما يقدم رؤيته الشخصية الخاصة به، ومن هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته.

زد على ذلك أنه دخل مناطق الصليبيين، وتناول أوضاع المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، وتحدث عن العلاقات السلمية بين الجانبين، وكل ذلك من خلال رؤية نافذة، وملاحظة واعية، وبأسلوب أدبي رفيع للمستوى على نحو ندرك معه أن الأدب والجغرافيا والتاريخ، اجتمعوا سوياً، بتوافق فذ في رحلة ذلك الرحالة الأندلسي المتمكن من أدوات الرحالة بجندارة.

وتجدر الإشارة إلى أن القسم الخاص ببلاد الشام في رحلة ذلك الرحالة الأندلسي يعد قسماً كبيراً إذا ما قورن بالأجزاء الخاصة بالأقاليم الأخرى في نفس الرحلة. ويقدم في روايته عنها التفاصيل الثرية المسهبة التي يجد فيها الباحث ذاته عندما يطالعها. ويركز على جوانب لا تهتم بها كتب الحوليات التي تعنى أول ما تعنى بالجانب السياسي والحربي دون أن تلقى الضوء على الزوايا الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

وابن جبير رجل ذو عاطفة دينية جياشة، ومشاعره الإسلامية واضحة بصورة لا تنكر، وهو يختلف عن الإدريسي الذي لا نجد في كتابته تلك الزاوية إلا نادراً نظراً

لارتباطاته السلطوية مع روجر الثاني ملك صقلية (١١٨٠). ومن ثم نجد تعبيراته صريحة لاسيما حيال عدائه للصليبيين، في عصر استقر فيه العداء بين عالمي الإسلام، والمسيحية.

من جهة أخرى، فإن ذلك الرحالة، عندما تحلل نصوص رحلته، لاستخلاص دلالاتها النفسية، نجد أنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته كسائح ورحالة مسلم لاسيما عندما يدخل مناطق الصليبيين، حيث يتغير النص بعد أن كان من خلال معنويات مرتفعة عندما كان الرحالة يمر بمناطق المسلمين، ونجد أن النص ذاته يتحول إلى مشاعر مضطربة أخرى، ومريرة عندما يستشعر أنه غريب في مناطق كانت من قبل من أملاك المسلمين وصارت ضمن نطاق أعدائهم وضاعت من الأولين من جراء الانقسام والتشرفم والتهاون، وقد ساعده على ذلك التوضيح أن لا يوجز عبارته على نحو ما وجدناه للإدريسي بل إنه يفصلها، ويقدم تصورات العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة دون موارد على نحو أعلن على إراء رحلته.

ومن الممكن أن أقرر أن البعد السيكولوجي في رحلة ابن جبير في بلاد الشام كان من أهم عوامل الحيوية المتدفقة في سطورها وبالتالي تميزها.

والجدير بالذكر، أن إشارات ابن جبير عن بلاد الشام تجدها تحوي كافة الجوانب المتعلقة والمتصلة بتلك البلاد، حتى نكاد نعتقد أنه لم يترك شيئا جديرا بأن يتناوله في رحلته ولم يذكره. وفي تقديري أن اكتمال بناء رحلته يعكس أنه من قبل أن يخرج ويرتحل اطلع على مؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، وعلى مدى قرون عديدة سابقة على القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن ثم حصل على خبرتهم التعبيرية، لأن النص ذاته يعكس خبرة كبيرة ليس من السهل أن تجدها لدى رحالة لأول مرة يكتب رحلة، وتعليل ذلك أنه تلقى علومه المتعددة منذ حلقته سنه، وهكذا من الممكن توقع مطالعته على العديد من تلك المؤلفات قبل أن يقوم بمهمته في كتابة رحلته.

مهما يكن من أمر، فإن ابن جبير تناول في رحلته العديد من الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء في المناطق الصليبية أو الإسلامية، ومن ذلك تعرضه للساحل الشامي، والجوانب الاقتصادية المتعددة، ثم دور عناصر المغاربة في حياة بلاد الشام، والخريطة الملحمة لتلك البلاد أو المزارات الدينية، سواء للمسلمين أو المسيحيين، ثم القلاع، والحصون، أو العمارة الحربية في ذلك العصر.

وفيما يتصل بالساحل الشامي، نجد أن ذلك الرحالة قدم تناولاً هاماً لعدد من المدن الساحلية وبتفاصيل هامة ومن ثم لم تقض على رؤيته ظاهرة الاختصار التي وجدناها عند من سبقه من الجغرافيين لاسيما الإدريسي، وهو عندما تعرض لعكا قدم وصفاً يفيض بالحيوية المتدفقة بين كلماته، وقد أوضح أنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام» (١٩) أي أنها بمثابة المركز الصليبي في بلاد الشام، ومن المعروف أنها كانت بمثابة القلب التجاري لذلك الكتاب، وأشار إلى أنها مشبهة في عظمتها بالقسطنطينية (٢٠)، وتتصور أن ذلك الوصف الأخير يحوى مبالغة كبيرة وغير منطقية، خاصة إذا ما علمنا أن ابن جبير لم يشاهد القسطنطينية ذاتها، ومع ذلك فإن مجرد مثل تلك العبارة تعكس ضخامة شأن تلك المدينة الساحلية الشامية ونعني بها عكا، خاصة أنها كانت أشبه شيء بمدينة عالمية يلتقى فيها التجار من كافة الأقطار. وقد قدم لنا وصفاً للكثافة السكانية المتزايدة بها فأشار إلى أن شوارعها «تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطن الأقدام» (٢١) وفي هذا التعبير الأدبي، التصوير الحقيقي للكثافة السكانية في تلك المدينة التي التقى فيها التجار من كافة أنحاء العالم للعمور حينذاك.

ويلاحظ أن ذلك الرحالة، قد أدرك الدور الصليبي الخطر في تغيير هوية المنطقة وتحويلها عن الإسلام، من خلال البعد التصيري، إذ أنه بعد أن أشار إلى خضوع عكا لسيطرة الصليبيين في «العشر الأول من السنة السادسة» (٢٢)، ومن المقرر بالطبع أنها سقطت في قبضتهم عام ٤٩٨هـ / ١١٠٤م، نجده يشرح حال تلك المدينة فيذكر أن

مساجدها تحولت وصارت كنائس، وصوامعها صارت محل أحد النواقيس (٢٣)، وفي مثل ذلك التعبير تجده يكشف بجلاء عن دور الصليبيين فبتغيير هوية المنطقة الإسلامية ومحاولة تنصيرها من خلال القضاء على الدور الهام لأماكن العبادة الإسلامية في صورة المساجد، بل وصل الأمر أن صارت هناك بقعة صغيرة في مسجد عكا الجامع يجتمع فيه الغرباء من أجل إقامة الصلاة. ويمكن وصف ابن جبير بأنه شاهد عيان معاصر على تلك الحقيقة ألا وهي السياسة التنصيرية التي أراد للصليبيون تنفيذها في منطقة الشرق الأدنى من أجل توسيع رقعة عالم المسيحية على حساب الإسلام والمسلمين.

أما مدينة صور فإن ابن جبير يقدم لنا أكبر وصف وصل إلينا من ذلك العصر عن حصانة تلك المدينة الواقعة على الساحل اللبناني، وتناول تلك المناعة من جهة البر وكذلك من ناحية البحر، وتعرض للسلسلة الكبيرة التي تعوق دخول السفن الغير مرغوب فيها، ولا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، كما تناول الحراس الذين يراقبون الدخول والخروج إلى ومن المدينة (٢٤).

زد على ذلك أنه لا يورد مدن الساحل الشامي فقط، بل إنه يعقد المقارنة بينها على نحو عمق رؤيته لها، ومن أمثلة ذلك أنه عقد مقارنة بين صور وعكا، ويبدو أن للمدينة الأولى قد كانت أقل في إشعاره بالاغتراب، فامتدحها إذا ما قورنت بعكا، إذ أشار إلى أنها أنظف من الأخيرة، ووجه أهلها ألين في طبائعهم، ويميلون إلى الغرباء أكثر من أهل عكا، أما أوضاع المسلمين فيها فهي أقل سوءا منها (٢٥).

وتجدر الإشارة إلى أن عقد المقارنة بين المدن الشامية في ذلك العصر، لا تجده لدى الرحالة المسلمين بمثل تلك الصورة التي نجدها لدى ابن جبير، والصفة الغالبة أنهم كانوا يوردون إشارات عن كل مدينة دون عقد مثل تلك المقارنات، ومن ثم تظهر لنا أهمية ذلك الرحالة الأنطلسي.

ومن الملاحظ أن ابن جبير لا يشير في رحلته إلى كل المدن الساحلية التي كانت في قبضة الصليبيين، ولذا فمن الممكن أن نرى أن وصفه لمكا وصور يمكن أن يكون نموذجاً لتصوره عن تلك المدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام، والذي مثل نقطة الاتصال بين القارة الصليبية ووطنهم الأم في أوروبا التي تقام لهم الدعم المادي والمعنوي اللازم لاستمرار المشروع الصليبي.

من جهة أخرى، تكشف رحلة ابن جبير إلى بلاد الشام عن وجود ما يمكن وصفه «برؤية اقتصادية» لتلك الرحلة الأتلسي، وفي هذا الجمل أشار إشارات عامة لم تأت بصورة عرضية، وإنما جاءت مقصودة وثرية، ومفصلة، على نحو عكس تلك الرقعة وعمقها.

وفي هذا الجمل ذكر العديد مظاهر النشاط الاقتصادي في عدد من المدن الشامية خاصة تلك الواقعة تحت السيادة الإسلامية.

وعلى سبيل المثال، أشار إلى بعض الصناعات في مدينة دمشق، منها صناعة الثياب، وكذلك الصناعات النحاسية. وذكر موقعها بطول جدار الجامع الأمور القبلي^(٢٦)، يد أن إشارته للنشاط التجاري تعد ثرى وأكبر، من ذلك أنه تناول الأسواق في العديد من تلك المدن، ومن أمثلة ذلك تعرضه لأسواق تلك المدينة وذكر أنها من أحفل أسواق بلاد الشام وأحسنها انتظاماً^(٢٧)، أما حلب فهي عنده أسواقها واسعة وكبيرة، منتظمة ومستطيلة، وهي مسقرة بالخشب، بها جميع الصناعات المنجية^(٢٨)، أما حماة فقد تعرض لأسواقها وأشار إلى أن أسواق المدينة العليا فيها أفضل وأجمل من المدينة السفلى وهي تشمل كافة الصناعات وأنواع السلع التجارية. وتمتاز بأنها منتظمة ومرتبطة ومقسمة^(٢٩). وعند بزازة، تجده يقرر أنها ذات سوق تجتمع فيه المرافعة الشعرية، وكذلك أنواع التجارة الموجودة في المناطق الحضرية^(٣٠).

وفى رؤيته الاقتصادية لتلك الأسواق التجارية مجده يفرق بين المزدهر منها والكاسد، فإذا كان قد امتدح أسواق المدن السابقة، ووصفها بصفة عامة على أنها مزدهرة، إلا أنه بالنسبة لأسواق حمص أوضح أنها تعاني من الكساد، وذكر أنها بلا رونق^(٢١)، ويلاحظ أن ابن جبير لم يترك الأمور هكذا دون أن يشرح السبب، ويقدم التفسير الحقيقي لذلك الأمر، فأوضح أن وجود أحد المعادل الصليبية الكبرى ونعني به حصن الأكراد Crac des Chevaliers^(٢٢)، على بعد عشرة أميال من المدينة، وهجوم العناصر الصليبية فيه على تلك المدينة، كل ذلك جعلها مدينة حدودية ثغرية تعاني من الكساد التجارى.

إن وضع أسواق حمص بالصورة التى أوردها ذلك الرحالة وبنفس التعليل الهام الذى قدمه، يكشف لنا عن حقيقة هامة، وهى أن مناطق الاحتكاك الحربى بين المسلمين والصليبيين، عانت من عدم الاتعاش التجارى نظراً لاستمرارية لغة الحرب، والصلام بين الجانبين على نحو هدد التجارة.

ومن جهة أخرى، وجئنا ابن جبير يشير إلى ما يمكن وصفه بالمؤسسات التجارية، من ذلك تناوله للخانات والقياسر، وعلى ذلك نجد أنه أشار إلى أن حلب، بها ربح كبير، فيه ما لا يحصى من الخانات^(٢٣)، ويلاحظ أن تلك الأخيرة كانت بمثابة نزل للمسافرين وإن تطورت وظيفتها بحيث صارت بمثابة مكان لقضاء الأعمال التجارية^(٢٤).

ولم يكتف ذلك الرحالة بتتبع أمر الخانات فى دمشق، بل أنه تناوله كذلك فى حمص، إذ ذكر أن هناك خان السلطان الذى أقامه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقد وصفه بأنه فى غاية الحسن، وله باب حديد، ومزود بالماء الجارى، وفى وسطه سقاية تشبه الصهريج^(٢٥).

كذلك تعرض لإحدى المنشآت التجارية الأخرى الهامة وهى القياسر. وقد ورد أمرها فى دمشق، ومن المعروف أن القياسرات كانت بمثابة عمائر تجارية مسقوفة كانت

فى الغالب ذات دكاكين تختص بسلعة تجارية معينة وعدة أنواع من البضائع، وكانت أبوابها تغلق ليلاً، ويتم تعيين الحراس (٣٦) لها من أجل مواجهة عمليات السطو المحتملة.

وفى هذا الصدد أشار إلى قياسر دمشق، وذكر أنها مرتفعة مثبتة بأبواب حديدية الصنع، ومن إعجابه بها وصفها بأن أبوابها «كأبواب القصور» (٣٧).

نخلص مما سبق أن ابن جبير تناول مصطلحين من المصطلحات الاقتصادية التجارية الهامة تختص بالتسويق والتخزين، وكذلك الكساد التجارى. بل وأكثر من ذلك أنه تناول أمر الاحتكار التجارى.

وفى المجال الآخر، انفرد ابن جبير بإشارة هامة للغاية، تعكس طبيعة ذلك العصر، الذى شهد ما يمكن وصفه بالثورة التجارية، إذ أن الحروب الصليبية أدت إلى إثراء الصلات التجارية بين الشرق والغرب بصورة لم تكن موجودة بمثل ذلك الشكل من قبل، وكنتيجة طبيعية لذلك الوضع أخذت المصادر تشير إلى ضخامة حجم التعامل النقدى، فى مثل تلك العملات التجارية، وظهرت بصورة واضحة رؤوس الأموال الضخمة، وخاصة فى التعامل التجارى الدولى.

وهكذا، وجدنا ذلك الرحالة يشير إلى ظاهرة الاحتكار التجارى وتركزه فى عدد قليل للغاية من التجار الرأسماليين الكبار، ومن أمثلة ذلك ذكره لأمر تاجرهما نصر بن قوام وأبى الدر ياقوت مولى العطارى (٣٨)، وهما عنده على درجة كبيرة من الثراء، والدليل على ظاهرة الاحتكار تلك أنه ذكر صراحة «تجارتها كلها بهذا الساحل الإفريقى، ولا ذكر فيه لسواهما»، كما أن القوافل التجارية صادرة وواردة تحمل البضائع لحسابهما.

ومن الطبع أن توجد عوامل تساعد على نمو ذلك الوضع، وهى تتمثل فى الثراء

العريض وتوافر رأس المال الضخم للمشاركة به في العمليات التجارية الواسعة النطاق، والتي توصف بأنها تجارة دولية، بالإضافة إلى حماية سياسية عالية المستوى من أجل استمرار ذلك الوضع، وهذا ما اعترف به ابن جبير نفسه، إذ قرر أيضاً أمرين، أولهما، أن التاجرين المذكورين من «مياسر التجار وكبرائهم، وأضيائهم للتغمسين في الثراء» (٣٩)، أما ثانيهما فهو أن «قدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير» (٤٠).

والجدير بالذكر، أن الدليل على قوة ذلك الدور الذي قام به هذان التاجران، هو أن علاقتهما ليست قوية بالسلطة الأيوبية القائمة فقط، بل أنها أيضاً قوية بالقوى الصليبية، وهذا أمر منطقي تماماً أن تكون صلاتهما ممتازة، بطرفي النشاط التجاري من أجل توفير الأجواء المناسبة لاستمرارية ذلك الدور. وينتهي أن ذلك الدعم السلطوي جاء من خلال مصالح قائمة بين السلطة، وأولئك التجار الذين أفادوا خزائن الدولة بأموال طائلة من عوائد المكوس المفروضة.

ولا نزاع في أن ذلك الرحالة الأندلسي قد قلم بذلك تناول جانباً هاماً ما كانت تتمكن من أن توضحه مؤلفات الحوليات التي عنيت بالجوانب السياسية والحربية ونذر أن نذكر الجوانب الاقتصادية التجارية وهي جوانب بالغة الحيوية في ذلك العصر.

كذلك ألقى ابن جبير الضوء على جانب هام من جوانب العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام ونعني به التداخل في المعاملات التجارية، إذ أشار إلى أن قوافل المسلمين تدخل مناطق الصليبيين وقوافل الصليبيين تدخل مناطق المسلمين (٤١).

وبلاحظ أنه في تلك الناحية لم يستطع أن يقدم المبرر لذلك، على الرغم من استعمار العداء بين الطرفين، أما التعليل الحقيقي لذلك، فهو أن كلا من الطرفين المتحاربين لم يكن يستطيع الاستغناء عن الآخر، إذ أن الصليبيين بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على الساحل الشامي الممتد من السويدية أو سان سيمون St. Simoon مينا

أنطاكية إلى غزة جنوباً، وبعد عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، عاماً حاسماً في هذا المجال على اعتبار أن الصليبيين تمكنوا من إغلاق ذلك الساحل بالكامل في وجه المسلمين، وصارت القوى الإسلامية الشامية بمثابة قوى برية حبيسة لا تستطيع تصريف منتجاتها التجارية إلا عن طريق الصليبيين أنفسهم؛ المسيطرين على الساحل. كما أن الآخرين صاروا يقومون بدور الوسيط التجارى بين المسلمين والقوى التجارية الأوروبية، ولا ريب في أن القوى الصليبية قد استفادت من ذلك الأمر وغنمت مغام وفيرة من عوائد المكوس من جراء تجارة العبور.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن المسلمين لم يتمكنوا من حل مشكلة سيطرة الصليبيين على الساحل إلا بعد أن تمكنوا من هزيمتهم في معركة حطين الفاصلة عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، ثم اتجهوا إلى فتح الساحل وسيطرتهم على أجزاء هامة فيه ثم تغير ميزان القوى لصالحهم.

وهكذا، ألقت رواية ابن جبير في ذلك الصدد الضوء الساطع على أن العداء اتخذ شكلاً حربياً وسياسياً بين المسلمين والصليبيين، بيد أنه لم يتخذ البعد الاقتصادي، ولم يستطع أى من الطرفين أن يقطع الآخر تجارياً لأن ذلك كان يعنى الانتحار الذاتى له قبل القضاء على خصمه.

هكذا، ألقت رحلة ذلك الرحالة الأندلسى الأضواء على النشاط الاقتصادى، لاسيما التجارى في بلاد الشام ولم يكن تناوله قاصراً على القوى الإسلامية فقط، بل إنه امتد ليشمل القوى الصليبية وعلاقاتها بالمسلمين على المستوى التجارى. ولذا حتى لأحد الباحثين القول بأن «الحركة التجارية» قد أولاها ابن جبير أهمية كبيرة، وتفرد في وصفها وتحليلها على نحو مميز^(٤٢).

من جهة أخرى، قدم ابن جبير تناولاً هاماً لأوضاع المغاربة في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى. ويلاحظ أن ذلك الرحالة الأندلسى حرص

على أن يوضح أوضاع أولئك المغاربة الذين قدموا إلى بلاد الشام، وتركوا أوطانهم على الرغم من بعد الشقة.

وقد أوضح ابن جبير أنهم شاركوا في قضية الجهاد ضد الصليبيين مع إخوانهم في بلاد الشام، ووقع منهم عدد في أسر أعدائهم وقد حرص بعض أثرياء التجار المسلمين على أن يفكوا أسرهم (٤٣) وكذلك كان موقف القيادة الإسلامية متمثلة في الملك العادل نور الدين محمود (٤٤). ولا شك في أن اشتراكهم في المعارك ضد الصليبيين قد جر عليهم عداوتهم، ولذا وجدنا أن الصليبيين، قد عملوا على فرض ضريبة زائلة على المغاربة على نحو خاص عقاباً لهم على تلك المشاركة (٤٥) في تلك القضية المقدسة.

ومن المؤكد أن دور المغاربة في مساعدة إخوانهم في المشرق ضمن الغزو الصليبي يدل على أن قضية الجهاد ضد ذلك الغزو، لم تكن قضية مشرقية فقط بل ومغربية أيضاً (٤٦).

ونجد أن ابن جبير يتعرض لأوضاع المغاربة بصفة عامة في بلاد الشام، فيوضح عملهم في مجالات متعددة، والجرايات التي ترتبط بهم، ومن مظاهر عملهم في بلاد الشام أن يوجد أحد المغاربة حارساً على بستان أو أميناً على طاحونة، أو محفظ القرآن الكريم للأطفال (٤٧). وبصفة عامة فإن ذلك الرحالة يرغب المغاربة للقدوم إلى بلاد الشام لطلب العلم أو العمل، على اعتبار اتساع مجال الأرزاق هناك (٤٨).

ومن جهة أخرى، نجد أن ذلك الرحالة يمتلك قدرًا كبيراً من الموضوعية، ولا يتصف بالنظرة الأحادية، أو من زاوية واحدة، ولا أدل على ذلك من أنه لا يكيل الثناء والمدح لعناصر المغاربة بصفة مستمرة، بل إنه يذكر الإيجابيات والسلبيات، وذلك على الرغم من أنه قلم أصلاً من الغرب الإسلامي، فمن ذلك أنه أشار إلى أن أحد المغاربة - من ضعاف الإيمان - ارتد عن الإسلام، واتجه إلى اعتناق المسيحية، وقد ذكر أنه من يوتة من أعمال بجاية ويحث ذلك الرحالة عن تعليل ذلك، فعرف أنه كان أسيراً

وتم اقتلانه على يد أحد أشرار تجار المسلمين، ثم ذهب إلى عكا، في إحدى القوافل التجارية، وقد صاحب الصليبيين، وتخلق بأخلاقهم، ووصل به الأمر أن ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية (٤٩).

فتجد رواية ابن جبير السابقة تاريخياً أنها وصلت إلينا من عصر شغل فيه المؤرخون المعاصرون بتسجيل المعارك الحربية، والتصارعات السياسية، عن ذكر مثل تلك الحوادث، ومع ذلك فهناك عدة دلالات هامة ينبغي أن نلاحظها من خلال رواية ابن جبير السابقة.

أولاً : أن تلك الحادثة ذات طابع فردى بحت، وقد خلت رحلة ذلك الرحالة من أية إشارة أخرى للتنصير، الفردى أو الجماعى على نحو يوضح أنها كانت أشبه شئ بالحادثة الاستثنائية المتفردة التى لم يورد ذلك الرحالة تكراراً لها.

ثانياً : من الضرورة بمكان ملاحظة أن الحادثة السابقة ليست استثناءً عديداً فقط، بل أنها أيضاً تمثل استثناءً تاريخياً بالنسبة لدور المغاربة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية الذين حملوا لواء الجهاد، وشاركوا إخوانهم المشاركة فى جهاد أعداء الإسلام من الصليبيين، وهذا واضح من خلال نصوص ابن جبير نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن أسامة بن منقذ من قبل قد أشار إلى حادثة تنصير خاصة بالشاب المسيحي الذى اعتنق الإسلام ثم ارتد من بعد ذلك (٥٠)، ومن الواضح أن الفارق الأساسى بين رواية ابن جبير وحادثة المغربى، ورواية أسامة بن منقذ والحادثة التى أوردتها، أن المغربى كان مسلماً وارتد إلى المسيحية. أما الشاب الذى أورد أمره أسامة بن منقذ، فكان مسيحياً فى الأصل ثم تحول إلى الإسلام، وارتد من بعد ذلك، عنه إلى المسيحية، ويلاحظ أن أسامة بن منقذ أورد تلك الحادثة بصورة متفردة، مثلما كان الأمر لدى رحلة ابن جبير، على نحو يؤكد ما ذكرته من قبل بشأن كونها استثناءً فردياً.

من جهة أخرى، احتوت رحلة ابن جبير على تناول للخريطة الملهية والعقائدية في بلاد الشام في ذلك العصر، ومن ذلك أنه تناول المتصوفة، كذلك تعرض للاسماعيلية النزارية.

وفيما يتصل بالمتصوفة؛ أشار إلى مكائهم العالية في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه تلك الظاهرة، واحضنها الأيوبيون وعملوا على إرضائهم، وقد أشار إلى قيامهم بجلسات السماع، وإلى أماكنهم مثل الربط أو الخوانق، مع ملاحظة أنه لا يفرق بين الإثنين بل يعتبرها شيئاً واحداً (٥١).

أما فيما يتصل بالاسماعيلية النزارية، فنجد ابن جبير قد قلم لنا إشارات فريدة لا نجدها لدى مصدر آخر من مصادر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

فمن الملاحظ، أنه تناول أمر النبوة، ودورها في مواجهة العناصر الشيعية في بلاد الشام (٥٢)، ويلاحظ أن هناك من الباحثين من اعتقد أنها إحدى الفرق الصوفية (٥٣)، غير أن هذا القول مردود على اعتبار أن صاحب ذلك الرأي خلط بين النبوة، والبيانية وهي الطريقة الصوفية الشامية، التي تنسب إلى نبا بن بيان الزاهد (٥٤).

كما أن أحد الباحثين اعتقد أن النبوة تنظيم فرسي سني، ضد عناصر الشيعة في العراق (٥٥)، بينما نجد أن نص ابن جبير واضح أنها موجهة للعناصر الشيعية في بلاد الشام، كما تصور البعض أن فعاليتها كانت في القرن السابع الهجري/ (٥٦) الثالث عشر، بيد أن نفس النص الذي أورده ابن جبير يوضح بجلاء أن فعاليتهم كانت خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وليس القرن التالي له.

وقد قلم لنا ابن جبير تعريفاً للنبوة لم أجد نظيراً له في مؤلفات الرحالة المسلمين المعاصرين، واللاحقين، على مدى مرحلة الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكذلك في

مؤلفات كتاب الحوليات المسلمين، وقد ذكر أنهم مسلطون ضد عناصر الرافضة، وهو تعبير يطلق أيضاً ليعنى عناصر الشيعة المتطرفين. وأشار إلى أنهم يأخذون بتقاليد القروسية وأنهم يقتلون الروافض أينما وجدوا^(٥٧). ولم يكتف ابن جبير بذلك بل إنه عندما تحدث عن مدينة الباب الواقعة بالقرب من بزاغة في شمال شرق حلب^(٥٨). وعند وادي بطنان، ذكر أمر هجوم عناصر النبوية ضد الإسماعيلية هناك وحدد ذلك بأنه كان قبل ثمانى أعوام من تاريخ رحلته^(٥٩)، ولما كان ابن جبير قد قام بتلك الرحلة عام ٥٧٨هـ / ١١٨٣م فمعنى ذلك أنه يتحدث عن وقائع جرت عام ٥٧٠هـ / ١١٧٥م.

وقد أوضح ذلك الرحالة أنه تم وضع السيف فيهم؛ وتم افناؤهم عن آخرهم، وعندما مر بالمنطقة، وجد جماجم القتلى موجودة هناك^(٦٠).

وبلاحظ أن ابن العديم الحلبي^(٦١) (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) قد أشار إلى تلك الحادثة، وذكر أن عناصر النبوية قامت بمواجهة الإسماعيلية في الباب، وذكر أن حجم القتلى كان ضخماً^(٦٢). مع احتمال المبالغة بالطبع في مثل تلك المواقف.

وكان من جراء تلك للمواجهة السنية/ الشيعية في شمال الشام، وفي أعقابها أن وجدنا نزوحاً من العناصر الإسماعيلية للقاطنة الباب، وإتجاهها إلى مناطق أخرى مجاورة، بحيث حدث تغير ما ديموغرافى في المنطقة بحيث أننا لا نجد العناصر الإسماعيلية تستمر في الوجود في الباب، ولا أدل على ذلك من أن ابن جبير نص صراحة أن «سكانها اليوم قوم سنيون»^(٦٣)، وفي هذا تأكيد واضح على دور وفعاليات النبوية التي لا يمكن أن نتفهمها إلا من خلال صحوة الفتوة التي أظهرها الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٦م)^(٦٤).

وهكذا، قدم لنا ابن جبير نصاً فريداً في تعريف النبوية وفي فعاليتهم في الباب، كما أنه أفاد في توضيح خريطة توزيعات السكان في ذلك العصر من خلال بعد عقائدى، وبعد هذا القسم من أهم ما أورده في رحلته عن بلاد الشام وأكثرها أصالة.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن ذلك الرحالة أشار إلى تحصن الاسماعيلية في بلاد الشام بعدد من المعاقل وقد وصفها بأنها «حصون للملاحدة الاسماعيلية»، ومن جهة أخرى، نجده يتناول القيادة الاسماعيلية في ذلك الحين والتي تعرف أنها تمثلت في راشد الدين سنان بن سليمان الذي تولى قيادة الاسماعيلية هناك لأمد طويل بلغ ثلاثين (٦٥) عاماً (٥٥٩-٥٨٩هـ / ١١٦٣-١١٩٣م) وقد أشار ابن جبير إلى أن طائفة الاسماعيلية ألهمت راشداً هنا، وقد وصفه بأنه «شيطان من الإنس» (٦٦).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير قد ذكر أن سيطرة راشد الدين سنان على أتباعه بصورة متعاضمة، ولا أدل على ذلك من ذكره أنه إذا أمر أحدهم بأن يتردى من شاهقة جبل فإنه يستجيب لذلك من أجل لإرضائه (٦٧).

وقد تبدو رواية ذلك الرحالة في هذا الصدد غريبة، بيد أننا نملك رواية أخرى من أحد المصادر التاريخية الصليبية تشير إلى أن الأمير الصليبي هنري دى شامبني Henry de Champagne قد زار راشداً في معقله، فأراد الأخير، أن يظهر له سيطرته على أتباعه فأمر إثنين منهم بأن يلقوا بأنفسهم من فوق قمة جبلية، وقد نفذا ذلك الأمر (٦٨)، من فورهما ودونما معارضة.

وهكذا تأكدت رواية ابن جبير من خلال ورود رواية أخرى متطابقة في المصادر التاريخية الصليبية. ومثل تلك الروايات تعكس سيطرة شيخ الجبل على أتباعه وأن طاعتهم له كانت طاعة مطلقة، ويبدو أن تلك الطاعة قد أثارت عليه حق القاعدة الأم للدعوة الاسماعيلية في إيران ونعني بها ألمات، فأرسلت إلى راشد الدين سنان من يقضى عليه، بيد أن تلك المحاولة باءت بالفشل (٦٩) وهكذا ألفت رحلة ابن جبير الضوء على تلك القيادة الاسماعيلية الشامية.

زد على ذلك، أن رحلة ابن جبير عنيت بعناية خاصة بتتبع ظاهرة تعليمية هامة عاشتها بلاد الشام في ذلك العصر، ألا وهي ظاهرة المدارس، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك

العصر عرف على أنه عصر المدارس، التي انتشرت في كافة أنحاء بلاد الشام كجزء من انتشارها في العديد من أقاليم الشرق الأدنى كجزء من حركة تعليمية ثقافية ناهضة، وكتعبير عن حركة الاجتهاد السني التي كانت من خلال تلك المؤسسات التعليمية.

وفي هذا المجال نجد أن المدارس، والجوامع، والكتائب تقوم بدورها الهام في المجال التعليمي والثقافي، من أجل تخرج كوادر مدربة يمكنها التصدي للمد الشيعة الاسماعيلي، وحتى يتمكن المسلمون من التمسك بدينهم أكثر من ذي قبل في عصر شهد الصراع بين عالمي الإسلام، والمسيحية.

وهكذا وجدنا ذلك الرحالة الأندلسي، يوضح أن في مدينة دمشق عشرين مدرسة^(٧٠)، وفي هذا تعبير واضح عن تفوق ظاهرة المدارس في حاضرة الشام الكبرى، ونعني بها دمشق، وقد لقيت المدرسة النورية التي أقامها الملك العادل نور الدين محمود إعجاب ذلك الرحالة^(٧١)، وقد وصفها بعبارات تعكس ذلك الإعجاب، من ذلك قوله بأنها «من أحسن مدارس الدنيا» كذلك وصفها بأنها «قصر من القصور الأنيقة»^(٧٢).

ومن الملاحظ أن عرض ذلك الرحالة لأعداد المدارس نجده يتناقص بالتدرج بالنسبة للمدن الأخرى في بلاد الشام. إذا ما قارناها بدمشق، من ذلك أنه عدد في حلب حاضرة الشام الشمالية نحو خمس أو ست مدارس^(٧٣)، أما حماة ففيها ثلاث مدارس^(٧٤)، وفي حمص يتناقص العدد ليصل إلى مدرسة واحدة^(٧٥)، على نحو عكس دلالات هامة عن ذلك العصر.

والواقع أن ذلك التناقص في أعداد المدارس بالمقارنة بما في مدينة دمشق، يرجع في المقام الأول إلى مظاهر النمو الحضاري، والكثافة السكانية، إذ أن دمشق - التي وجد فيها العدد الأكبر من المدارس - زاد عمرانها وازداد عدد سكانها بشكل واضح، وذلك يمكن ملاحظته من خلال أوصاف نفس الرحالة إذ أشار إلى أن المرافق بها «أكثر من أن

توصف، (٧٦)، كما أنه عدد في تلك المدينة مائة حمام (٧٧)، وفي أرباضها ونواصيها أربعين داراً، من أجل الضوء (٧٨). كما أنه أشار إلى أن أبنية المدينة تصل إلى ثلاثة طوابق (٧٩)، أما من الناحية السكانية فقد ذكر نفس الرحالة أنه «أكثر بلاد الدنيا خلقاً» (٨٠)، وفي هذا دليل واضح على النمو الحضارى والعمرانى لدمشق، والكثافة السكانية المتزايدة بها.

ولا مرء، في أن مدينة ذلك هو طابعها، من الطبيعي أن تجدها تستأثر بأكبر عدد من المدارس، إذا ما قورنت بالمدن الأخرى الأصغر في بلاد الشام.

وقد حرص ذلك الرحالة على أن يوضح مظاهر الحركة التعليمية في الجوامع، من ذلك تناوله لتعليم الصبيان في الجامع الأموى بدمشق، وكيف أنهم يدرسون على تحفيظ القرآن الكريم، وأن هناك الإقبال من جانب الصبيان من أجل تعلم كتاب الله تبارك وتعالى. وقد ذكر أن المعلم لا يعمل بشئ سوى تلقين الصبيان كما أن الصبي متفرغ للتعلم فقط (٨١).

وللى جانب ذلك الجانب، نجد ذلك الرحالة قد حرص على إبراد ناحية هامة، ونعنى بها النهضة الطبية التي وجدت في بلاد الشام في ذلك العصر، وتمثلت تلك النهضة بصفة عامة في إقامة البيمارستانات في العديد من المدن الشامية وكذلك في الرعاية الطبية الكبيرة التي لقيها المرضى، وفي هذا الشأن، نجد أن ابن جبير قد أشار إلى وجود بيمارستانين للمرضى في دمشق (٨٢)، وأن هناك بيمارستان قديم وكذلك بيمارستان حديث، وقد قرر أن الحديث أكبر وأكثر فخامة، وذكر أيضاً أن هناك نظاماً محدداً في استقبال المرضى، وتسجيلهم في سجلات، وتم تدوين ما يحتاجه المرضى من الأدوية والأغذية. ويقوم الأطباء المعالجون بالذهاب إلى البيمارستان في ساعة مبكرة من الصباح، ويقومون بتفقد المرضى، ويقررون لهم الأغذية والأدوية الخاصة بكل حالة

مرضيه (٨٣). على نحو عكس مدى درجة التحضر العالية التي بلغها المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر.

أما إذا ما اتجهنا إلى حاضرة شمال الشام وهى حلب، فنجد أن بها مارستاناً واحداً كما يقرر ذلك الرحالة (٨٤). وفى حماة لاحظ وجود مارستان على شاطئ نهر العاصى (٨٥) أما حمص؛ فعندما سأل أحد الشيوخ عن وجود مارستان بها، أنكر عليه سؤاله، وأجاب بأن «حمص كلها مارستان» (٨٦).

وتجدر الإشارة إلى أن بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجرى/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قد شهدت ظهور العديد من الأطباء البارعين فى العديد من المجالات والعلوم الطبية، ولا أدل على ذلك من التراجم الضافية التى أوردها ابن أبى أصيبعة (٨٧) (ت ٦٦٨هـ / ١٢٨٠م) فى كتابه البارز عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، حيث ضمن كتابه عدداً وافراً من الأطباء الشاميين الذين برعوا فى ذلك العصر. ولا نزاع فى أن احتدام الصراع الإسلامى/الصليبي، وسقوط الجرحى والقتلى قد عمق ضرورة العناية بالطب وأمور المعالجة، كما أن ذلك الصراع جعل فكرة العناية بالقوة البشرية الإسلامية أمراً ملحقاً على أساس أن تلك القوة كانت أحد مظاهر العمق الدفاعى الاستراتيجى الإسلامى فى لمواجهة الإسلامية/الصليبية من خلال الكثافة السكانية التى تميز بها على خصمه الصليبي.

وبالإضافة إلى كافة تلك العناصر السابقة. نجد أن ابن جبير قد أورد فى رحلته عدداً من المزارات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام. فى عصر اشتهر بظاهرة التبرك بالقبور والأضرحة.

ولذا نجده يذكر أن بغربى دمشق جبانة كبيرة خاصة بقبور الشهداء وفيها عدد وافر من قبور الصحابة والتابعين، ومن القبور المشهورة هناك قبر أبى الدرداء وأم الدرداء ثم

قبر فضالة بن عبيد وسهل بن النظامية وهما من الذين قاموا بمبايعة الرسول ﷺ تحت الشجرة (٨٨). وكذلك قبر لخال معاوية بن أبي سفيان، أما في حمص فنجد أنه أشار إلى قبر خالد بن الوليد وكذلك قبر ابنة عبدالرحمن، وقبر عبيد الله بن عمر (٨٩)، وفي حلب نجده يقرر وجود مشهد لإبراهيم الخليل وقد أشار إلى أن الناس يقصدونه بالزيارة ويتركون بالصلاة هناك (٩٠).

وبالإضافة إلى ذلك نجد أنه قد أورد مزارات خاصة بالمسيحيين، ومن ذلك إشارته إلى كنيسة مريم الموجودة في مدينة دمشق، وقد ذكر أمر مكائتها العالية في نفوسهم، وأوضح تفوق عمارتها والصور الموجودة بها، والناحية الهامة التي أشار إليها أنها بأيدي الروم وأضاف «ولا اعتراض عليهم» (٩١)، وهكذا أتت تلك الأسطر لتعبر عن التسامح الديني الذي عاش خلاله المسيحيون تحت الحكم الإسلامي في مدن بلاد الشام، على الرغم من استعمار العداء بين المسلمين والغزاة الصليبيين الذين غزوا المنطقة تحت شعار الصليب، وبقاء أماكن عبادتهم دون أن تمس بالأذى أو طمس المعالم.

وبلاحظ أن ابن جبير لم يحرص على أن يذكر الأماكن المقدسة المسيحية في المناطق الخاضعة للسيادة الصليبية، وذلك على عكس الإدريسي الذي حرص على إبرادها بصورة مفصلة إلى حد ما تشابه بذلك مؤلفات الرحالة الأوروبيين أنفسهم والتعليل الرئيسي الكامن وراء ذلك أنه لم يدخل مدينة بيت المقدس أصلاً.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير يقدم تناولاً هاماً لأوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبي، وفي ذلك أوضح أن المسلمين يؤدون للصليبيين نصف الغلة، كما أن هناك جزية على كل رأس تبلغ ديناراً وخمسة قرايط، كما أن هناك ضريبة على التجار، وباستثناء ذلك فإن مساكن المسلمين بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، ويقرر أن ذلك هو أسلوب الصليبيين في التعامل مع من في نطاق أملاكهم من مدن الساحل الشامي (٩٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الوضع السابق ينبغي ألا يجعلنا نتصور أن المشروع الصليبي نجح في أن يمزج المسلمين مع الصليبيين في نسيج واحد مشترك، إذ أن الصليبيين نظروا باستمرار نظرة شك وارتياب للمسلمين الخاضعين لهم، وقد قرر ذلك صراحة أحد الرحالة الأوروبيين ونعني به تيودريش Theoderich (١٣)، وما زاد من صعوبة الموقف أن الغزاة لم يقدروا على التخلي عن الخدمات التي يمكن أن يؤديها السكان المحليون من المسلمين، لا سيما في مجال الزراعة، نظراً لكثرة أعدادهم ولخبرتهم الواسعة في ذلك المجال، بالإضافة إلى أن الصليبيين قد عانوا أصلاً من مشكلة نقص العنصر البشري. ناهيك عن طبيعة المشروع الصليبي نفسه، كمشروع استعماري - أي استعماري • استيطاني، على نحو جعل إمكانية المسألة بين الجانبين أمراً مستبعداً، وإن حدثت فهي في أضيق نطاق وأندر.

ويقرر المؤرخ السوفييتي المعاصر ميخائيل زابوروف، أنه عندما استقر السادة الجدد (يعني الصليبيين) في الأراضي المقتسبة المفتوحة، حولوا الفلاحين في القرى من المسلمين والمسيحيين إلى أقنان، وقضى القادمون على آخر بقايا حرية السكان القرويين الشخصية (٩٤).

ومن جهة أخرى، ينبغي ألا يتصور المرء أن الوضع الذي أشار إليه ابن جبير يتسم بالطابع العام الشامل لكافة المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية. فمن الأمور الجديرة بالملاحظة أن ابن جبير نفسه أشار إلى زاويتين هامتين، هما وضع أسرى المسلمين الذين رآهم في مدينة عكا الصليبية، وهم يرسفون في الأصفاد، وخاصة النساء (وفي أسواقهن خلاخيل الحديد، على حد قوله، وقد ذكر أن الأسرى المسلمين يوجهون للقيام بالأعمال الشاقة المجهدة. وعبر عن الحسرة الشديدة حيالهم، حيث لا تنفع ولا تفيد (٩٥).

أما الناحية الثانية التي تتضح من خلال رواية ابن جبير أننا نجد بشعر بالمرارة لوجوده داخل نطاق السيطرة الصليبية، على الرغم من أنه مجرد زائر لمدة أيام قلائل فما بالك بمن اضطر إلى الإقامة المستمرة، وقد ضاق ذرعاً بمظاهر الصليبان، ووجود الخنازير، وجميع المحرمات (٩٦) بنص تعبيره، ناهيك عن مظاهر الإنحلال الخلقي داخل المجتمع الصليبي ذاته. وقد أورد ذلك الرحالة عبارة ذات دلالات عميقة عن اختراق المسلم داخل الوجود الصليبي عندما أبدى ندمه الشديد لتورطه بزيارة تلك المناطق، وقلم نصيحة عامة لكل من يفكر في أن يشد الرحال إلى هناك بقوله «فالحر الحر من دخول بلادهم، والله تعالى للمسؤول حسن الإقامة والمفكرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم ولم تتداركها إلا بعد مواقة الندم» (٩٧)، وجاءت عبارته تلك من خلال موقف نفسى هابط ومعنويات منهجرة لوجوده داخل مناطق الاحتلال الصليبي.

وهكذا، فإن إشارة ابن جبير إلى تعامل الصليبيين المحد تجاه المسلمين في مجال الضرائب وغيرها مع ترك أموالهم وممتلكاتهم بأيديهم، يحتل أحد جوانب السياسة الصليبية في التعامل معهم، ولكن وجدت مظاهر أخرى، أمكن استخلاصها من نفس تلك الرحلة الهامة.

وإضافة إلى ما سبق، نجد أن ابن جبير قد حرص على إبراز بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية سواء لدى المسلمين والصليبيين، على نحو أدى إلى إثراء رحلته بصورة واضحة.

فمن ذلك، تناوله لعادات الدماشقة في الاجتماع بصحن للمسجد الأموي، حيث قرر أنه متنزههم كل عشية، حيث يمضون وقتهم هناك، والحين غادين، وحلد ذلك الموقع بأنه من باب حبرون، إلى باب البريد، ومن ازدحام القوم في ذلك المكان أشار إلى أن المرء قد يتصور «أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان»، أي ليلة القدر على الأرجح (٩٨).

وإذا كان ابن جبير قد تناول عادات الدماشقة في التمتع بمباهج الحياة البريئة، فإنه وصف لنا الجانب الآخر، وتقصد به عاداتهم في الجنائز. وفي هذا المجال، أشار إلى أنهم يسيرون في الجنائز بقراء يقومون بقراءة القرآن الكريم بأصوات شجية محزنة، تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً، وتنهال على أكر سماعها العبرات، وتتم الصلاة على الجنائز في الجامع الأموي قبالة للمقصورة، كما أنه قرر أن من الممكن أن يجتمع الناس من أجل العزاء، وذلك في البلاط الغربي من صحن للمسجد، وحدده بأنه في مواجهة باب البريد (٩٩).

وتوضح إشاراته السابقة، أهمية المسجد في حياة الدماشقة في ذلك العصر، وأنه مثل قلب الحياة الدينية والاجتماعية، مثلما كان دوره دوماً في حياة الجماعة المسلمة منذ فجر الإسلام.

ومن جهة أخرى، حظي الجانب الاجتماعي لدى الصليبيين على اهتمام ذلك الرحالة. وفي هذا المجال، نجد أنه أشار إلى حفل زفاف لعروس صليبية في مدينة صور اللبنانية، وقد اتسم وصفه لتلك الحفل بالحيوية، وأيضاً بالتخطف تجنباً للفتنة، وقد ذكر أنه احتفل بالأمر جميع عناصر الصليبيين من الرجال والنساء، وقد تم اصطفااف سماطين عند باب العروس، وعزفت الآلات الموسيقية احتفالاً بتلك المناسبة.

وقد قام ابن جبير بوصف ثياب تلك العروس الصليبية، فأورد أنها ارتدت أفخر ثياب وأزهارها، وأشار إلى أن ملابسها صنعت من الحرير المذهب (١٠٠)، حيث ازدهرت صناعة الملابس الحريرية في العديد من المدن الشامية سواء تلك الخاضعة للسيادة الصليبية أو الإسلامية.

وبصفة عامة، يعد إيراد ابن جبير لتلك المناسبة أمراً هاماً زاد من إيجابيات رحلته، وبصفة عامة تمثل تلك الحادثة جانباً يكاد يكون استثنائياً في وسط الكم الهائل من الأحداث الحربية والسياسية التي أوردها مؤرخو ذلك العصر سواء المسلمين أو الصليبيين،

من خلال طبيعة العصر التاريخي نفسه، وهو عصر غلبت عليه صفة الصراع العنيف بين الجانبين.

وهذا الأمر، محدود أصلاً في المصادر العربية فيما يتصل بالمسلمين، والأمر أشد بالنسبة للصليبيين أنفسهم ومظاهر الحياة المختلفة عندهم، وخاصة من خلال عيون أعدائهم المسلمين.

من جهة أخرى، أشار ابن جبير إلى الجانب الحربى وما اتصل بالقلاع والحصون، وهى التى مثلت المظهر البارز للعمارة الحربية فى ذلك العصر، وقد أشار إلى ذلك الجانب لدى كل من الصليبيين، والمسلمين.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن جبير ذكر أمر القلاع الصليبية بيد أنه أشار إلى القليل منها، خاصة حصن الأكراد Crac des Cheraliers الذى كان الصليبيون يغيرون منه على المدن الإسلامية المجاورة مثل حماة وحمص، وكان على مسافة قريبة منها، حيث أن ذلك للرحالة أشار إلى أنه «بمراى العين منهما»^(١٠١).

كذلك تعرض لقلعة صليبية أخرى، ونعنى بها قلعة تبنين Toron، ووصفها بأنها حصن كبير من حصون الصليبيين^(١٠٢).

ومن جهة أخرى، تعرض لحصن الكرك Krak de Montrial الواقع على طريق الحجاز، وأشار إلى منازلة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي له^(١٠٣).

ومن جهة أخرى، قدم ابن جبير فى عبارة موجزة تناولاً لأمر حصن كبير يعرف بالزاب، ووصفه بأنه مطل على قرى وعمائر متصلة، ويطل على قرية تعرف باسكندرونة^(١٠٤)، والواقع أنه ليس من السهل معرفة عما إذا كانت تلك التسمية التى أطلقها ابن جبير على ذلك الحصن يقصد بها قلعة اسكندرونة^(١٠٥)، ذاتها أم أن

المقصود قلعة أخرى، وهو أمر ليس من الممكن التحقق منه، نظراً لعدم وضوح نص ابن جبير في هذا الصدد.

ومن جهة أخرى، أشار إلى عدد من القلاع والحصون الإسلامية، من ذلك تعرضه لقلعة دمشق، وقد أوضح أن السلطان يسكنها وحدد موقعها بأنها في مواجهة باب الفرج (١٠٦)، وهو أحد أبواب المدينة، أما قلعة حلب فقد امتدحها من حيث ارتفاعها الشاهق، كذلك مناعتها، وذكر أن حصاتها الذي يصعب وصفه. وأشار إلى أن سورها الأعلى كله أبراج منتظمة، كما أن بداخلها تجد المساكن السلطانية، والمنازل الملوكية (١٠٧).

وتجدر الإشارة إلى قلعتي دمشق، وحلب، كانتا محل اهتمام واضح من الجغرافيين، والرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام، في عصر الحروب الصليبية، وإن كانت إشاراتهم في هذا المجال متشابهة. وهو أمر ينطبق على ما أورده ابن جبير نفسه في ذلك المجال.

كذلك تجد أن ابن جبير أشار إلى قلعة حماة، ووصفها بأنها على رهوة كبيرة مستديرة، وتناول أمر حصاتها ومناعتها، وتوافر المياه بها، من أجل سقاية الجنود (١٠٨)، أما حمص فتناول قلعتها ووصفها بالمنعة، وفي بزاعة ذكر قلعتها الكبيرة المنيعة (١٠٩)، وإن لم يقدم أية تفاصيل أخرى بشأنها.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين شيدوا عدداً من القلاع، والحصون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (١١٠)، بيد أن قلاعهم كانت أقل في العدد إذا ما قورنت بقلاع أعدائهم من الصليبيين، خاصة إذا ما لاحظنا أن الأخيرين كانوا في الأصل غزاة غرباء وافدين على المنطقة، وعانوا من مشكلة ظلت تؤرقهم على مدى قرنين من الزمان، ونعني بها مشكلة نقص العنصر البشري (١١١)، بينما كان المسلمون هم أصحاب الأرض الأصليين بالإضافة إلى أنهم مثلوا كثافة سكانية واضحة، بالمقارنة بأعدائهم.

مهما يكن من أمر، فإن رحلة ابن جبير في ربوع بلاد الشام قدمت لنا إشارات هامة ومتوازنة في الغالب عن قلاع الطرفين المتحاربين الإسلامى والصليبي مع ملاحظة أنها اقتصررت في الغالب على تناول أمر الحصانة والمنعة وتهديد الأعمال الجائرة دون أن تنطرق إلى الزوايا المعمارية بالحديث، على نحو أقتلها جانباً هاماً كان من الممكن - في حالة إيرادها - أن تزيد من قيمة روايات ذلك الرحالة الأندلسي في هذا الصدد. ومع ذلك من الإنصاف أن نقرر أن هذا الرحالة لا ينفرد بذلك الجانب، بل إنه ذات النهج الذى سار عليه الجغرافيون والرحالة المسلمون الذين تناولوا بلاد الشام في ذلك العصر.

وهكذا، احتوت رحلة ابن جبير على تناول هام لكافة الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء من ناحية المسلمين أو الصليبيين على نحو جعله واحداً من أكثر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام ثراء في مادة الرحلة ذاتها والأضواء الكاشفة التى ألقتها رحلته على أوضاع بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ولاسيما خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى.

الهوامش

(١) عن مصادر ومراجع ترجمة ابن جبير أنظر :

لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ح-٢، تحقيق عبدالله عنان، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص ٢٣٠-٢٣٩، للقري، نفع الطيب في غصن الأتلس الرطيب، ح-٣، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٤٣، ابن الصايوني، تكملة الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٩٥٧م، ص ١٩٩، حاشية (٢)، كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ت. صلاح الدين هاشم، ق ١، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٢٩٧-٢٩٨، صلاح الدين للنجد، المشرق فى نظر للمغاربة والأندلسيين، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٨-١٩، عبد القلوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢١-٣٦، هنرى لامنس، بلاد سوريا فى القرن الثانى عشر وفقاً لرواية ابن جبير، المشرق، العدد (٧)، السنة (١٠) عام ١٩٠٣م، ص ٢٨٧، شوقى ضيف، الرحلات ط. القاهرة ١٩٥٦م، ص ٣٠-٧١، زكى حسن، الرحلة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٧-٧١، عبدالفتاح وهبة، جغرافية العرب فى العصور الوسطى، ص ١٨-١٩، براون، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى، ت. الشواربى، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص ٦١٤، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة للمسلمون، ص ٣٢٣، سامى النعمان، قداماء ومعاصرون، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص ١٢٠-١٣١، محمد مؤنس أحمد عوض، الصراع السنى/ الشيعى فى بلاد الشام فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر للميلادى من خلال رحلة ابن جبير، ندوة العرب وآسيا، جامعة القاهرة، أبريل ١٩٨٩م، ص ١٢-١٣، محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، ط. الرياض ١٩٨٣م، ص ١٥٣، التراث الجغرافى الاسلامى، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ١٥٥-١٥٦، حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج، ط. الرياض، ١٩٨٢م، ص ١١٩، جورجى زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، م ٢ / ح ٣، ص ٩٠، نقولا زيادة، ابن جبير، عالم، وقته، وأدب، ورحالة، العربى، العدد (١٩)، يونيو ١٩٦٠م، ص ١١٧، أحمد أبو سعد، أدب الرحلات فى الإسلام، رجب ١٣٩٦هـ / يولييه ١٩٧٦م، ص ٦٧، أبو الحسن على الندوى، مختارات من أدب العرب، ح ١، ط. جنة ١٩٧٨م، ص ١٠٣، عبدالرحمن الحجى، التاريخ الأندلسى، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص ٥٠٣.

وتجدر الإشارة إلى أن جبرئيل حيدر، قد ذكر أن نسب ابن جبير هو أبو الحسين محمد بن

أحمد بن جبير الكنعاني، لكن هذا لا يجد سنداً من المصادر الأصلية، وهو الكنعاني وليس الكنعاني، أنظر إشارته :

جرير أبي حيدر، رحلات أندلسية ثلاثة، البكري، والإدريسي، وابن جبير، مجلة الفكر العربي، العدد (٥١) يونيو ١٩٨٨م، ص ١٠٥.

(٢) عن طبعات رحلة ابن جبير نعرف أنه قد اهتم بها عدد من المستشرقين خاصة وليم رايت W. Wright، وكذلك اسكياباريلي Schiaparelli، وقد نشر رايت رحلة ابن جبير للمرة الأولى عام ١٨٥٢م، وصدر عمله في ليدن Leyden عام ١٨٥٢م أنظر :

Wright, The Travels of Ibn Jubair, ed. by W. Wright, Leyden 1852.

أما الطبعة الثانية فكانت بمراجعة للمستشرق دي جوي De Geoye ونشرت ضمن سلسلة جب التذكارية، الجزء الخامس، وصدرت في ليدن Leyden عام ١٩٠٧م.

The Travel of Ibn Jubayr edited from a ms. in the university library of leyden by wright, second edition revised by M.J. de Goeje and printed for trustees of the E.J.W. Gibb memorial, Leyden 1907.

أما عن جهد سكياباريلي، فقد صدر في روما عام ١٩٠٦م بعنوان :

Schraparelli, Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiute nel secole XII, primo Traduzione Sull, Oriyinale arabe J.A.C. Schiaparelli, Roma 1906.

عن ذلك أنظر :

بالشيا، تاريخ الفكر الأنلسي، ص ٣١٧، كراشكوفسكي، للرجع السابق، ص ٩٨٢-٩٩٦، عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢٣٤، سيد حامد النجاج، مشوار كتب الرحلة (قديمًا وحديثًا)، ط. القاهرة ب-ت، ص ٢٠.

Thomsen, Die palastina - Literatur Eine internationale Bibliographie in Systematischer Ordnung mit Autoren - und Sachregister, Band II, Leipzig 1911, p. 11.

والجدير بالذكر، أن حسين نصار قام بتحقيق رحلة ابن جبير، وصدر عمله في القاهرة عام ١٩٥٥م، وأعيد طبعه عام ١٩٩٢م، كما صدرت عدة طبعات تجارية للرحلة للذكورة في بيروت، ومنها طبعة عام ١٩٦٤م، وهي التي استعنت بها في إعداد هذا الفصل.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، للمصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٤) نفسه، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٣١.

(٥) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١٦٠.

- (٦) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣١، ٢٣٢، شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١؛ يوسف الفز، المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.
- (٨) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٢؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص ٨٢.
- (٩) يوسف الفز، المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (١٠) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ق٢، ص ٨٣٦.
- (١١) نقولا زيادة، ابن جبير، ص ١١٨.
- (١٢) حسين نصار، مقدمة تحقيق رحلة ابن جبير، ص ٢٦٩، حاشية (١)؛ أيضاً نقولا زيادة، دمشق في عصر المالوك، ط. بيروت ١٩٨٩ م، ص ١٢٨.
- (١٣) نقولا زيادة، ابن جبير، ص ١١٨؛ أحمد أبو سعد، المرجع السابق، ص ٦٠.
- (١٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ط. بيروت ١٩٨٧ م، ص ٣٣٥.
- (١٥) صلاح الدين هاشم، الإسلام والفكر الجغرافي العربي، ط. الاسكندرية ١٩٧٨ م، ص ١٤٩-١٥٠.
- (١٦) محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص ١٥٣؛ ابراهيم الكردي وهدى شرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، ط. الكويت ١٩٨٤ م، ص ٢٧٨.
- (١٧) ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤ م، ص ٢٤٧، ٢٥١؛ من ذلك ذكره لقراءته كتاب تاريخ ابن العلي الأسدي وكذلك كتباً في فضائل دمشق.
- (١٨) عن ذلك أنظر الفصل الخاص بالإدريسي.
- (١٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص ٨٥.
- (٢٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ محمد مصطفى زيادة، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، ط. القاهرة ١٩٣٩ م، ص ١٨.
- (٢١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- (٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
- (٢٣) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٢٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٢٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٨.

(٢٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٢٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٢٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٦-٢٢٧. وعن أسواق حلب أنظر :

Sauvaget, Alep, Essai sur le developpement d'une grande Ville, p. 119-121.

(٢٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٣٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(٣١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٣٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٣٤) كامل العسلى، من آثارنا فى بيت المقدس، ص ٣٩.

ويلاحظ أن الخان مبنى كبير اشتمل على مجموعة من الحوانيت الكبيرة، والصغيرة، ومخازن للبضائع، وبوسطه فناء كبير على شكل رواق مغلى من أجل أن يحفظ التجار سلعهم، ويجدوا مأوى لهم، ولدوابهم خلال ارتحالهم، وقد عنيت الخانات بشكل خاص بمسائل التخزين ولم توجد فى المدن فقط، بل أيضاً على امتداد الطرق التجارية فى بلاد الشام، والجزيرة، وقد وجدت من الخانات أنواع كبيرة الحجم، وأنواع أخرى صغيرة، وفق قدراتها على تخزين البضائع، ومن الخانات الشامية الشهيرة وقت زيارة ابن جبير خان أبى الشكر، وخان نمنى، وخان حماة. عن الخانات أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٢٨؛ نعيم زكى، طرق التجارة الدولية أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٩٣؛ أشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ص ٣٠٥؛ فتحي عثمان، الحدود الإسلامية/ البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والتأثير الحضارى، ج ٣، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٣٤؛ عبد القلوس الأنصارى، مع ابن جبير فى رحلته ص ١١٣.

(٣٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(٣٦) كامل العسلى، للرجع السابق، ص ٣٩، حاشية (٢).

والجدير بالذكر، أن القيسارية عبارة عن بناء كبير تتوزع فيه الحوانيت على الجانبين. ولما فهي تتخذ شكل السوق، وكلمة قيسارية هي تعريب للكلمة اللاتينية *Caesares*، حيث أن الرومان استعملوها كمستودع لبضائعهم، واحتوى على كافة السلع مثل الطراز، والفرش، والفراء، والمجوهرات، وتم اغلاقها ليلاً، وفرضت عليها الحراسة من أجل مواجهة هجمات اللصوص، ومن القياسر البارزة في بلاد الشام وقت زارة ابن جبير لها، قياسر الجفري، ودرب اللبان، والفراء، والفرش، والسلطان والوزير. عن القياسر أنظر :

ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٢٧؛ ابن عثاني، قوانين الدوليين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص ٤٥٧؛ ابن عساكر، للمصدر السابق، م (٢)، ص ٧٠، ص ١٤١، ص ١٥٧، ١٥٩؛ اليسيف، الحياة الاقتصادية في دمشق في عهد نور الدين محمود، ضمن الكتاب التذكاري عن ابن عساكر، ط. دمشق ١٩٧٩م، ص ٢٠٥؛ نوال محمد عبدالله، العمران في المشرق العربي في القرن السادس، قراءة في رحلة ابن جبير، المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، المجلد الثالث، ط. الرياض ١٩٨٤م، ص ٣٧٨؛ ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣٠١؛ شاكرا أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص ٢٠٠.

Elisseeff, "Corporation de Damas sous Nur Al-Din Materiaux pour Une topographie economique de Damas au XIIe Siecle", R.E.A., T. III, Année 1956, p. 77.

(٣٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٣٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٠. وعن الاحكار التجاري في العصر الأيوبي أنظر :

أنيس مقدسي، الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية بيروت، السنة (١٨)، م (٣)، ح (٢)، سبتمبر ١٩٦٥م، ص ٢٢٧.

(٣٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٤٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٤١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦٠؛ زكي حسن، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٣؛ البيه شاندور، صلاح الدين الأيوبي، البطل الأتقي في الاسلام، ت. سعيد أبو الحسن، ط. دمشق ١٩٨٨م، ص ٦٢.

وعن إشارة للمصادر التاريخية لعصر الحروب الصليبية وخاصة مؤلفات الرحالة الأوروبيين للعلاقات التجارية بين الجانبين الاسلامي والصليبي أنظر :

Fetellus, p. 24; Theoderich, p. 65; Burchard of Mont Sion, p. 163;
Ludolph Von Suchem, p. 5.

(٤٢) أحمد رهاينة، إسهامات بعض الرحالة العرب في الدراسات الأثروبولوجية المبكرة، مجلة دراسات، عمان، م (١٠)، العدد (١)، عام ١٩٨٣م، ص ٤٤.

(٤٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٤٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٤٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.

(٤٦) من دور المغاربة في الجهاد في بلاد الشام أنظر :

ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٨؛ عبد الهادي التازي، بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، بحث ضمن أعمال المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام، ط. عمان ١٩٧٤م، ص ٤٣٤؛ السيد عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص ٢٤٩؛ عبد القدوس الأنصاري للرجع السابق، ص ٢٣٧؛ أحمد بدر، الأنطلسيون والمغاربة في القدس، مجلة أوراق، للمعهد الأسباني العربي، العدد (٤)، عام ١٩٨١م، ص ١٣٣؛ أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ١٠٠؛ علي أحمد، الأنطلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٤٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٤٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٨١.

(٥٠) أنظر الفصل الخاص بأسامة بن منقذ.

(٥١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٥٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٢.

(٥٣) حسين نصار، تحقيق لرحلة ابن جبير.

(٥٤) عن أبي البيان الزاهد وطريقته البيانية أنظر :

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٢٤، للنهل الصافي، ص ٤٨، حاشية (٣)؛ النعمي، الناس في تاريخ الناس، ج ١، ص ١٩٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٦٠.

(٥٥) Lewis, The Assassins, p. 114.

(٥٦) Demombyne, Muslim; Institutions, English Trans. by Meegnegor, London 1954, p. 41.

(٥٧) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٥٨) عن بلدة الباب أنظر، الفصل الخامس، الباب الأول، حاشية (٢٤).

(٥٩) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٦٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٦١) عن ابن العديم، أنظر الفصل الرابع، الباب الأول، حاشية (٢٦).

(٦٢) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدحان، ط. دمشق ١٩٦٨م، ص ٣٢.

(٦٣) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٦٤) فيما يتصل بجهود الخليفة الناصر لدين الله في إحياء تقاليد الفتوة، نعرف أنه اتجه إلى إحداث نهضة في هذا المجال، وقد سعى إلى بحث أخلاقياتها وآدابها التي وجدت لدى العرب منذ العصر الجاهلي. ووجدت هناك آداب متعددة للفتيان منها لبس السرابيل، والأحزمة، وشرب الماء، والملح، وغيرها من اللباس، ولدينا بعض المصادر المتخصصة في الكتابة عن الفتوة وآدابها وتعود إلى عهد ذلك الخليفة، ومن أمثلتها ما ألفه ابن البقال البغدادي (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م) وكذلك ابن عمار الحنبلي (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)، ويبدو أن العديد من فرق الفتيان قد ظهرت في ذلك العصر، مثل الرهاصية وهي المنسوبة إلى عمر الرهاص، والخليلية، وهي المنسوبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وغيرها كثير.

عن ظاهرة الفتوة وجلورها التاريخية في الجاهلية والاسلام ودور الخليفة الناصر لدين الله في بحث آدابها أنظر :

ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، ط. القاهرة ١٣١٥هـ، ص ٢٨٧؛ ابن الأثير، الكامل ج ١٢، ص ٤٤٠؛ ابن البقال، المقترح في المصطلح في تعليم رمى البندق والصيد، ألفه للخليفة الناصر لدين الله، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٠٦ ج؛ ابن عمار الحنبلي، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد، وآخرون، ط. بغداد ١٩٥٨م؛ الصفدي، نكت الهميان من نكت العميان، ط. القاهرة ١٩١١م، ص ٩٣؛ عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، ط. القاهرة ب-ت،

ص ٢٢٢؛ محمد صالح محيي الدين، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق في عهد الناصر لدين الله العباسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٤م، ص ٦٧؛ محمد الحاج فلفل، علاقة الأيوبيين في مصر والشام بالخلافة العباسية في بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، ص ١٠٧؛ أحمد أمين، الصليبية والفتنة في الإسلام، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص ٦٦؛ واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور غالي، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٣١؛ جيرارد زلنجر، الفتنة هل هي الفروسية الشرقية؟، ضمن كتاب دراسات إسلامية ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٠٠؛ كامل شيبى، همنكى ميان تصوف وتشيع، ط. تهران ١٣٥٤هـ، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٦٥) راشد الدين، هو راشد الدين سنان بن سلمان محمد أبو الحسن البصري، مقدم الاسماعيلية النزارية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وهو في الأصل من مدينة البصرة من قرية فيها تسمى عقر السدن، وبدأ حياته بتعليم الصبيان، وقدم مقدمو الاسماعيلية في كلوت بجنوب بحر قرين بفارس، وسيطر على أتباعه سيطرة كاملة، ووصف بأنه كان بعيد الهبة عظيم المخاريق، وله قدرة كبيرة على مخادعة القلوب، وتصفه المصادر التاريخية السنية أنه أباح لأتباعه الحرمات، وقد توفي راشد الدين سنان في عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، ويلاحظ أن أتباعه بعد موته اعتقدوا في غيبته ورجعته من بعد، وهناك من يقرر أن في حصن الكهف، يوجد النار الذي انخفى فيه راشد الدين سنان، ويقال إنه مدفون فيه ويؤمنون أنه غاب فيه ويظهر منه، كما يزعم أتباعه، وذلك وفق ما أورده شيخ الرهبة الدمشقي. عن راشد الدين سنان أنظر :

ابن العديم، سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس، R.E.A., T. VIII, 1966، ص ٢٦٠-٢٦١؛ ثلاثة تراجم من بغية الطلب، تحقيق برنارد لويس Melanges Fuad Koprülü، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٧؛ شيخ الرهبة الدمشقي، نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، ص ٢٠٨؛ للتوسعة للميرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط. الرياض ١٩٨٩م، ص ٢٠٦.

Lewis, The sources for the History of The Syrian Assassins, Speculum, Vol. XXVII, p. 486.

(٦٦) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٦٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة؛ ابن العديم، ترجمة راشد الدين سنان، في ثلاثة تراجم من بغية

الطلب، ص ٣٢٣.

Eracles, l'Eracle Empereur et la conquete de la Terre d'Outremere, R.H.C., (٦٨) Hist. Occ., T. I, Paris 1869, p. 210.

(٦٩) برنارد لويس، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص .

(٧٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٥. وفي هذا المجال أنظر :

ممدوح الروي، المدارس الدمشقية القديمة، للنهل، العدد (٥١٦)، م (٦٠)، الحرم
١٤١٥هـ / يوليو ١٩٩٤م، ص ١٢-١٧.

(٧١) ابن جبير للمصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٧٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٣) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٨.

(٧٤) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣١.

(٧٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٧٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٦.

(٧٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٦١.

(٧٨) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٧٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٨٠) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٨١) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٤٥.

(٨٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٥٥. وعن البيمارستان النوري الذي أقامه نور الدين محمود في دمشق
أنظر :

ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكي، تحقيق اليسيف B.E.O., T. XXV, Année 1972، ص ١٣٨؛ ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٠؛ النعيمي، دور القرآن في دمشق، ص ٥١؛ ابن
قاضي شهبة، الكواكب النيرة، ص ٣٥؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ط. بيروت ب-ت،
ص ٢٧٩؛ صلاح الدين المنجد، بيمارستان نور الدين، ط. دمشق ١٩٤٦م؛ أحمد عيسى،
البيمارستانات في الاسلام، ط. دمشق ١٩٣٩م، ص ٢٩٧؛ أسعد طلس، الآثار الاسلامية
والتاريخية في حلب، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص ٦٥-٦٦.

Gibb, The Career of Nur Al-Din, p. 519.

(٨٣) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٥٥.

والجدير بالذكر هنا أن البعض يرى أن البيمارستان النورى الذى أقامه نور الدين محمود فى دمشق يعد أول جامعة بالمصطلح الحديث تعنى بتدريس العلوم الطبية، حيث كانت تحتوى على مختبرات وأدوات طبية وغرف للجراحة والتوليد وكذلك قاعات مخصصة للدراسة. عن ذلك أنظر :

ممدوح الزوى، للرجع السابق، ص ١٦.

(٨٤) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٢٨. وعن يمارستان نور الدين محمود فى حلب أنظر : أدولف بويخه، تطور الطب فى حلب عبر العصور، عادات حلب، الكتاب الأول حلب، ١٩٧٥، ص ١٢٧.

(٨٥) ابن جبير، للمصدر السابق، ص ٢٣١.

(٨٦) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٨٧) ابن أبى أصيبعة، هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى، ولد فى دمشق حوالى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م، وتلقى علومه هناك حيث درس العديد من العلوم الدينية والطبية، وبرع فى الأخيرة على نحو خاص، وتلمذ على يدي عدد من كبار الأطباء فى عصره مثل الدخوار (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)، وابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٥١م). وكذلك تلمذ على يدي والده الذى كان هو الآخر طبيباً، وزامل ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، فى دراسته الطبية، ويبدو أنه لم يحقق شهرة كبيرة فى مسقط رأسه بدمشق خاصة أنه عرف بطب العيون فقط، وربما كان ذلك من العوامل الدافعة له لكى يتأقروا الشام إلى مصر، حيث كانت الروابط العلمية مزدهرة ووثيقة الصلة بين القطرين، فارتحل إليها عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٨م، وذلك فى عهد الملك الكامل الأيوبي، وقد عمل فى البيمارستان الصلاصى، ويبدو أنه اكتسب خبرة عملية من خلال ذلك على نحو أفاده فى ممارسته الطبية، وبعد مضي عام عاد أخرجه إلى الشام، ويبدو أن إقامته فى مصر مدة عام واحد لا تخلو من دلالات فربما أراد العودة إلى بلاده بعد أن كون خبرة مناسبة فى القاهرة، إضافة إلى خبرته السابقة فى دمشق، ومن المحتمل أنه استفاد من إقامته فى مصر من أجل الحصول على المادة التاريخية اللازمة لكتابة القسم الخاص بأطباء مصر ضمن عمله الفلذ عن طبقات الأطباء، وربما لم يحقق هناك ما كان يصبو إليه من شهرة عريضة فى مصر، ومن بعد ذلك نراه يتجه إلى صرخد بحوران، حيث أمضى بها معظم ما بقى من حياته، وأدركته منيته هناك فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م عن عمر يبلغ السبعين عاماً تقريباً،

ويلاحظ أن عمل ابن أبي أصيبعة الهام والذي حقق له شهرته العريضة هو عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وقد ترجم فيه لما يزيد على الاربعمائة طبيب من المسلمين وغير المسلمين، وتجدر أن غالبية الذين ترجم لهم من الأطباء للمسلمين كانوا من عصر الحروب الصليبية. عن أبي أبي أصيبعة أنظر :

ابن كثير، البداية والنهاية، ح-١٣، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٥٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ح-٧، ص ٢٢٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ح-٧، باعتناء إحسان عباس، ط. فساون ١٩٨٢م، ص ٢٩٥، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح-٥، ص ٣٢٧، كرد علي، خطط الشام، ح-٤، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٨، أحمد عيسى، معجم الأطباء من سنة ٦٥٠هـ إلى يومنا هذا، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص ١١٤، شاكِر مصطفى، التاريخ العربى والذخرون، ح-٢، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٦٨، فرات خطاب، الكحلة عند العرب، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص ٣٨-٣٩، على عبد الله النفاخ، أعلام العرب والمسلمين فى الطب، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص ٣٠٧، حاشية (٥)، صالح العلى، العلوم عند العرب، دراسة فى كتبها ومكانتها فى الحركة الفكرية فى الاسلام، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص ٦٧، محمود الحاج قاسم، الطب عند العرب والمسلمين، تاريخ ومساهمات، ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م، ص ٨٦، دائرة المعارف الاسلامية، مادة «ابن أبى أصيبعة»، ح-١، ت. خورشيد وآخرون، ط. القاهرة ١٩٣٣م، ص ٦٩، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ح-١، ص. بيروت ١٩٨٣م، ص ٤٧، الزركلى، الأعلام، ح-١، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ١١٧، محمد مؤنس أحمد عوض، الأسرات الطبية العربية حتى القرن ٧هـ / ١٣م، ومكانة أسرة بنى أبى أصيبعة فى تاريخ الطب العربى، مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب، السويد، الجمهورية العربية السورية عام ١٩٩٣م، عبد الرحمن زكى، تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٠-٤١.

(٨٨) ابن جبير، للصبر السابق، ص ٢٥١.

(٨٩) نفسه، نفس للصبر، ص ٢٣٢.

(٩٠) نفسه، نفس للصبر، ص ٢٢٦.

(٩١) نفسه، نفس للصبر، ص ٢٥٤.

(٩٢) نفسه، نفس للصبر، ص ٢٧٥.

(٩٣) Theoderich، أحد الرحالة الألمان الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية على ما يرجح خلال للرحلة من ١١٧١-١١٧٣م / ٥٦٧-٥٦٩هـ، والواقع أننا لا نملك معلومات

مؤكدة عن ليودريش باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه قد ورد لدى مقدمة يوحنا أوف وورزبرج John of Wurzburg الإنجليزية Introductionary Eposle، ومع ذلك لا يوجد دليل يدعم ذلك، ومن المحتمل أن ليودريش هذا عمل أسقف لورزبرج، ويلاحظ أن وصفه لكنيسة الضريح للقدس في بيت المقدس، وعقده للقارة بينها، وبين كنيسة اكس لاشايل Aix la Chapelle (آخن) يدل على أنه أكثر من التردد على تلك البلاد على الأرجح. عن ليودريش ورحلته أنظر :

Tobler, Bibliographia geographic a palestinae, Leipzig 1867, p. 18;
Wright, The geographical Lore in the time of the crusades, A study in the history of medieval science and tradition in Western Europe, p. 540.

محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ص ١٨٠-٢٠٠. وعن إشارته أنظر : Theoderich, p. 22.

(٩٤) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٣٢.

(٩٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠، محمد فتحي الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص ٢٤.

(٩٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٩٧) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٩٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٩٩) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(١٠٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٨.

وفيما يصل بالحرير، نعرف أن مصدر دودة القز أو دودة الحرير من جبال آسام في شمال الهند، ومن بلاد البنغال، إلا أنه في شمال الصين تعلم الانسان لأول مرة كيف يقوم بعملية نسج خيوط الحرير من الشرنقة، وقد تم ذلك الإنجاز الكبير في تاريخ الحضارة البشرية في حوض نهر تاريم، في ما يعرف بتركستان الصينية، ويلاحظ أن طريق الحرير بدأ من الشرق من الصين، واخترق ما يعرف بمنغوليا، وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاء وعمرات أفغانستان وبلاد فارس، ثم من بعد ذلك اخترق بلاد الرافدين ومنها إلى بلاد الشام، ومن هناك تفرع إلى فرعين أحدهما اخترق الأناضول إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، أو اتجه نحو موافق البحر المتوسط، مثل الاسكندرية وطرابلس حيث وجدت هناك السفن التجارية الأوروبية من أجل حمل المنسوجات الحريرية إلى جنوة والبندقية، ومرسيليا وغيرها من موافق القارة

الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن الحرير تميز بلونه الأبيض الجميل اللاتل إلى الأصفرار، واتسم بصفات مميزة كالنعومة، والمتانة، وشبه الشفافية، مما جعله محل إعجاب وحرص الملوك القدماء وكبار الأعيان من رجال ونساء على شرائه فدخل في نطاق التجارة الدولية بصورة واضحة.

ومن ناحية أخرى، نعرف أن للغول في مرحلة من مراحل تاريخهم؛ فكروا في إقامة دولة عالمية، كان من أهدافها السيطرة على طرق الحرير، وهو في واقعه جسر التواصل بين الشرق والغرب، وقد قام اثنان من الرحالة في العصور الوسطى، وهما ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤-١٢٢٤م)، وابن بطوطة (٧٠٢-٧٧٩هـ / ١٣٠٣-١٣٧٧م) بإرتياد طرق الحرير للذكور في أسفارها الطويلة للذى، والتي مثلت بالنسبة للأول مناطق في أوروبا وآسيا، والثاني مناطق أفريقيا وآسيا.

وجدير بالذكر أن الجيولوجى والرحالة الألماني فرديناند فون ريشتيوفن Ferdinand Von Richthoffen (١٨٢٣-١٩٠٥م) قام ١٨٦٠م برحلاته إلى أقطار الشرق، وعاد إلى أوروبا عام ١٨٧٢م وأطلق على ذلك الطريق للذكور تعبير طريقة الحرير. عن الحرير وطريقه التجارى الدولى أنظر:

أبو دلف للملهل الخرجى، الرسالة الثانية، تحقيق بطرس بولياكوف وأنس خالدوف، ط. موسكو ١٩٦٠م، ص ٣٧؛ على أبو عصف، طرق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة (١٢)، العددان (٣٩)، (٤٠)، كانون الأول ١٩٩١م، ص ٧٢-٨٢؛ عبدالرحمن حميدة، طرق الحرير بين ابن بطوطة وماركو بولو، العدد للذكور، ص ٨٣-٩٥؛ محمد حرب فرزات، حوار الحضارات على طرق الحرير بين الصين والشام، العدد المذكور، ص ٩٦-١١٨؛ بشير زهدى، طرق الحرير وتدمير مدينة القوافل التجارية، العدد المذكور، ص ١١٩-١٣٧؛ نعمان محمود جبران، محاولات للغول السيطرة على طرق الحرير (أسباب ونتائج)، العدد للذكور، ص ١٣٨-١٥٥؛ ماطع محلى، طرق الحرير ١٩٩١م، الطرق وسيلة وصل حضارية بين الشعوب، العدد للذكور، ص ٤٩-٧١؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ح ١، ص ١٢؛ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ت. اسماعيل العربى، ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م، ص ٢٧١-٢٧٢؛ مجدى غنيم، الحرير، ط. القاهرة ١٩٩٣م؛ عبدالرحمن سامى، القول الحق في بيروت ودمشق، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٠٣.

(١٠١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٩.

(١٠٢) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٧٤.

(١٠٣) نفسه، نفس المصدر، ص ١٢٦٠، وأيضاً، ابن شاذان الأيوبي، مضممار الحقائق وسر الخلائق تحقيق حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٥٣-١٥٤؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٤٠٣هـ، ص ٤٢.

(١٠٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(١٠٥) من الملاحظ أن قلعة اسکندرونة Scandalium نستمند معلوماتنا عنها من مصدرين أصليين هما : فوشيه دي شارتر Fulcher of Chartres، ووليم الصوري William of Tyre، ويقرر الأول أن الملك بلدين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٣-٥١١هـ) قام ببنائها، وأنها سميت سكندليون، وهي تعني ميدان الأسد، أما وليم الصوري فيقرر أن ذلك الملك عندما أراد تشييد قبضته على صور قام بتشييد القلعة المذكورة. وقرر أنها شيدت في موقع يسمى الكسندريوم Alexandrium على اسم الاسكندر المقدوني Alexander of Macedonia، وقد قام ذلك الملك بإعادة بناء الاسكندرونة، وعهد بها إلى أحد النبلاء وذلك على ما يبدو عام ١١١٧م / ٥١١هـ. عن قلعة اسکندرونة أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 220; William of Tyre, Vol. I, p. 514; Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. XII, London 1896, p.10, note (1); Marino Santo, Secret For the True Crusaders to help Them to recover the Holy Land, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., Vol. VII, London 1896, p. 8; Ludolph Von Suchem, p. 61-62.

(١٠٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٦١.

(١٠٧) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٦.

(١٠٨) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٣٠.

(١٠٩) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٢.

(١١٠) نفسه، نفس المصدر، ص ٢٢٤.

(١١١) من مشكلة نقص النص البشري وأثرها على الوجود الصليبي في بلاد الشام أنظر : الباب الأول - الفصل الأول.

الخاتمة

ذلكم سفر الجغرافيين والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، وقد تمخض البحث عن عدد من النتائج الهامة، من الممكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً : أفادت مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية وعلى مدى القرنين السادس والسابع الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، في تقديم صورة جلية للطوبوغرافية التاريخية بلاد الشام حينذاك، ومزجت بين الجغرافيا والتاريخ في تناسق حيوي وهام، ومن المهم بمكان إدراك أن كتابة تاريخ بلاد الشام بدون الاعتماد على مثل تلك الزلوة السابقة يعد أمراً مستحيلاً، وذلك على اعتبار أن الجغرافية توجه التاريخ، وأن التاريخ في بعض جوانبه ما هو إلا صراع على الجغرافيا في أشكالها المتعددة الطبيعية، والبشرية، والاقتصادية.. إلى غيرها من فروع الدراسات الجغرافية.

ثانياً : أكدت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة، على شمولية الرؤية الجغرافية لديار الإسلام في ذلك العصر، إذ أنهم قدموا لنا أوصافاً متعددة لبلاد الشام من خلال تناولهم العام لكافة أنحاء العالم الإسلامي الذي جابوا أقطاره المتعددة، ولم تكن هناك فكرة التجزؤ أو الانقسام حتى مع وجود العدو الصليبي الذي غرس كيانه في المنطقة الشامية وحاول مد ذلك الكيان إلى مناطق أخرى مثل مصر وتونس وغيرها. وهكذا فمن الممكن القول إن مؤلفاتهم في هذا المجال ما هي إلا امتداد طبيعي لمؤلفات الجغرافيين والرحالة المسلمين السابقين، ولا سيما منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر

للميلادى، مع إدراك فوارق الخبرة الجغرافية، وتطورات أوضاع المسلمين على مدى قرنين كاملين من الزمان.

ثالثاً : ألقت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين الأضواء الكاشفة على أوضاع الساحل الشامى الذى امتد من سان سيمون (السويدية) ميناء أنطاكية فى الشمال، حتى غزة جنوباً، وظهر حرصهم الواضح على إيراد العديد من الجوانب المتصلة به سواء السياسية أو الاقتصادية أو السكانية، على نحو أوضح إدراكهم لأهميته فى قضية الصراع الإسلامى/ الصليبي. وقد مثل الساحل عصب الحياة بالنسبة للصليبيين من خلال حركة الصادرات والواردات، وفرضهم المكوس على حركة التجارة، بالإضافة إلى أنه مثل نقطة أساسية فى اتصالهم بالوطن الأم للحركة الصليبية، ونعنى بها الغرب الأوروبى حيث قلم الدعم المادى والمعنوى اللازم لاستمرار المشروع الصليبي. ولذا، من الممكن القول دونما مبالغة، أن الصليبيين بقوا فى بلاد الشام ما بقيت فى أيديهم المناطق الساحلية، وعندما انتزعت منهم بالكامل فى نهاية المطاف على أيدى المماليك البحرية، كان ذلك إيذاناً بفشل مشروعهم لغزو بلاد الشام، وطردهم من المنطقة.

رابعاً : كشف الجغرافيون، والرحالة المسلمون، الذين قدموا إلى بلاد الشام فى ذلك العصر عما يمكن وصفه بالمواجهة الحضارية بين الجانبين الإسلامى والصليبي، إذ أنه بعد انتقشاع غبار المعارك الأولى اتى خاض الصليبيون غمارها ضد المسلمين وانتصروا خلالها، وبعد نجاحهم فى غرس كياناتهم السياسية فى الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، احك الطرفان حضارياً، وظهر بجلاء كيف أن الهزيمة العسكرية التى أصابت المسلمين على أيدى أعدائهم لم تكن تعنى الهزيمة الحضارية، بل إنهم كانوا أكثر تفوقاً على المستوى الحضارى منهم، ومن ثم فإن بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية مثلت أحد المعابر الأساسية والهامة التى نهلت من خلالها أوروبا الحضارة الإسلامية. وجاءت شهادات الرحالة المسلمين لتكشف لنا تلك الحقيقة المتصلة باختلاف المستوى

الحضارى بين الطرفين المتصارعين، وكان المجال الطبى، أحد المجالات الهامة التى كشفت أبعاد تلك المواجهة، ناهيك عن الجوانب الأخرى، بطبيعة الحال.

خامساً : كشفت مساهمات أولئك الجغرافيين والرحالة للمسلمين النقاب، عن ما يمكن وصفه بالنمو الحضارى والعمرانى لحواضر الشام الكبرى الخاضعة للسيادة الإسلامية مثل دمشق، وحلب وحماة وغيرها، والواقع أن من الأهمية بمكان رصد ذلك الجانب، على اعتبار أن تلك المدن التى وقعت على خطوط التجارة العالمية ثم تمتعت بموقع جغرافى وفر لها مصادر الحياة الوفيرة، والكثافة السكانية المرتفعة، ثم أنها اتصلت بجاراتها فى العراق ومصر، فإذا ما لاحظنا أن مدن العراق والشام ومصر، مثل الموصل وحلب، ودمشق والقاهرة كانت تمثل خط الدفاع الاستراتيجى فى مواجهة الصليبيين، وعجز الأخيرون عن إخضاع تلك المدن، واستمروا منحصرين فى الساحل والسهل الساحلى. ومن ثم فإن النمو المتزايد على المستوى الحضارى والعمرانى لتلك الحواضر الشامىة، أفاد فى تقديم صورة عن آليات الصراع الإسلامى/ الصليبي فى ذلك العصر.

سادساً : ألقت كتابات أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين، الأضواء الكاشفة على طبيعة فكرة الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيات، إذ أوضحت حجم مشاركة العناصر الإسلامية الوافدة على بلاد الشام، ومن أمثلتها المغاربة، الذين أبلوا بلاء حسناً فى مواجهة الصليبيين هناك، على نحو يكشف بجلاء عن أن قضية الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، لم تكن قضية شرقية فحسب؛ بل ومغربية أيضاً. وهكذا يمكن القول بأن الشخصية الإسلامية، تجاوزت العوائق الجغرافية فى ذلك العصر من أجل أن تنصهر فى تجربة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

سابعاً : قدمت مؤلفات أولئك الجغرافيين والرحالة إشارات هامة من العمائر الحربية، ودورها التاريخى فى بلاد الشام فى عصر الصليبيات، ولاسيما دور القلاع الصليبية، مع ملاحظة أن إشاراتهم تركزت على وصف مظهرها الخارجى، وحصانتها

ومناعتها، أما دورها الحربى، فكانت إشارتهم نادرة بشأنه، وإن قدمت مؤلفات الحوليات البديل عن ذلك النقص فى صورة وفرة التفصيلات المتعلقة بالجانبين الحربى، والسياسى.

ثامناً : وفرت رؤية أولئك الجغرافيين والرحالة المسلمين فى ربوع الشام، صورة هامة لدى الباحثين المحدثين عن خريطة بلاد الشام المذهبية، بالإضافة إلى حجم للمواجهة السنية - الشيعية هناك خلال عصر الحروب الصليبية. وقد واجه المسلمون السنيون - الذين حملوا على كاهلهم عبء الجهاد - خطر الإسماعيلية النزارية الذين تحالفوا استراتيجياً مع الصليبيين ضد عدوهم المشترك فى صورة المسلمين السنة، وشهروا سلاح الإرهاب والاغتيال فى وجه قيادات الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، وكانت منطقة شمال الشام إحدى المناطق الهامة فى أمر للمواجهة بين الجانبين.

تاسعاً : قدمت إشارات الرحالة للمسلمين الذين زاروا بلاد الشام فى ذلك العصر، لاسيما المقاربة، شهادة معاصرة عن العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين، لاسيما على المستوى التجارى، فى عصر شهد احتدام الصراع الحربى، إذ أن كل طرف احتاج الآخر من أجل تصريف منتجاته التجارية. ومن للملاحظ أنه بعد إخضاع الصليبيين للساحل الشامى والذى تم عام ١١٥٣م، بإسقاطهم آخر للمعقل الفاطمية هناك عسقلان، اكتملت السيادة الحربية والسياسة الصليبية على ذلك القسم البحرى والهام من بلاد الشام، وصارت القوى الإسلامية الشامية قوى برية حيصة، وتم القضاء على دور المسلمين كوسطاء تجاريين يستفيدون من سيطرتهم على ذلك الساحل. الأمر الذى حافظوا عليه بمهارة منذ القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى حتى آخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

وأمام الوضع السابق، احتاجت القوى الإسلامية إلى الصليبيين من أجل تصريف

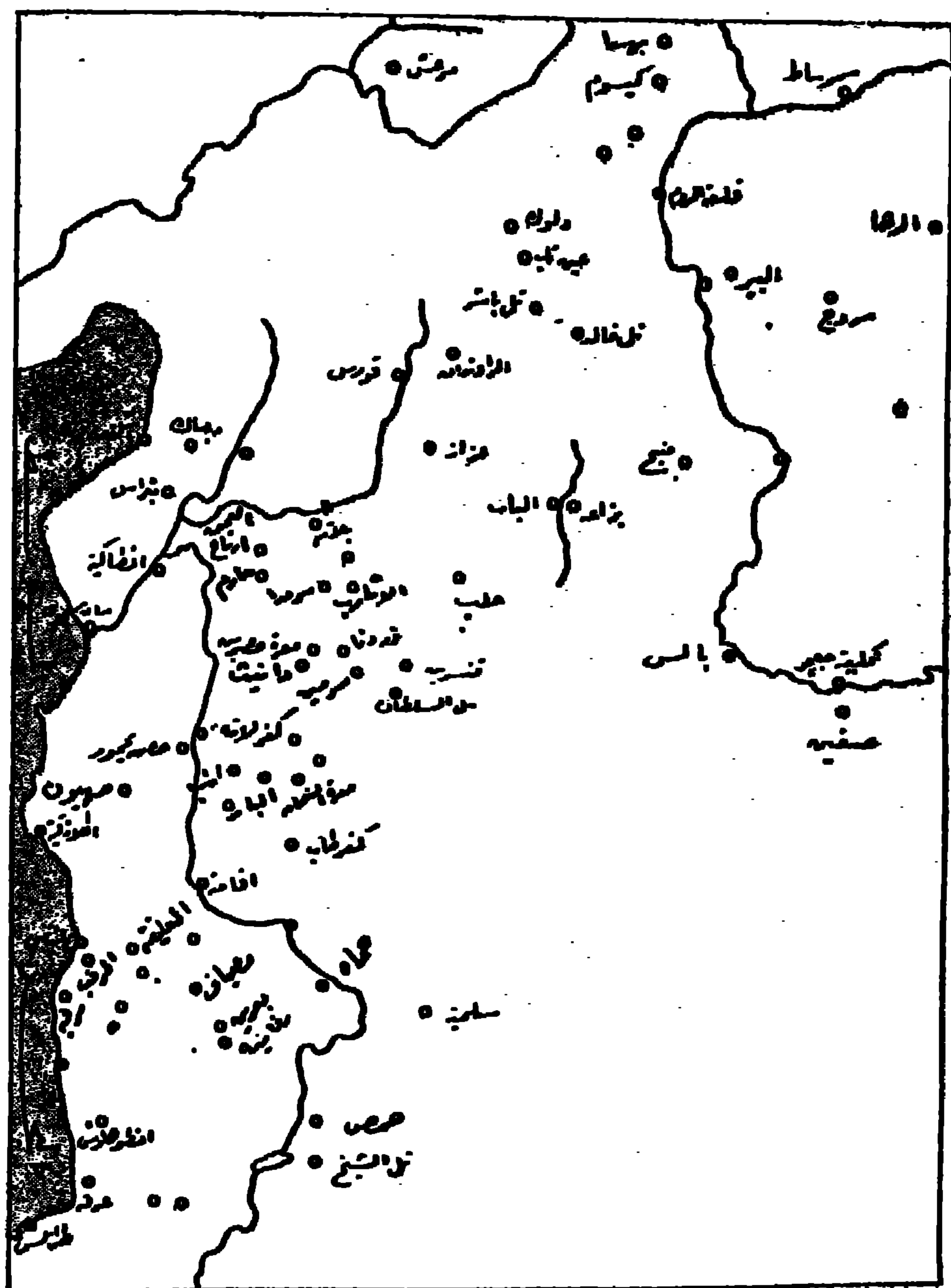
منتجاتها، وقبل الصليبيون ذلك على اعتبار أنهم جنوا أرباحاً طائلة من خلال تجارة العبور، واحتلالهم دور الوسيط التجارى البديل، وكان للمدن التجارية الإيطالية مثل جنوة، وبيزا، والبندقية دورها الهام فى هذا المجال، وهكذا أنشأت مؤلفات أولئك الرحالة إلى قدوم قوافل الصليبيين إلى مناطق المسلمين والعكس، وفى ذلك دلالة واضحة على أن العلاقة بين الجانبين لم تكن جميعها عدائية، بل إن للصلة المشتركة فرضت واقعاً خاصاً وفريداً. ومثل تلك الإشارات، ما كان من الممكن أن توردها كتب الحوليات ذات الاهتمام الحربى والسياسى الطابع. على نحو يعكس أهمية مؤلفات الرحالة المسلمين كأحد المصادر التاريخية المتميزة للعلاقات الإسلامية/ الصليبية.

مجمل القول وصفوته، إن مؤلفات الجغرافيين، والرحالة المسلمين، الذين تناولوا بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية احتوت على جوانب هامة من تاريخها على نحو جعل لها مكانة خاصة متميزة من بين مصادر تاريخ تلك المنطقة، خلال عصر المواجهة بين المسلمين والصليبيين.

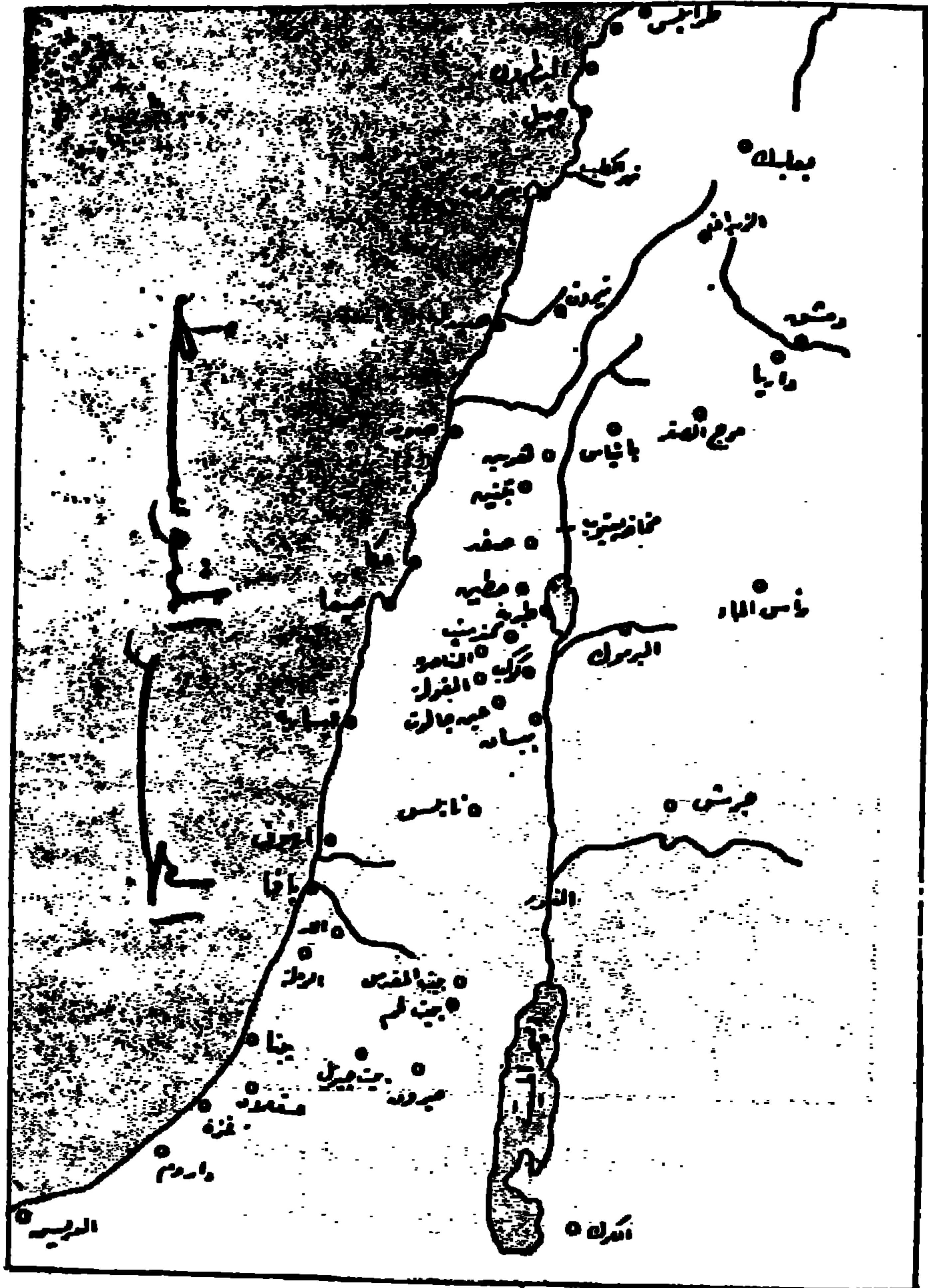
قائمة بالمختصرات

List of Abbreviation

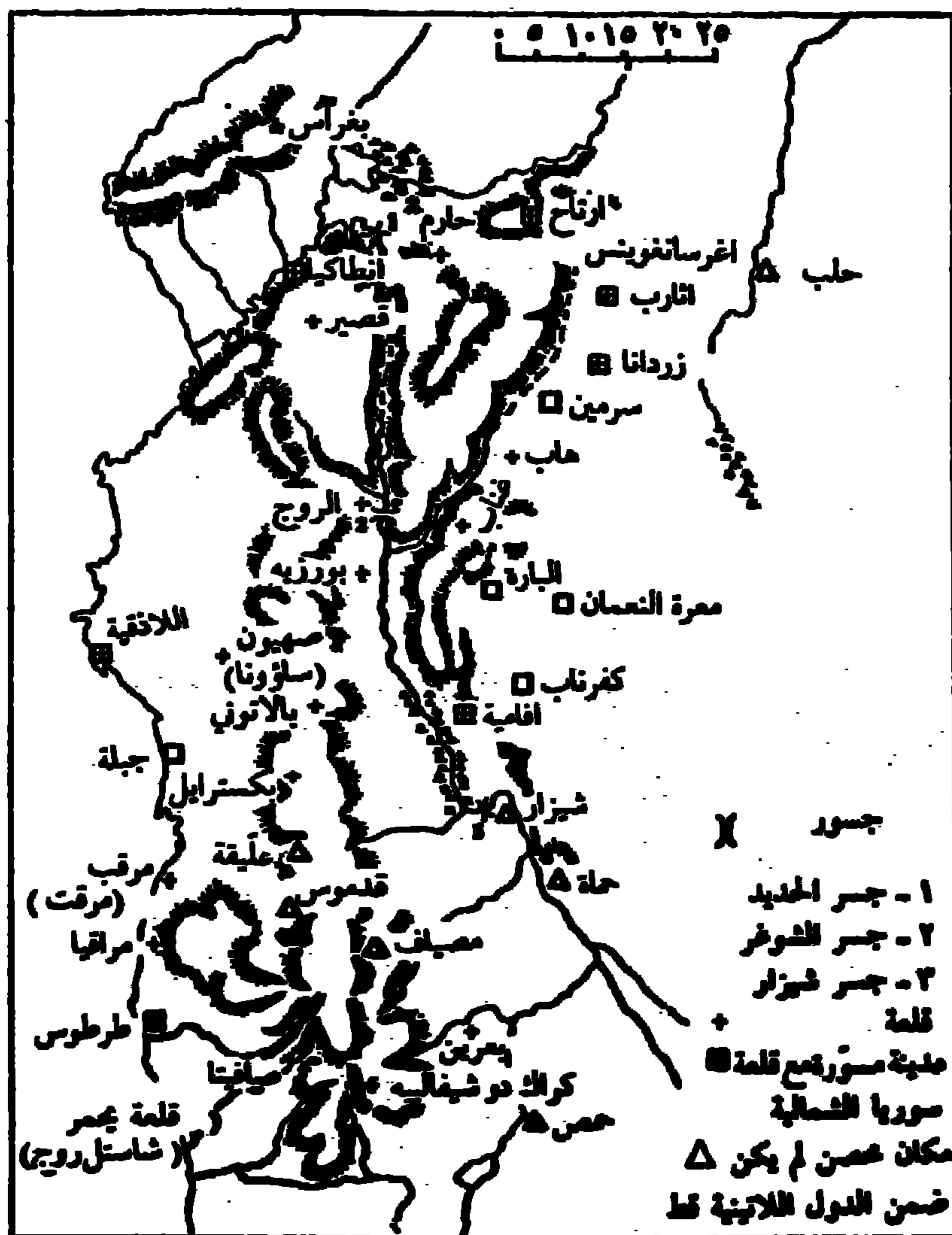
| | |
|-------------------|--|
| A.O.L. | : Arshives de L'Orient Latin. |
| B.E.O. | : Bulletin d'Etudes Orientales. |
| B.F.A.A.U. | : Bulletin of The Faculty of Arts Alexandria University. |
| B.S.O.A.S. | : Bulletin of The School of Oriental and African Studeis. |
| C.E. | : Chamber's Encyclopedia. |
| C.H.I. | : Cambridge History of Iran. |
| C.S.H.P. | : Corpus Scriptorum Historiae Pyzantinae. |
| D.E.I. | : Diction naire Encyclopedie quillet. |
| E.B. | : Encyclopedva Britannica. |
| E.J. | : Encyclopedia Judeca. |
| J.A. | : Journal Asiatique. |
| J.R.A.S. | : Journal of Royal Asvatvc Society. |
| J.P.O.S. | : Journal of Palestine Oriental Society. |
| M.H. | : Medical History. |
| M.I.E. | : Memoires publiés par Les membres de L'institute Francais d'Archaeologie Orientale au Caire. |
| M.W. | : Muslim World. |
| P.O. | : Patrologia Orientalia. |
| P.P.T.S. | : Palestine Pilgrims Text Society. |
| R.D.S.O. | : Rivista degli Studi Orientalia. |
| R.E.A. | : Revue d'Etudes Arabes (Arabica). |
| R.H.C. | : Recueil des Historiens des Croisades. |
| S. | : Syria. |
| U.J.E. | : Universal Jewish Encyclopedva. |



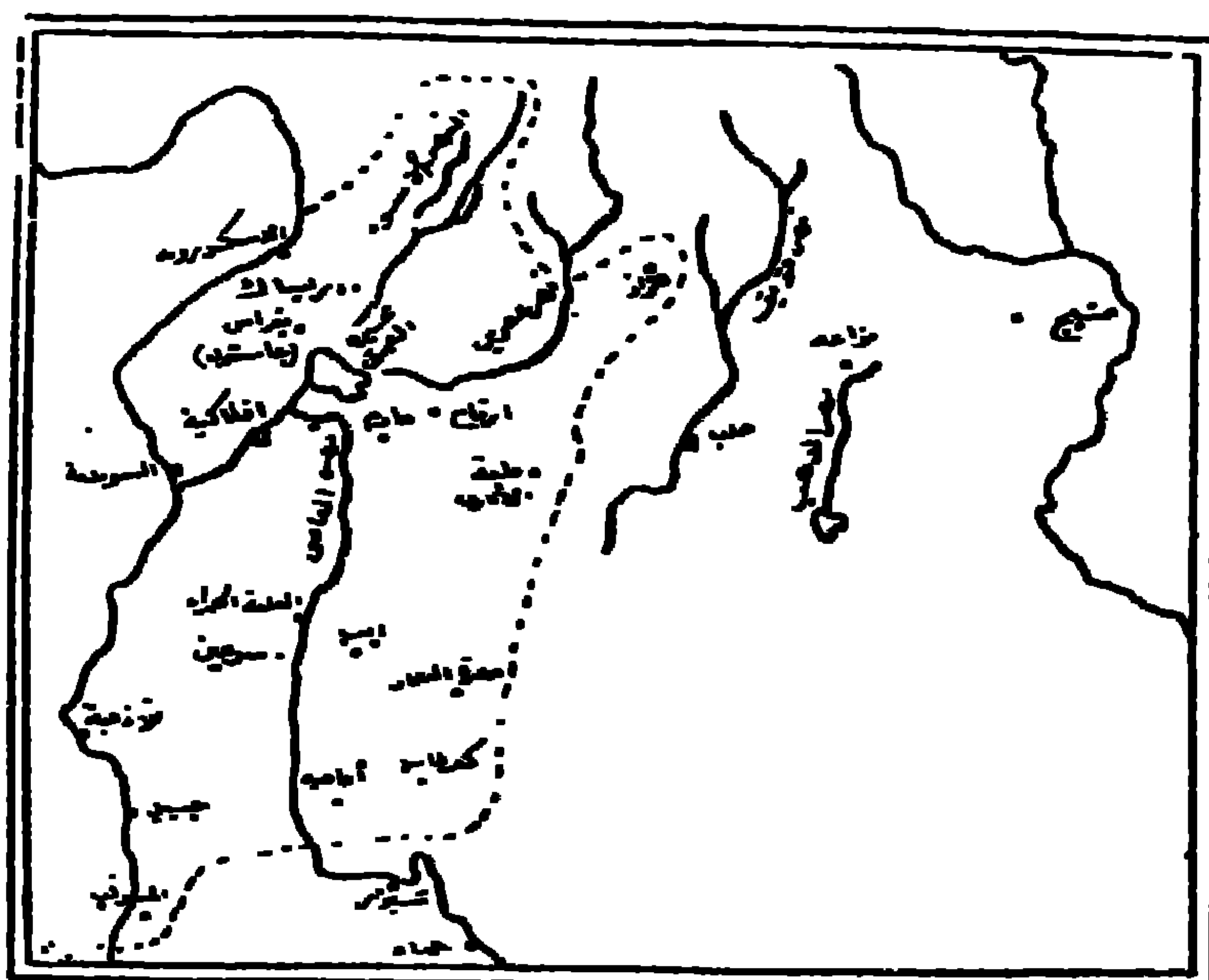
شمال الشام نقلاً عن العربي، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



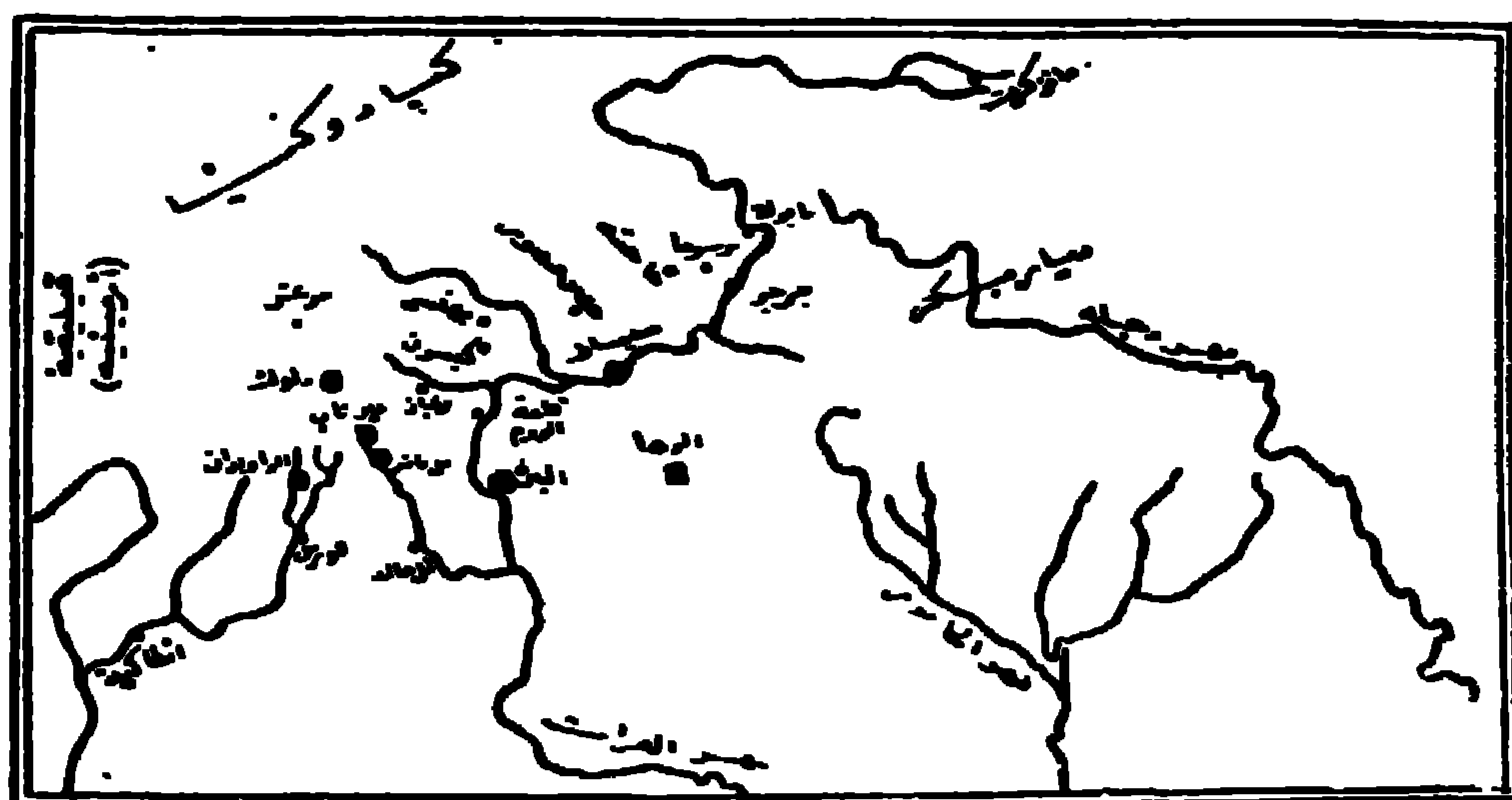
فلسطين نقلاً عن العرنى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



القلاع الصليبية في إمارتي أنطاكية وطرابلس
تقلاً عن سمائل، الحروب الصليبية.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
في عهد الامبراطور مانويل الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

الفهرس

٥ مقدمة

القسم الأول:

الجغرافيون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

- ١٧ ١ - الإدريسي
- ٧٣ ٢ - ياقوت الحموي
- ١١٣ ٣ - القزويني
- ١٣٥ ٤ - ابن شداد
- ١٨٣ ٥ - ابن سعيد المغربي
- ١٩٥ ٦ - أبو الفدا

القسم الثاني:

الرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

- ٢٢٣ ١ - السمعتي
- ٢٤٥ ٢ - أسامة بن منقذ
- ٢٦٥ ٣ - السائح الهروي
- ٢٨٣ ٤ - ابن جبير
- ٣٢٥ الخاتمة
- ٣٣١ قائمة بالاختصرات

رقم الإيداع ٩٥ / ٣٠٧٣

I. S. B. N. 977 - 5487 - 26 - 9

مطابع الهداية
دمشق العربية - البراميل - الجزائر

أجندة فيون والرجال المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية



للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES